

تيسير
علوم القرآن

تقديم سماحة الشيخ

وحيد بن عبد السلام بالي

تأليف

الدكتور/ علي النمر

حفظه الله

مركز التميز للبحث العلمي

ت: ٠٠٢٠١٠٠٣٥٢٤٧٩٧

تيسير

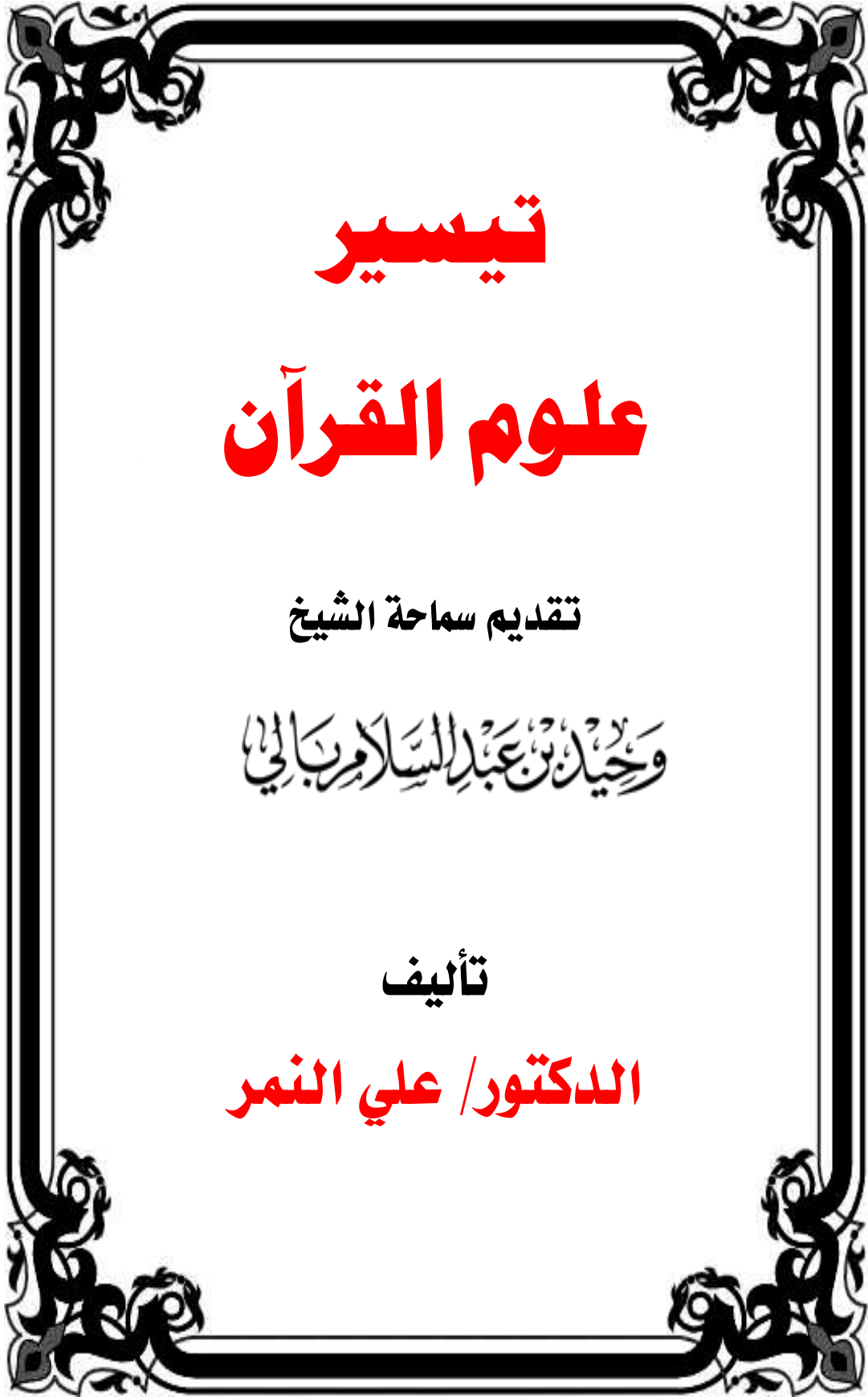
علوم القرآن

تقديم سماحة الشيخ

وَحِيدُ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ أَبِي

تأليف

الدكتور/ علي النمر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

[سورة القمر: ١٧]

مُقَدِّمَةٌ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ وَحِيدِ بْنِ عَبْدِ النَّسْرِ الْمَرْبُوعِيِّ



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله
وأصحابه أجمعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم كتاب مبارك من انشغل به بورك له في وقته وصحته
وماله وحياته كلها قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ﴾^(١).

ومن أراد الهداية والاستقامة فعليه بالقرآن قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢)، أي: يهدي من اتبعه لأحسن الأخلاق والأقوال
والأفعال.

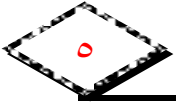
فأوصي نفسي وجميع المسلمين بالانشغال بالقرآن تلاوةً وحفظاً وتفسيراً
ومدارسةً وتدبراً.

وأقترح لكل مسلم أن يقرأ تفسيراً مختصراً على أبنائه ولو يوماً في
الأسبوع، مثل: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للشيخ أبي بكر الجزائري
المدرس بالمسجد النبوي **رَحْمَةُ اللَّهِ**، أو تفسير الإمام الحافظ ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ**، أو
غيرهما من التفاسير النافعة، يجتمع هو وأولاده حول الكتاب المبارك القرآن

(١) سورة الأنعام: ١٥٥.

(٢) سورة الإسراء: ٩.





الكريم يقرأ عليهم ولو ثلاث آيات، وتفسيرها في جلسة عائلية إيمانية روحانية تتغذى بها أرواحهم بسماع تفسير كلام ربهم.

وقد وقفت على كتاب **(تيسير علوم القرآن)** للدكتور/ علي النمر، زوج ابنتي، فوجدته كتاباً طيباً نافعاً مفيداً، جمع علوم القرآن وموضوعاته باختصار مفيد حيث يفتح الباب أمام من يريد أن يدرس الموضوعات المتعلقة بكتاب الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**.

فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجزي المؤلف خير الجزاء، وأن يزيده توفيقاً وسداداً.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

وحيد بن عبد السلام بالي

١٥ شوال سنة ١٤٤٣ هجرية

مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ



الحمد لله الذي أنزل الفرقان وعلم القرآن، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد الأمين المؤيد بالوحي والقرآن العظيم، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد، وحيته البالغة على الناس جميعاً، ختم الله به الكتب السماوية، وأنزله هداية ورحمة للعالمين، وضمنه منهاجاً كاملاً وشريعة تامة لحياة المسلمين، وهو معجزة باقية ما بقي على الأرض حياة، أيد الله به رسوله محمداً **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وتحدى به الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله، فكان عجز البلغاء والفصحاء قديماً وحديثاً أكبر دليل على سماوية هذا الكتاب، وأنه كلام رب العالمين، من أجل هذا كله كانت دراسة القرآن الكريم من أفضل الدراسات، وعلومه من أشرف العلوم؛ لأن شرف العلم بشرف موضوعه، ومن المعلوم أنه لا يمكن لأحد أن يعمل بالقرآن إلا بعد تفسيره وبيان معانيه، وطريق ذلك هو العلم بعلوم القرآن الكريم.

وقد ألف العلماء في كل عصر مؤلفات تناسب معاصريهم في الأسلوب والتنظيم والترتيب، وما زالوا يؤلفون وكل منهم يبذل جهده ويتحرى ما وسعه التحري أن يبسط هذه العلوم بأسلوب ميسر يدني فيه البعيد ويوضح فيه المستغلق ويجلو به المبهم.



ثم رأيت أن أشارك بالتأليف في هذه العلوم بجهدى المقل وإن لم أكن من أربابها بأسلوب حرصت على أن يكون ميسراً وبطريقة حرصت على أن تناسب الراغبين في التحصيل لتيسير لعلوم القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (١).

ومن هنا عقدت العزم على القيام بدراسة علوم القرآن، أملاً أن أقدم خدمة

لكتاب الله عزَّ وجلَّ، فكان عنوان كتابي (تيسير علوم القرآن).

وقد تكون من تمهيد وستة عشر فصلاً.

أما التمهيد ففيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أهمية علوم القرآن.

المبحث الثاني: تعريف علوم القرآن.

المبحث الثالث: نشأة علوم القرآن.

المبحث الرابع: أشهر المؤلفات في علوم القرآن.

الفصل الأول: الوحي.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الوحي.

المبحث الثاني: دليل الوحي.

المبحث الثالث: مراتب الوحي.

الفصل الثاني: نزول القرآن الكريم.

وفيه أربعة مباحث:

(١) سورة القمر: ١٧.

المبحث الأول: أنواع نزول القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الحِكم من نزول القرآن الكريم مفرّقاً.

المبحث الثالث: أول ما نزل من القرآن الكريم.

المبحث الرابع: آخر ما نزل من القرآن الكريم.

الفصل الثالث: أسباب النزول.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف أسباب النزول.

المبحث الثاني: أهمية أسباب النزول.

المبحث الثالث: طرق معرفة أسباب النزول.

المبحث الرابع: أحوال الألفاظ مع أسباب النزول من حيث العموم والخصوص.

الفصل الرابع: المكي والمدني.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف المكي والمدني.

المبحث الثاني: خصائص السور المكية.

المبحث الثالث: خصائص السور المدنية.

المبحث الرابع: فوائد العلم بالمكي والمدني.

الفصل الخامس: جمع القرآن وترتيبه.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم جمع القرآن.

المبحث الثاني: جمع القرآن زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



المبحث الثالث: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الرابع: جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الخامس: ترتيب القرآن.

الفصل السادس: النسخ.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف النسخ.

المبحث الثاني: حكم النسخ.

المبحث الثالث: الحكمة من النسخ.

المبحث الرابع: أقسام النسخ.

الفصل السابع: المحكم والمتشابه.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف المحكم والمتشابه.

المبحث الثاني: أقسام المتشابه.

المبحث الثالث: الحكمة من وجود المتشابه.

المبحث الرابع: معرفة المتشابه وسبب الاختلاف فيه.

الفصل الثامن: القراءات.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف القراءات.

المبحث الثاني: شروط القراءة الصحيحة وأركانها.

المبحث الثالث: نشأة علم القراءات.

المبحث الرابع: نزول القرآن على سبعة أحرف.

الفصل التاسع: العام والخاص.

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف العام والخاص.

المبحث الثاني: صيغ العموم.

المبحث الثالث: أقسام العموم.

المبحث الرابع: أقسام المخصص.

الفصل العاشر: المطلق والمقيد.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف المطلق والمقيد وحكهما.

المبحث الثاني: الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد.

المبحث الثالث: حمل المطلق على المقيد.

الفصل الحادي عشر: المنطوق والمفهوم.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المنطوق تعريفه وأقسامه.

المبحث الثاني: المفهوم تعريفه وأقسامه.

المبحث الثالث: شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة.

الفصل الثاني عشر: إعجاز القرآن الكريم.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإعجاز وإثباته.



المبحث الثاني: عناية العلماء به وأهم المؤلفات فيه.

المبحث الثالث: وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.

الفصل الثالث عشر: تفسير القرآن الكريم.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التفسير.

المبحث الثاني: نشأة علم التفسير.

المبحث الثالث: مصادر التفسير.

المبحث الرابع: أنواع التفسير.

المبحث الخامس: شروط المفسر.

الفصل الرابع عشر: خصائص القرآن الكريم.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: خصائص تتعلق بمكانته.

المبحث الثاني: خصائص تتعلق بأسلوبه.

المبحث الثالث: خصائص عامة.

الفصل الخامس عشر: تدبر القرآن الكريم.

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم التدبر.

المبحث الثاني: حكم التدبر وأهميته.

المبحث الثالث: الأسباب المعينة على تدبر القرآن.

المبحث الرابع: أساليب القرآن في الدعوة إلى التدبر.

المبحث الخامس: آثار تدبر القرآن الكريم.

الفصل السادس عشر: فضائل القرآن الكريم.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: فضل حفظ القرآن وقراءته وتعلمه وتعليمه.

المبحث الثاني: التغني بالقرآن.

المبحث الثالث: فضائل بعض سور وآيات القرآن.

سائلاً المولى **عَزَّوَجَلَّ** أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم إنه نعم

المجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على حبيينا وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله

رب العالمين.

كتبه

الفقير إلى الله

د. علي النمر

٢٦ رجب ١٤٤٣ هـ / ٢٧ فبراير ٢٠٢٢ م

مصر / كفر الشيخ / منشأة عباس

ت: ٠٠٢٠١٠٠٣٥٢٤٧٩٧



التمهيد

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أهمية علوم القرآن.

المبحث الثاني: تعريف علوم القرآن.

المبحث الثالث: نشأة علوم القرآن.

المبحث الرابع: أشهر المؤلفات في علوم القرآن.

المبحث الأول أهمية علوم القرآن



تعدّ علوم القرآن من أهم العلوم الإسلامية ذات الشأن العظيم والقدر الجليل، فهي المفاتيح التي تعين على فهم القرآن الكريم وتفسيره، والوقوف على أسرارها، واستنباط أحكامها؛ ولهذا اهتم بها العلماء وكانت موضع عناية المسلمين منذ أن نزل القرآن الكريم على النبي محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

ولذا تظهر أهمية علوم القرآن الكريم من جوانب عديدة أبرزها ما يلي:

- ١ - شرف علوم القرآن فرع عن شرف القرآن الكريم؛ إذ هو كلام رب العالمين.
قال ابن الجوزي **رَحْمَةُ اللهِ**: شرف العلم بشرف المعلوم ^(١).
- ويقول ابن جزي **رَحْمَةُ اللهِ**: إن علم القرآن العظيم هو أرفع العلوم قدراً، وأجلها خطراً، وأعظمها أجراً، وأشرفها ذكراً ^(٢).
- ٢ - أن هذا العلم جامع للعلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، نزوله، وجمعه وقراءته، وغيرها من علوم القرآن.
- ٣ - أنه مقدمة ومدخل لعلم التفسير؛ إذ المفسر يحتاج إلى معرفة أنواع علوم القرآن قبل الدخول في التفسير، وقد جعل السيوطي كتابه الإتيان مقدمة لتفسيره مجمع البحرين الذي شرع فيه ولم يتمه ^(٣).

(١) زاد المسير لابن الجوزي: ٣ / ١.

(٢) التسهيل لابن جزي: ٢ / ١.

(٣) ينظر: الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن للشريجي: ٢٣٥.



والناظر في مقدمات التفاسير - والتي حوت نبذاً وأنواعاً من علوم القرآن - يظهر له جلياً عناية المفسرين بهذا الأمر.

٤ - يساعد على فهم وتدبر القرآن الكريم، واستنباط أحكامه، ومعرفة حكمه، وحل مشكله، وفهم متشابهه، بصورة صحيحة دقيقة؛ لأنه لا يمكن أن يفهم القرآن ويفسره من لا يعرف نطقه، ورسمة، وأوجه قراءته، وأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ونحو ذلك، فهو الأساس، والمفتاح لفهم القرآن الكريم.

٥ - زيادة الثقة واليقين بهذا القرآن العظيم، خاصة لمن يتعمق في معرفة إعجازه، وأحكامه، وحكمه، ويقف على دقيق أسرارهِ، إذ الجهل بمثل هذه العلوم يجعل المسلم عرضة للشبهات التي يقصد من ورائها زعزعة اليقين.

٦ - معرفة الجهود العظيمة - الممتدة عبر التاريخ وفي كل القرون - التي بذلها العلماء لخدمة هذا الكتاب، ودور هذه الجهود في حفظه من التغيير والتبديل، وفي تيسير فهمه.

٧ - التسلح بعلوم قيمة تمكن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض له من أعداء الإسلام، وبيث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه، وتعاليمه، وهو من أعظم الواجبات.

٨ - زيادة ثقافة الفرد المسلم بالمصدر الأول لدينه، وأعظم ما يملكه في وجوده، إذ ينبغي لكل مسلم أن يأخذ حظه من القرآن مهما كان تخصصه، ومهنته، وحرفته.

٩ - نيل الأجر والثواب، إذ تعلم مثل هذه العلوم من أوسع أبواب العبودية لله **عَزَّوَجَلَّ**.

١٠ - تطهير القلب، وتهذيب النفس، وزيادة الإيمان، إذ تعلم علوم القرآن يربط

المسلم بصورة قوية بكتاب الله الذي أنزله الله شفاء للناس ورحمة.



المبحث الثاني تعريف علوم القرآن



تطلق علوم القرآن على معنيين^(١) الأول: المعنى الإضافي، والثاني: بمعنى الفن المدون، ويقتضي الموضوع أن أتحدث عن طرفيه أولاً، ثم عن المراد بهذا المركب بعد نقله وتسميته هذا الفن المدون به.

أولاً- المعنى الإضافي:

أ) كلمة (علوم):

لغة: جمع (علم)، قال ابن فارس **رَحْمَةُ اللَّهِ:** «العين واللام، والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، من ذلك العلامة، وهي معروفة، يقال: علمت على الشيء علامة، ويقال: أعلم الفارس، إذا كانت له علامة في الحرب... العلم نقيض الجهل»^(٢).

وقال الراغب الأصفهاني **رَحْمَةُ اللَّهِ:** «العلم إدراك الشيء بحقيقته وذلك ضربان: أحدهما إدراك الشيء، والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه»^(٣).

(١) ينظر: علوم القرآن الكريم: عبد الرحيم فرغل البليني: ١٣، ودراسات في علوم القرآن: فهد بن عبد الرحمن الرومي: ١٥، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ٦.

(٢) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس: ٤/١٠٩-١١٠، مادة (علم)، والصحاح: للجوهري: ٤/٦١٣، ولسان العرب: لابن منظور: ٢/٨٧٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني: ٣٤٧، مادة (علم).

أما العلم في الاصطلاح: «فهو حصول صورة الشيء في العقل، وقيل هو إدراك الشيء، على ما هو به، وقيل زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه»^(١).
وقيل: هو المعلومات المنضبطة بجهة واحدة، أي موضوع معين^(٢).

ب) كلمة القرآن:

القرآن في اللغة: «مصدر لقرأت، كالرجحان، والغفران، سمي به الكتاب المقروء، من باب تسمية المفعول بالمصدر»^(٣).

قال الجوهري **رَحِمَهُ اللَّهُ:** «وقرأت الكتاب قراءة وقرآنًا، ومنه سمي القرآن قرآنًا؛ لأنه يجمع السور فيضمها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(٤) أي جمعه، وقراءته»^(٥).

وقال ابن منظور **رَحِمَهُ اللَّهُ:** «وقرأ الشيء جمعه، وضمه، أي ضم بعضه إلى بعض، وقرأت الشيء قرآنًا جمعته، وضممت بعضه إلى بعض»^(٦).

أما القرآن في الاصطلاح، فقد عُرف بتعاريف كثيرة نذكر بعضها:

١- القرآن هو اللفظ المنزل على النبي محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس^(٧).

(١) التعريفات: للجرجاني: ١٩٩.

(٢) ينظر: مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقاني: ٦/١، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ٩.

(٣) المفردات: للراغب الأصفهاني: ٤٠٠.

(٤) سورة القيامة: ١٧.

(٥) الصحاح: للجوهري: ٥٠/١.

(٦) لسان العرب: لابن منظور: ٤٢/٣، مادة (قرأ).

(٧) ينظر: مناهل العرفان: للزرقاني: ١٢/١، وعلوم القرآن الكريم: للبليني: ١٤، والواضح في علوم القرآن:

مصطفى البغا، ومحي الدين ديب: ١٥.



٢- هو كلام الله المنزل على محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** المتعبد بتلاوته^(١).

٣- هو الكلام المعجز المنزل على النبي محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته^(٢).

ويمكن أن يجمع بين هذه التعريفات فيقال: **(هو كلام الله، المنزل على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المعجز في لفظه ومعناه، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته).**

شرح التعريف:

أما **(كلام)** فهو اسم جنس يشمل جميع الكلام لله تعالى وللمخلوقات وبإضافته إلى اسم الجلال **(كلام الله)** يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة.

و **(المنزل)** يخرج كلام الله الذي استأثر به سبحانه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(٣). وتقييد المنزل بكونه **(على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)** يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

و **(المعجز بلفظه ومعناه)** قيد في التعريف؛ لأن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة والرسالة المتجددة الصالحة لكل زمان ومكان، وقد وقع به التحدي إلى

(١) ينظر: مباحث في علوم القرآن: مناع القطان: ٢٠، ودراسات في علوم القرآن: فهد الرومي: ٢١.
(٢) ينظر مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ٢١، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ١٠، والالاء الحسنان في علوم القرآن: موسى شاهين/ ١١، والواضح في علوم القرآن: مصطفى البغا: ٨.
(٣) سورة الكهف: ١٠٩.

يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (١).

و (المنقول إلينا بالتواتر) قيد خرج به الحديث القدسي مما لم يرد متواترا، وخرج به قراءات الآحاد والشواذ.

و (المتعبد بتلاوته) يُخرج قراءات الآحاد، والأحاديث القدسية؛ لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك؛ لأنه لا يتعبد بتلاوتها.

(١) سورة الإسراء: ٨٨.



ثانياً. علوم القرآن بمعنى الفن المدون:

«هي مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وقراءته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه، ومنسوخه، ودفع الشبه عنه، ونحو ذلك»^(١).

وقيل: «هو العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن، من حيث معرفة أسباب النزول، وجمع القرآن، وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن الكريم، وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير؛ لأنه يتناول المباحث التي لا بد للمفسر من معرفتها؛ للاستناد إليها في تفسير القرآن»^(٢).

وقيل: هو عبارة عن طوائف المعارف المتصلة بالقرآن^(٣).

وخلاصة القول إن علوم القرآن، تطلق على كثير من المباحث التي لها صلة بالقرآن الكريم، مثل أسباب النزول، والقراءات، والناسخ والمنسوخ، وتاريخ القرآن وإعجازه إلى غيرها من المباحث الأخرى.



(١) ينظر: مناهل العرفان: للزرقاني: ١/ ٢٠، واللائح الحسنان في علوم القرآن: موسى شاهين: ٥، ودراسات في علوم القرآن: فهد الرومي: ٣٠.

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان: ١٥، وفي علوم القرآن دراسات ومحاضرات: محمد عبد السلام كفاي: ٣٣.

(٣) ينظر: دراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ١٢.

المبحث الثالث نشأة علوم القرآن



إن الذي ينظر في تاريخ علوم القرآن، يجد أن هذه العلوم قد نشأت منذ عهد النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فقد كان الصحابة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ** يرجعون إلى النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في تفسير ما غمض وتوضيح ما صعب عليهم فهمه، وإدراكه، وكان النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يوضح لهم ذلك، وبينه عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾^(١)، ومن ذلك تفسيره للظلم بالشرك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾^(٢)، فعن عبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾^(٣) شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٤) (٥).

ومن ذلك أيضاً ما رواه عدي بن حاتم **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قال: لما نزلت الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) سورة الأنعام: ٨٢.

(٣) سورة الأنعام: ٨٢.

(٤) سورة لقمان: ١٣.

(٥) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩ / ١٨) برقم: (٦٩٣٧) ومسلم في "صحيحه" (١ / ٨٠) برقم: (١٢٤).



الْأَسْوَدُ^(١). عمدت إلى عقالين أحدهما أسود، والآخر أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، ثم جعلت أنظر إليهما، فلا يتبين لي الأبيض من الأسود، ولا الأسود من الأبيض، فلما أصبحت غدوت على رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فأخبرته بالذي صنعت. فقال: إن كان وسادك إذا لعريض؛ إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل^(٢).

وهكذا ظل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يفسر ويبين لأصحابه ما أشكل عليهم فهمه من القرآن الكريم حتى توفاه الله **عَزَّ وَجَلَّ**.

ثم جاء عهد الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** واتسعت رقعة الإسلام وأخذوا ينشرون ما تعلموه من النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وكانوا مضرب الأمثال في نشر الإسلام وتعاليمه والقرآن وعلومه.

وفي عهد عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** كثرت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بغيرهم من الأمم التي لا تعرف العربية، وكاد يحدث خلاف بين قراء القرآن؛ فأمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أن يجمع القرآن في مصحف إمام وأن تنسخ منه مصاحف بعث بها إلى الأقطار الإسلامية فتم ذلك، وبهذا العمل وضع عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** الأساس لما نسميه علم رسم القرآن^(٣).

(١) سورة البقرة: ١٨٧.

(٢) صحيح مسلم: ٧٦٦/٢، كتاب الصيام- باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، والحديث برقم (١٠٩٠).

(٣) ينظر: مناهل العرفان: للزرقاني: ٢٣/١، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان: ١٠، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ١٤، والواضح في علوم القرآن: مصطفى البغا، ومحي الدين ديب: ٩.

ثم جاءت خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلاحظ العجمة تحيف على اللغة العربية، فأمر أبا الأسود الدؤلي بوضع قواعد النحو صيانة لسلامة النطق، وضبطاً للقرآن الكريم، فكان هذا العمل بداية لعلم إعراب القرآن الكريم^(١).

استمر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتناقلون معاني القرآن الكريم وتفسير آياته ونشر علومه بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين، وممن اشتهر من الصحابة في تفسير القرآن الكريم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير.

وعن الصحابة أخذ التابعون وكان من أشهرهم: مجاهد، وعطاء وعكرمة وقتادة، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وزيد بن أسلم وغيرهم، والذي روي عن هؤلاء جميعاً يتناول: علم التفسير وعلم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني، وعلم النسخ والمنسوخ ونحو ذلك، مما يجعلهم واضعي الأساس لهذه العلوم^(٢).



(١) المصادر نفسها.

(٢) ينظر: مناهل العرفان: للزرقاني: ١/ ٢٤، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان: ١١.



المبحث الرابع أشهر المؤلفات في علوم القرآن



لقد أُلّف في علوم القرآن كتب كثيرة، سواء كانت هذه المؤلفات بالمعنى العام له وهو علوم القرآن، أو في جزئياته، كالنسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وفضائل القرآن، والقراءات وغيرها، أذكر هنا بعض ما صنف في هذا العلم بمعناه العام مع نبذة عن المؤلف والمؤلف، وهي كالآتي:

١- الفهرست لمحمد بن إسحق المشهور بابن النديم، جعل في هذا الكتاب فهرستاً لكتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب في أصناف العلوم، وأخبار مصنفاتها، وطبقات مؤلفيها، وأنسابهم، وتاريخ مواليدهم ووفاتهم، ومناقبتهم ومثالبهم، وقسم هذا الكتاب إلى عشرة أبواب، سماها (مقالات)، وكل باب قسمه إلى فصول سماها (فنوناً)، وصنف منها باباً لعلوم القرآن، تكلم فيه على جمع القرآن، والمكي والمدني، وأخبار القراء، والكتب المؤلفة في القراءات، وفي النسخ، وفضائل القرآن وغيرها من هذه العلوم^(١).

مؤلفه: محمد بن إسحق بن محمد بن إسحق النديم البغدادي أبو الفرج (ت ٣٨٥ هـ)، كان معتزلياً، له تصانيف منها الفهرست في أخبار الأدباء والتشبيهات^(٢).

(١) ينظر: علوم القرآن الكريم ص ٦-٧.

(٢) ينظر: الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى،

دار إحياء التراث، بيروت، ١٣٩/٢.

٢- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، لابن الجوزي، قسم هذا الكتاب إلى أبواب، ذكر في كل باب منها علماً من علوم القرآن، فذكر في فضائل القرآن، ونزول القرآن على سبعة أحرف، وكتابة المصحف وهجائه، وعدد أجزاء وسور وآيات القرآن، وبيان السور المكية والمدنية، والوقف والابتداء وغيرها^(١).

مؤلفه: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي أبو الفرج (ت ٥٩٧ هـ)، علامة عصره في التاريخ والحديث، مولده ووفاته ببغداد، له مصنفات كثيرة بلغت نحو ثلاثمائة مصنف، منها (تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار) و(الأذكياء وأخبارهم) و(الناسخ والمنسوخ)^(٢).

٣- جمال القراء وكمال الإقراء، لعلم الدين السخاوي، قسم الكتاب إلى أقسام سماها كتباً، وسمى كل كتاب منها، فكان مجموعها عشرة كتب، ذكر فيها: أول ما نزل من القرآن، والمكي والمدني، وأسماء القرآن والسور، وإعجاز القرآن، وفضائل القرآن، والناسخ والمنسوخ وغيره^(٣).

مؤلفه: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي أبو الحسن (ت ٦٤٣ هـ)، ولد بمصر سنة (٥٥٨ هـ)، التقى الإمام الشاطبي فلازمه وأخذ عنه القراءات واللغة والنحو، كان إماماً في التفسير، والقراءات، واللغة، والنحو، أخذ عنه العلم كثير من العلماء^(٤).

(١) ينظر: علوم القرآن الكريم ص ١٢-١٤.

(٢) ينظر: الأعلام للزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي، دار العلم للملايين، ط ٧، ١٩٨٦ م، ٣/٣١٦.

(٣) ينظر: علوم القرآن الكريم ص ١٤-١٥.

(٤) ينظر: جمال القراء وكمال الإقراء، علي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣ هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، ط ١، ٣/١.



٤- البرهان في علوم القرآن، للزرکشي، قسم هذا الكتاب الى سبعة وأربعين نوعاً، تكلم في كل نوع على علم من علوم القرآن، منها معرفة سبب النزول، ومعرفة المناسبات بين الآيات، وعلم المتشابه، والمكي والمدني، ومعرفة أول ما نزل من القرآن وغيرها^(١).

مؤلفه: محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي أبو عبد الله (ت ٧٩٤ هـ)، ولد عام (٧٤٥ هـ)، العالم المحرر العلامة المصنف، ولي مشيخة خانقاه كريم الدين بالقراءة الصغرى، من مؤلفاته: (تكملة شرح المنهاج للأسنوي) و(خادم الشرح والروضة) و (شرح جمع الجوامع للسبكي) و (البرهان في علوم القرآن)^(٢).

٥- الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي، ذكر في هذا الكتاب ثمانين نوعاً من أنواع علوم القرآن، فصل في كل نوع منها وأسهب، فذكر فيها ما جاء من أحاديث وأقوال الصحابة وأقوال العلماء، ويعد هذا الكتاب ثاني أكبر كتاب في علوم القرآن بعد البرهان في علوم القرآن للزرکشي^(٣).

مؤلفه: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي أبو بكر (ت ٩١١ هـ)، ولد عام (٨٤٩ هـ)، بلغت مصنفاة اثنين وتسعين وسبعمئة مصنف، من أشهرها (الإتيقان في علوم القرآن) و(التحبير في علم التفسير) و (تفسير الجلالين) و (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)^(٤).

(١) ينظر: الإتيقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق: أحمد بن علي،

دار الحديث، القاهرة، ١/٣٨-٣٩.

(٢) طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة (ت ٨٥١ هـ)، تحقيق: د. الحافظ عبد

العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١/١٦٧-١٦٨.

(٣) ينظر: علوم القرآن الكريم ص ١٧.

(٤) ينظر: الإتيقان في علوم القرآن ١/١١-١٥.

٦- مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني، قسم هذا الكتاب إلى سبعة عشر مبحثاً، ناقش في كل مبحث منها علماً من علوم القرآن، ابتدأها بتعريف لعلوم القرآن وتاريخ نشأة هذا العلم، وتاريخ التدوين فيه، ثم فصل في هذه العلوم، وأورد الشبهات المثارة حول بعض القضايا فيه وحاول علاجها، وكذلك تطرق إلى بعض القضايا العلمية وبين موقف الإسلام منها بأسلوب علمي دقيق.

مؤلفه: محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧ هـ)، من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل فيها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، من مصنفاته: (مناهل العرفان في علوم القرآن) و (بحث في الدعوة والإرشاد)^(١)



(١) ينظر: الأعلام للزركلي ٦/ ٢١٠.



الفصل الأول

الوحي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الوحي.

المبحث الثاني: دليل الوحي.

المبحث الثالث: مراتب الوحي.

المبحث الأول تعريف الوحي



تعريف الوحي لغة وشرعاً:

١ - المعنى اللغوي:

الوحي مصدر بمعنى الإشارة السريعة الخفية، يقال: أوحيت إلى فلان، إذا كلمته بسرعة وخفية، وأوحى وأوماً إلى فلان بمعنى أشار، وأوحى الله إليه ألهمه^(١)، وقد ورد في القرآن الكريم استعمال هذه المعاني، من ذلك:

أ- الإلهام الغريزي للحيوان كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِّنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(٢).

ب- الوسوسة بالشر سواء أصدرت من إنسان إلى إنسان أم من شيطان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^(٣).

وفي السورة نفسها: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيَّ أَوْلِيَاءِهِمْ

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦ / ٩٣، مادة وحي. فالواو والحاء والحرف المعتل: أصل يدل على إلقاء علم إلى غيرك، فالوحي الإشارة، والوحي الكتاب والرسالة، وكل ما ألقىته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان.

(٢) سورة النحل: ٦٨.

(٣) سورة الأنعام: ١١٢.



لِيُجَدِّ لَوْكُمْ ط (١).

ج- وبمعنى أشار وأوماً ورد قوله تعالى في سورة مريم عن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿فَخَجَّ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً

وَعَشِيًّا (١١)﴾ (٢).

فالوحي هنا لا يجوز أن يكون المراد به الكلام، لأن الكلام كان ممتنعاً عليه؛

لقوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿قَالَ ءَايَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ

لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)﴾ (٣).

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: والأشبه بالآية هو الإشارة، وهو أن يعرفهم ذلك إما

بالإشارة أو برمز مخصوص لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ ءَايَتِكَ إِلَّا

تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ (٤).

والرمز لا يكون كتابة للكلام (٥).

٢ - المعنى الشرعي:

عرفه العلماء الوحي بتعريفات كثيرة منهم من أسهب، ومنهم أوجز في

تعريفه.

وأفضل التعريفات وأحسنها ما قاله ابن حجر في فتح الباري: «الوحي هو

(١) سورة الأنعام: ١٢١.

(٢) سورة مريم: ١١.

(٣) سورة مريم: ١٠.

(٤) سورة آل عمران: ٤١.

(٥) انظر التفسير الكبير، ٢١ / ١٩٠.

الإعلام بالشرع» أو «إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه»^(١) أو ما روي عن الزهري حين سئل عن الوحي فقال: «الوحي ما يوحي الله إلى نبي من الأنبياء فيثبته في قلبه فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله»^(٢).

وبعد أن عرفنا الوحي بمعنييه: اللغوي والشرعي فلا يسعنا إلا أن نسأل، هل وحي الله تعالى إلى أم موسى ينتسب إلى الحقيقة اللغوية أو إلى الحقيقة الشرعية؟

ذهب قتادة إلى أن الوحي إلى أم موسى كان بالإلهام الفطري، وممن أيد ذلك الراغب الأصفهاني، وقد نحا نحوه الحافظ ابن كثير والإمام البيضاوي وغيرهم، كما سار على هذا النهج من بعد طائفة من الكاتبين في علوم القرآن من أهل هذا العصر، منهم الدكتور صبحي الصالح **رَحْمَةُ اللَّهِ** والدكتور عدنان زرزور والدكتور القسبي زلط حين قال ثلاثهم: إن الوحي إلى أم موسى هو الإلهام الفطري وهو إلى النحل الإلهام الغريزي، ثم قلدهم كثير.

وذهب آخرون - قدماء ومحدثون - منهم الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة إلى أن الوحي هنا بمعناه الشرعي، وناقش وردّ على القائلين بأن الوحي هنا بمعناه اللغوي، وهو الإلهام الفطري، فقال:

إن هذا الرأي غير صحيح، وإلا فمن أين لفطرة كائن من كان اعتقاد جازم بأن فلانا سيكون من المرسلين، حتى يتصور ارتكاز مثل هذا الاعتقاد في فطرة أم موسى بالنسبة لولدها **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حسبما نطقت به الآية الكريمة من سورة

(١) فتح الباري ١ / ٩.

(٢) انظر الإتيان في علوم القرآن مبحث الوحي ١ / ١٤.



القصص: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

هكذا وعلى هذا النحو المؤكد بأن واسمية الجملة ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢) هذه واحدة.

والثانية لا تدنو عن أختها دلالة، وهي تعبيره تعالى عن هاتين البشارتين بالوعد في قوله الكريم: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

فمن أين يصلح أن يقال لمجرد الإلهام، أو حتى لرؤيا منام رآها غير نبيٍّ كأم موسى، مهما تكن درجة رائيها من الصلاح والورع، من أين يصلح أن يقال لشيء من هذا أو ذاك: (وعد).

فمن ثم استظهر كل من أبي حيان والألوسي^(٤) أن يكون الوحي إلى أم موسى **عَلَيْهِ السَّلَام**، هو من طريق ملك أرسله الله إليها.

ولعل الذي حمل هؤلاء وأولئك من قدماء ومحدثين والقائلين بدعوى الإلهام الفطري، ما هو إلا خشيتهم أن يظن بأم موسى النبوة، مع إجماع المسلمين وغيرهم على عدم نبوتها، بل مع إجماع المسلمين على أن من شرط النبوة الذكورة، انطلاقاً من نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

(١) سورة القصص: ٧.

(٢) سورة القصص: ٧.

(٣) سورة القصص: ١٣.

(٤) انظر تفسير البحر المحيط ج ٧ ص ١٠٥، وروح المعاني للألوسي ص ٤٥.

نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَعَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾^(١).

ولكن من أين يقتضي إرسال الملك إلى أحد ضرورة نبوته، أفلا يرون إرساله تعالى جبريل إلى مريم حين تمثل لها بشرا سويا، وكلمها بما ذكر من قصتها في كتابه الكريم.

لذا قال بعض المفسرين: إن الله تعالى أرسل إلى أم موسى ملكا، ولا يستبعد أيضا أن يكون هذا الوحي إليها كان عن طريق نبي في زمانها لم يقص علينا القرآن قصته، وأي ذلك قد كان مما الله أعلم به، فليس لما قاله أهل دعوى الإلهام، ومثلهم أهل دعوى رؤيا المنام وجه فتنه^(٢).



(١) سورة النحل: ٤٣.

(٢) منة المنان في علوم القرآن ج ٢، ص ١٥١ - ١٥٣.



المبحث الثاني دليل الوحي



إن الدليل على أن حقيقة الوحي شرعي لا عقلي؛ لأنه من الأمور الغيبية التي لا يقع عليها الحسّ، والذين يدللون على الوحي بالأدلة العقلية - ولو بحسن نية - إنما هم واهمون ومخطئون، فإن للعقل دائرته التي لا يتعداها، فهو يسلمنا إلى حقيقة وجود الخالق ويرشدنا إليه، فإذا ما أسلمنا إلى هذه الحقيقة فقد هدانا إلى الإيمان الذي من مقتضياته التسليم بما أخبرنا من أدلة قطعية، قال تعالى:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ ﴾^(١). وقال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۗ ﴾^(٢).

ويكفي دلالة على حقيقة الوحي إعجاز القرآن، الذي أثبت عقلا أنه منزل من الله على رسوله، وإن من آياته المعجزة ما دلنا على الوحي ومصدره، والنازل به والمنزل عليه، والكيفية والحالة التي نزل بها.

من أدلة وقوع الوحي:

وإذا ثبتت إمكانية وقوع الوحي، فإن الأدلة على وقوعه وتحققه كثيرة:

١ - فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾^(٣).

(١) سورة النساء: ١٦٣.

(٢) سورة الشورى: ٥٢.

(٣) سورة النجم: ٣-٤.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ (٢).

وقال عز وجل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (٣)، وغير ذلك من الآيات.

٢- ومن السنة:

حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** «أول ما بدئ به رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من الوحي الرؤيا الصالحة - وفي رواية - الصادقة في المنام... الحديث (٤).

وحديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** - أيضًا - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس»... الحديث (٥). وغير ذلك من الأحاديث.

٣- والدليل العقلي:

إن النبوة والرسالة ثابتة بأدلة كثيرة وبراهين عديدة، وثبت ذلك يقتضي ثبوت الصدق والعصمة للنبي، وقد أخبر الصادق المعصوم بأنه يوحى إليه فيلزم من ذلك ثبوت وقوع الوحي، فكل ما أخبر به الصادق المعصوم فهو حق وثابت، فلا يبقى بعد ذلك شبهة ولا نحوها في إمكانية وقوع الوحي وتكرره وقوعه، والله

(١) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٢) سورة الإسراء: ٣٩.

(٣) سورة النساء: ١٦٣.

(٤) رواه البخاري ج ١ ص ٣، ومسلم ج ١ ص ١٤٠.

(٥) رواه البخاري ج ١ ص ٢، ٣.



أعلم.



المبحث الثالث مراتب الوحي



مراتب الوحي إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللهِ^(١): وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة نذكر

منها:

أولها- الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، واستدل السهيلي وغيره على أن الرؤيا من الوحي، بقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَبُئِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾^(٢) فدل على أن الوحي يأتيهم مناما كما يأتيهم يقظة، وبرواية ابن إسحاق أن جبريل أتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة النبوة، وغطه ثلاثا وقرأ عليه أول سورة اقرأ، ثم أتاه وفعل معه يقظة.

وفي الصحيح عن عبيد بن عمير يَقُولُ: رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيِي. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَبُئِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾^(٣) (٤).

ثانيها- ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، من ذلك ما روي

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، طبعة مؤسسة الرسالة / ١٩٩٦ م ص ٧٧ - ٧٩. بتصرف.

(٢) سورة الصافات: ١٠٢.

(٣) سورة الصافات: ١٠٢.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١ / ٤٧) برقم: (١٨٣) (كتاب الوضوء، باب قراءة القرآن بعد الحدث وغيره).



عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «وَإِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهَا لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِي أَقْصَى رِزْقِهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ رِزْقِهِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرِكُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»^(١).

ثالثها - خطاب الملك، حين كان يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعي

عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا.

فقد ثبت أن جبريل كان يأتيه في صورة دحية الكلبي^(٢)، كما أخبر النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا، فَيَكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»^(٣). زاد

أبو عوانة: «وهو أهونه عليه».

وفي الصحيح روى عمر بن الخطاب نزول جبريل بهيئة رجل، فعنه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**

قال: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ

بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدٌ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ،

حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَيَّ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَيَّ

فَخَذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِسْلَامِ..... قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه القناعة والحاكم، وصححه من طرق، ورواه ابن ماجة الطبراني وروح القدس:

جبريل، ونفث في روعي: ألقى في قلبي أو خلدي أو عقلي، ومعنى أجملوا في الطلب، أي اطلبوه بطرق الحلال بلا كد ولا حرص ولا تهافت على الحرام.

(٢) دحية بفتح الدال وكسرهما لغتان مشهورتان، وهو بلسان أهل اليمن رئيس الجند، وهو دحية بن خليفة بن

فضالة بن فروة الكلبي، شهد المشاهد كلها بعد بدر، وكان دحية جميلا وسيما، وكان إذا قدم لتجارة خرجت الظعن لتراه. تقريب التهذيب ص ٢٠٠.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١ / ٦) برقم: (٢) (بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول

الله)، ومسلم في "صحيحه" (٧ / ٨٢) برقم: (٢٣٣٣) (كتاب الفضائل، باب عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد وحين يأتيه الوحي).

قَالَ لِي: يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» رواه مسلم^(١).

رابعها- أن يأتيه جبريل في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه.

فَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ، فَيَقْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْبِي مَا يَقُولُ. قَالَتْ عَائِشَةُ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَقْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَّقِصَّدُ عَرَقًا.^(٢)

ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَلَى عَلَيْهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَعْدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١ / ٢٨) برقم: (٨) (كتاب الإيمان).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١ / ٦) برقم: (٢) (بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول

الله)، ومسلم في "صحيحه" (٧ / ٨٢) برقم: (٢٣٣٣) (كتاب الفضائل، باب عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد وحين يأتيه الوحي).

دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾^(١). «قَالَ: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمْلِئُهَا عَلَيَّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيَّ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفَخِذَهُ عَلَيَّ فَخِذِي فَثَقُلْتُ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي ثُمَّ سُرِّي عَنْهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾^(٢)، وفي لفظ خارج الصحيحين: فَثَقُلْتُ فَخِذُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ فَخِذِي حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ تَرُضَّهَا.

الخامسة- أن يرى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الملك جبريل في صورته التي خلق عليها، له ستمائة جناح فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين^(٤) كما ذكر الله ذلك في سورة النجم في الآية السابعة والآية الثالثة عشرة.

الأولى- في الأرض حين سأله أن يريه نفسه فرآه في الأفق الأعلى، قال الحافظ ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ**: كانت والنبي بغار حراء أوائل البعثة بعد فترة الوحي^(٥).

والثانية- عند سدرة المنتهى في ليلة الإسراء والمعراج.

هذه أشهر المراتب، وهناك مراتب أخرى مختلف فيها، لا نطيل الحديث بذكرها مكتفين بما ذكرناه لك من المشهور.



(١) سورة النساء: ٩٥-٩٦.

(٢) سورة النساء: ٩٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.. ح (٤٥٩٢).

(٤) صحيح مسلم الحديث (١٧٧) (٢٨٧).

(٥) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٦٥ سورة النجم.

الفصل الثاني

نزول القرآن الكريم

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أنواع نزول القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الحكم من نزول القرآن الكريم مفرقا.

المبحث الثالث: أول ما نزل من القرآن الكريم.

المبحث الرابع: آخر ما نزل من القرآن الكريم.



المبحث الأول أنواع نزول القرآن الكريم



الذي عليه جمهور العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن القرآن الكريم تميز بنوعين من أنواع النزول:

الأول- نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

الثاني- نزول القرآن منجماً على قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكل نزول أدلته، وحكمته على التفصيل التالي:

النوع الأول- نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا:

هنالك عدد من الأدلة ساقها العلماء لإثبات هذا النوع من النزول من أبرزها

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ

مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا

كُنَّا مُنذِرِينَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٣)،

ومن المعلوم أن القرآن لم ينزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شهر واحد وهو شهر

رمضان؛ وإنما نزل فيه وفي غيره من الشهور، كما أنه لم ينزل في ليلة واحدة وإنما

نزل في عدد من الليالي والأيام، وبالليل والنهار، والصيف والشتاء، فقالوا إن هذه

الآيات تتحدث عن نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا؛ بدليل الآثار التي

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) سورة الدخان: ٣.

(٣) سورة القدر: ١.

جاءت توضح ذلك منها:

١- ما جاء عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، قَالَ: «أُنزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ أُنزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِعِشْرِينَ سَنَةً ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣) ^(١) و﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ (١٠٦) ^(٢) ^(٣) .

٢- وفي رواية أخرى عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه قال: «فُصِّلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذُّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يُرْتَلُ تَرْتِيلًا» ^(٤) .

فهذه الأدلة وغيرها تثبت نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

فهذه الآثار صحيحة صححها أهل العلم، وقول الصحابي فيما لا مجال للראي فيه له حكم المرفوع للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وخاصة قول عبد الله بن عباس حبر الأمة، وترجمان القرآن، وهو قول مؤيد بظاهر أدلة القرآن الكريم.

(١) سورة الفرقان: ٣٣.

(٢) سورة الإسراء: ١٠٦.

(٣) أخرجه الحاكم في "مستدرکه" (٢ / ٢٢٢) برقم: (٢٨٩٥)، والنسائي في "الكبرى" (٧ / ٢٤٧) برقم: (٧٩٣٥) والبيهقي في "سننه الكبير" (٤ / ٣٠٦) برقم: (٨٦١٣).

(٤) أخرجه الحاكم في "مستدرکه" (٢ / ٢٢٢) برقم: (٢٨٩٥)، والنسائي في "الكبرى" (٧ / ٢٤٧) برقم: (٧٩٣٥)، والبيهقي في "سننه الكبير" (٤ / ٣٠٦) برقم: (٨٦١٣) والبزار في "مسنده" (١١ / ٢٣٦) برقم: (٥٠٠٩) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٥ / ٥٢٧) برقم: (٣٠٨١٣)، (١٥ / ٥٢٧) برقم: (٣٠٨١٦) والطبراني في "الكبير" (١١ / ٣١٢) برقم: (١١٨٣٩)، والطبراني في "الأوسط" (٢ / ١٣١) برقم: (١٤٧٩).



وقد رجح بعض العلماء أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) يراد به الإنزالان:

النزول الأول: جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، كما جاءت الأدلة التي توضح ذلك.

والنزول الثاني: ابتداء نزوله على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أيضاً قول صحيح كما روى الإمام أحمد في المسند من حديث واثلة بن الأسقع: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُنزِلْتُ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنزِلَتِ التَّوْرَةُ لِسِتِّ مَضِينٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ» (٢).

وهذا كله مطابق لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (٣)، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (٤) فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة، فأنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا، ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين إلى الأرض أول قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٥).

(١) سورة القدر: ١.

(٢) أخرجه البيهقي في "سننه الكبير" (٩ / ١٨٨) برقم: (١٨٧٢١) وأحمد في "مسنده" (٧ / ٣٧٥٧) برقم: (١٧٢٥٨) والطبراني في "الكبير" (٢٢ / ٧٥) برقم: (١٨٥) والطبراني في "الأوسط" (٤ / ١١١) برقم: (٣٧٤٠).

(٣) سورة البقرة: ١٨٥.

(٤) سورة القدر: ١.

(٥) سورة العلق: ١.

النوع الثاني - نزول القرآن مفرداً على قلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وهذا النوع من النزول قد تضافرت عليه الأدلة الكثيرة في القرآن والسنة من خلال أدلة تثبت تنجيم نزول القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^(١)، قال ابن كثير **رَحِمَهُ اللهُ** وقوله ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ﴾^(٢) أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل مفرداً منجماً على الوقائع إلى رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في ثلاث وعشرين سنة.

وعن ابن عباس أنه قرأ «فرقناه» بالتشديد، أي أنزلناه آية آية، مبيّناً، ومفسراً. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^(٣).

كما أن الأدلة الكثيرة المتضافرة في السنة النبوية التي توضح كيفية نزول جبريل بالقرآن الكريم لآياته وسوره تقطع الشك في نزوله منجماً على قلبه، وأن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** سمعه من جبريل بأذنيه، ووعاه بقلبه، وبلغه للناس كما سمعه.



(١) سورة الإسراء: ١٠٦.

(٢) سورة الإسراء: ١٠٦.

(٣) سورة الفرقان: ٣٢.



المبحث الثاني الحكم من نزول القرآن الكريم مفرقا



نستطيع أن نتعرف على حكم نزول القرآن مفرقا من الآيتين الكريمتين:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾^(١) ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٢) اللتين ورد فيهما الردّ على اعتراض المشركين واليهود بالحجة الدامغة، كما أن هناك أسراراً لهذا التنجيم تدرك بالعقل والاجتهاد، وهذه الحكم والأسرار هي:

١ - تثبيت فؤاد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وهذا ما صرّحت به الآية ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٣) وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحاجة لهذا التثبيت وهو يواجه من الناس القسوة والنفور، ويوجد من الكثيرين في مكة الغلظة والجفاء والإصرار على الكفر، مع رغبته الصادقة في هدايتهم إلى الحق، فكان الوحي ينزل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين وقت وآخر فيشحذ من همته ويزيد من صبره وتحمله، بل كان ينزل القرآن في أحلك الأوقات وأقسى الحالات شدة، وإذا بالآيات تدعو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى متابعة الطريق بكل صبر وثبات، وتقصّ عليه ما لقي الأنبياء

(١) سورة الإسراء: ١٠٦.

(٢) سورة الفرقان: ٣٢.

(٣) سورة الفرقان: ٣٢.

من أتباعهم من قسوة وعناد، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (١).

قال أبو شامة **رحمة الله**: «فإن قيل: ما السر في نزول القرآن منجماً؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُنشِئَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (٢) أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشدّ عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجنب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولذلك كان رسول الله **صلى الله عليه وسلم** أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقيه جبريل» (٣).

٢ - تيسير حفظ القرآن وتسهيل فهمه:

وذلك لأن القرآن نزل على أمة تغلب فيها الأمية، فلا تعرف القراءة والكتابة، وإنما سجلها ذاكرتها؛ قال تعالى في إثبات ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ (٤) فكان من رحمة الله بهذه الأمة أن يسر لها حفظ القرآن وسهّل

(١) سورة الأنعام: ٣٣-٣٤.

(٢) سورة الفرقان: ٣٢.

(٣) الإتيان في علوم القرآن (١/ ١٣٤) طبعة دار ابن كثير ١٤١٤ هـ، وأبو شامة: هو عبد الرحمن بن إسماعيل

المقدسي فقيه شافعي، له كتاب «المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز» توفي سنة (٦٦٥ هـ).

(٤) الجمعة: ٢.



عليهم فهم آياته التي تنزل مفارقة خلال فترات متقطعة من الزمن فيحفظونها ويفهمونها. وكان القرآن بنزوله منجما رسم للصحابة الكرام منهاجا تعليميا طبقوه في حياتهم وتوارثه عنهم التابعون وهو التعلّم التدريجي. أخرج البيهقي في (شعب الإيمان) عن عمر بن الخطاب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات^(١). وأخرج ابن عساكر عن أبي نضرة قال: كان أبو سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات^(٢).

٣ - التدرج في التشريع:

قضت إرادة الله أن يتم الإصلاح الاجتماعي بصورة تدريجية؛ لأنه ليس من الممكن أن ينقلب المجتمع الجاهلي الفاسد بين عشية وضحاها إلى مجتمع صالح، فكانت آيات القرآن تراعي الانقلاب التدريجي، وتراعي بناء الأسس الثابتة لهذا التغيير، فنزلت أولا الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها، والآيات الداعية إلى محاسن الأخلاق، حتى إذا آمن الناس وزكت نفوسهم نزلت آيات الحلال والحرام في تدرج حكيم.

ويدل على ذلك ما رواه البخاري عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** أنها قالت: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةُ مِنَ الْمُفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا»^(٣).

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٩٥٩).

(٢) ذكره السيوطي في الإتقان (١ / ١٣٧) وعزاه لابن عساكر.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٤٣) برقم: (٤٨٧٦)، (٦ / ١٨٥) برقم: (٤٩٩٣).

٤ - مسأيرة الحوادث:

وإيجاد الحلول المناسبة للحوادث الطارئة، لتكون آيات القرآن أوقع في النفس وألصق بالحياة؛ ومن ذلك:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ لَمَّا تُوفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي دُعَيْي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ يُرِيدُ الصَّلَاةَ تَحَوَّلْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي صَدْرِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعَلَى عَدُوِّ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْقَائِلِ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ يَعُدُّ أَيَّامَهُ، قَالَ: وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَبَسَّمُ، حَتَّى إِذَا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ: أَخْرَعْ عَنِّي يَا عُمَرُ، إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ، قَدْ قِيلَ لِي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(١) لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفْرَةً لَه لَزِدْتُ". قَالَ: ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ وَمَشَى مَعَهُ، فَقَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى فُرِغَ مِنْهُ، قَالَ: فَعَجَبْتُ لِي وَجُرَأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيهِمْ أَلْبَابُ أَسْوَاقِهِمْ﴾^(٢) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قَالَ: فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَهُ عَلَى مُنَافِقٍ، وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ^(٣).

(١) سورة التوبة: ٨٠.

(٢) سورة التوبة: ٨٤.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩٧ / ٢) برقم: (١٣٦٦)، (٦ / ٦٨) برقم: (٤٦٧١) وابن حبان في "صحيحه" (٤٤٩ / ٧) برقم: (٣١٧٦) والنسائي في "المجتبى" (١ / ٤٠٧) برقم: (١٩٦٥ / ١) والنسائي في "الكبرى" (٤٣٩ / ٢) برقم: (٢١٠٤)، (١٠ / ١١٨) برقم: (١١١٦١) والترمذي في "جامعه" (٥ / ١٧٤) برقم: (٣٠٩٧) وهذا لفظ الترمذي.

وحين تخلف نفر من المؤمنين الصادقين في غزوة تبوك، وأقاموا بالمدينة، ولم يجد رسول الله ﷺ لديهم عذرا، هجرهم وقاطعهم، حتى ضاقوا ذرعا بالحياة، ثم نزل القرآن بقبول توبتهم، فكان درسا في عدم التخلف عن الجهاد لا يمكن أن ينساه أو يتجاهله أي مسلم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (١)(٢).

٥ - الدلالة القاطعة على أن القرآن كلام الله وحده:

لقد عرفت أن هذا القرآن نزل مفردا على رسول الله في مدة ثلاثة وعشرين عاما، تنزل منه الآية أو الآيات في فترات زمنية مختلفة، ومع ذلك فإنك تجده من أوله إلى آخره محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذنا بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، وكأنه عقد فريد نظمت حباته بشكل دقيق وفريد بما لم يعهد له مثل من كلام البشر لا من قبل ولا من بعد. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ وَتُفْصِلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾ (٣)، وهذا التناسق وعدم الاختلاف في أسلوب القرآن أكبر دليل على أنه كلام الله العليم

(١) التوبة: ١١٧ - ١١٨.

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤١٥٦) والتفسير (٤٣٩٩ - ٤٤١٠).

(٣) سورة هود: ١.

الحكيم؛ إذ لو كان من كلام المخلوقين لظهر فيه الاختلاف من سنة إلى أخرى؛
قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا﴾^(١).



(١) سورة النساء: ٨٢.



المبحث الثالث أول ما نزل من القرآن الكريم



اختلف في تعيين أول ما نزل من القرآن، لورود أربعة أقوال في ذلك:

القول الأول:

أن أول ما نزل هو صدر سورة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٢).

وهذا أصح الأقوال ويستند إلى حديث صحيح رواه البخاري ومسلم، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبّد، الليالي ذوات العدد، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوّد له لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: فقلت: ما أنا بقاري، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقاري، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقاري، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} حتى بلغ {ما لم يعلم} فرجع بها ترجف بواديه» (٣).

(١) سورة العلق: ١.

(٢) سورة العلق: ٥.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩ / ٢٩) برقم: (٦٩٨٢) ومسلم في "صحيحه" (١ / ٩٧) برقم: (١٦٠).

القول الثاني:

أن أول ما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١﴾^(١).

ويستند هذا القول إلى حديث رواه البخاري ومسلم عن يحيى قال: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١﴾، فقلت: أو اقرأ، فقال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١﴾، فقلت: أو اقرأ، قال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله **صلى الله عليه وسلم** قال: جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادي، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أر أحداً، ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء، - يعني: جبريل **عليه السلام** - فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، فدثروني، فصبوا عليّ ماءً، فأنزل الله **عز وجل**: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١ فَمَنْذِرًا ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرُ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرُ ۝٤﴾^(٢).

والمعروف أن هذه الآية نزلت بعد فترة الوحي، فكانت أول ما نزل على الرسول بعدها. فلعل جابرا سمع من الرسول حديثه عن أول ما نزل عليه من القرآن بعد فترة الوحي فاعتبر ذلك أول ما نزل على الإطلاق. وأنه **رضي الله عنه** استخرج ذلك باجتهاده، وليس هو من روايته فيقدم عليه ما روته عائشة^(٣).

(١) سورة المدثر: ١.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٦٢ / ٦) برقم: (٤٩٢٤)، ومسلم في "صحيحه" (١ / ٩٨) برقم: (١٦١).

(٣) انظر الإتيان (١ / ٧٨ - ٧٩) ففيه خمس أجوبة على حديث جابر، وما ذكرناه أحسنها، كما ذكر السيوطي رحمه الله تعالى.

القول الثالث:

أن أول ما نزل هو الفاتحة.

ويستند هذا القول إلى حديث مرسل رواه البيهقي عن أبي مسيرة عمرو بن شرحبيل؛ أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال لخديجة ولم يذكر في السند اسم الصحابي: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً» فقالت: معاذ الله، ما كان ليفعل بك، فو الله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له.

وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة. فانطلقا، فقصا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد! يا محمد! فانطلق هاربا في الأفق» فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم اثني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد! قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى بَلَغَ: وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١).

فلا يقوى على معارضة حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** السابق في بدء الوحي، ولم يقل بهذا الرأي إلا قلة من العلماء، منهم الزمخشري صاحب (الكشاف).

القول الرابع:

أن أول ما نزل (بسم الله الرحمن الرحيم).

ويستند هذا القول إلى ما أخرجه الواحد بسنده عن عكرمة والحسن قالوا: أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم) وأول سورة (سورة اقرأ)^(٢).

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٥٨ - ١٥٩) ونقله الحافظ ابن كثير عن البيهقي في البداية والنهاية (٣/ ٩) وقال: وهو مرسل، وفيه غرابة، وهو كون الفاتحة أول ما نزل.

(٢) أسباب النزول للواحد (ص ١٠) والإتقان؛ للسيوطي (١/ ٨٠).

وهذا الحديث مرسل أيضا، فليست له قوة الحديث الصحيح، ويضاف إلى ذلك أن البسمة تجيء في أول كل سورة إلا ما استثنى، ومعنى ذلك أنها نزلت صدرا لسورة اقرأ.



المبحث الرابع آخر ما نزل من القرآن الكريم



أما آخر ما نزل من القرآن، ففيه أقوال كثيرة أصحها وأشهرها أنه قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١).

فقد أخرج النسائي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن (٢) وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليال. ومن الأقوال التي وردت (٣):

قيل: إن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (٤) وهي خاتمة سورة النساء.

وقيل: إن آخر ما نزل هو سورة الفتح: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (٥).

وقيل: إن آخر ما نزل سورة المائدة، وفيها قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

(١) سورة البقرة: ٢٨١.

(٢) رواه النسائي في التفسير من السنن الكبرى (١١٠٥٧) و (١١٠٥٨).

(٣) وهذه الأقوال ليس فيها قول مرفوع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما هي مستندة إلى اجتهادات الصحابة. وانظرها في الإتيان (١ / ٨٦ - ٩١) طبعة دار ابن كثير الثانية ١٤١٤ هـ.

(٤) سورة النساء: ١٧٦.

(٥) سورة النصر: ١.

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا^(١).

وأصح ما يجاب به عن هذه الأقوال؛ أنها أواخر نسبية:

فآية الكلاله آخر ما نزل في المواريث، وأن سورة المائدة آخر ما نزل في

الحلال والحرام، وقد اتفق العلماء على أن آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ^(٢)﴾

نزلت يوم عرفة من حجة الوداع^(٣).

وروي أن عمر بن الخطاب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** بكى لما نزلت هذه الآية، فقال له

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا

كامل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص. قال: «صدقت»^(٤).

فكانت هذه الآية نعي رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

أما سورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾^(٥) فإنها آخر ما نزل

مشعرا بوفاة النبي **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، ويؤيده ما روي من أنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال

حين نزلت: «نعت إلي نفسي»^(٦) وكذلك فهم بعض كبار الصحابة.

وأما آية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ^(٧)﴾ فهي آخر ما نزل مطلقا

على الأرجح^(٨).

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) انظر الإتقان (١ / ٩١).

(٤) رواه ابن أبي شيبة وابن جرير الطبري، كما في الدر المنثور (٣ / ١٨).

(٥) سورة النصر: ١.

(٦) رواه أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس؛ كما في الدر المنثور (٨ / ٦٦٠).

(٧) سورة البقرة: ٢٨١.

(٨) انظر فضائل القرآن؛ لأبي عبيد (ص ٣٧٠) طبعة دار ابن كثير الأولى ١٤١٦ هـ.



ويؤيده ما روي أنه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لم يمكث بعدها إلا تسع ليال أو سبعة أيام، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.



الفصل الثالث

أسباب النزول

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف أسباب النزول.

المبحث الثاني: أهمية أسباب النزول.

المبحث الثالث: طرق معرفة أسباب النزول.

المبحث الرابع: أحوال الألفاظ مع أسباب النزول من حيث العموم والخصوص.



تمهيد:

نزل القرآن الكريم لسعادة البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور، وهدايتها إلى خالقها وبارئها، وإرشادها إلى الطريق المستقيم، الذي يؤدي بها إلى الحياة الفاضلة التي تقوم على الإيمان بالله ورسوله.

وأكثر القرآن الكريم نزل ابتداءً لهذه الأهداف العامة، ومنه ما نزل نتيجة لحادثة، أو سؤال وجه إلى النبي محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فينزل القرآن الكريم مبيناً لتلك الحادثة ومجيباً عن ذلك السؤال، ومثل هذا يعرف بأسباب النزول. وقد أعتنى العلماء بمعرفة علم أسباب النزول وصنفوا المصنفات في هذا العلم^(١)؛ نظراً لأهميته ولشدة الحاجة إلى معرفته.

وسأتكلم في هذا المبحث عن أسباب النزول مبيناً معنى سبب النزول وأهميته وطرق معرفته إلى غير ذلك.



(١) ذكر الإمام السيوطي عدداً من الأئمة الذين صنفوا في هذا العلم منهم: علي بن المديني شيخ البخاري، والإمام الواحدي، والإمام ابن حجر وغيرهم. ينظر: الإتيقان: للسيوطي: ٩٥ / ١.

المبحث الأول تعريف أسباب النزول



أسباب النزول: هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه، أيام وقوعه، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أو سؤال وجه إليه، فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى بيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال^(١).

وقيل: هو علم يبحث فيه عن سبب نزول سورة أو آية، ووقتها ومكانها وغير ذلك^(٢).

وقيل: هو ما أنزل الله بشأنه قرآنًا؛ وقت وقوعه، كحادثة أو سؤال^(٣).

من خلال التعريفات المذكورة آنفًا يتبين: إن كل ما كان نزوله من القرآن الكريم بسبب، فإنه يتعلق بشيئين:

أولاً- أن تحدث حادثة في زمن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فينزل قرآن يبين ما يتصل بتلك الحادثة من الأحكام، ومن ذلك ما نزل بسببه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

(١) ينظر: البرهان: للزركشي: ١ / ٨١، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ١٣٢، ومناهل العرفان: للزرقاني: ١ / ١٠٠، وعلوم القرآن الكريم: عبد الرحيم فرغل البليني: ٣٠، والمنار في علوم القرآن: محمد علي الحسن: ٣٩، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ١٣٦.

(٢) ينظر: كشف الظنون: لحاجي خليفة: ١ / ٧٦.

(٣) محاضرات في علوم القرآن، نور الدين عتر، مطبعة دار الكتاب، دمشق، ١٤١٠-١٤١١ هـ، ص ٧٨.



وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾، حيث ورد عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ: «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، قَالَ: زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا، لَا وَاللَّهِ لَا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾، فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ» ﴿٢﴾.

ثانيًا- أن يُسأل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عن شيء فينزل القرآن مجيبًا عن السؤال، ومن ذلك سبب نزول قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلِيَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾. حيث ورد عن ابن عباس، قال: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشَّرِكِ، ثُمَّ تَدَدَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ قَوْمِهِ سَلُّوا لِي رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ، فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ:

(١) سورة البقرة، من الآية (٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢٩ / ٦) برقم: (٤٥٢٩)، (١٦ / ٧) برقم: (٥١٣٠).

(٣) سورة آل عمران، الآيات (٨٦-٨٩).

﴿عَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ^(١).



(١) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٣٢٩ / ١٠) برقم: (٤٤٧٧) والحاكم في "مستدرکه" (١٤٢ / ٢) برقم: (٢٦٤٣)، (٣٦٦ / ٤) برقم: (٨١٨٥) والنسائي في "المجتبى" (٨٠٢ / ١) برقم: (٤٠٧٩ / ١) والنسائي في "الكبرى" (٤٤٤ / ٣) برقم: (٣٥١٧)، (٤٦ / ١٠) برقم: (١٠٩٩٩) والبيهقي في "سننه الكبير" (٨ / ١٩٧) برقم: (١٦٩٣١) وأحمد في "مسنده" (٥٤٩ / ٢) برقم: (٢٢٥٣).



المبحث الثاني أهمية أسباب النزول



أولاً- إن معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية:

قال الواحدي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»^(٢).

وقال الشاطبي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن... ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد»^(٣).

ومن آيات القرآن التي كان لسبب النزول أثر في فهم معناها ما يلي:

١ - أخرج البخاري ومسلم عن البراء **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبَلْتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَإِنَّهُ صَلَّى، أَوْ صَلَّىهَا، صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، قَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَكَانَ

(١) ينظر: أسباب النزول: للواحدي: ٣.

(٢) مقدمة في أصول التفسير: لابن تيمية: ٦٠، والإتقان: للسيوطي: ٩٦/١.

(٣) الموافقات في أصول الأحكام: للشاطبي: ٢٠١/٢.

الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالٌ قَتَلُوا، لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ،
فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ
رَحِيمٌ﴾ (١٤٣) (١) (٢)، فسبب النزول بين أن المراد بالإيمان هنا الصلاة، وليس
الإقرار والاعتراف المتضمن للقبول والإذعان، ولولا سبب النزول ما كنا لنقف
على المعنى الصحيح للآية.

٢ - أخرج البخاري ومسلم عن البراء **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا، كَانَتْ
الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاؤُوا، لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ
ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَانَتْهُ عَيْرٌ بِذَلِكَ، فَنَزَلَتْ:
﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (٣) (٤). فسبب النزول بين أن المراد بالإيمان هو
الدخول وليس مجرد المجيء، كما أفاد أن المراد بالبيوت بيوتهم وليست بيوت
غيرهم، ولولا وجود سبب النزول ما تبين هذان المعنيان من لفظ الآية المجرد.

ثانياً- أن العلم بسبب النزول يرفع الإشكال، ويحسم النزاع:

قال الشاطبي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «إن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشُّبه
والإشكالات، ومُورد للنصوص الظاهرة مُورد الإجمال حتى يقع الاختلاف،

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢١ / ٦) برقم: (٤٤٨٦)، (٢٢ / ٦) برقم: (٤٤٩٢)، (٩ / ٨٧) برقم:
(٧٢٥٢) ومسلم في "صحيحه" (٢ / ٦٥) برقم: (٥٢٥).

(٣) سورة البقرة: ١٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨ / ٣) برقم: (١٨٠٣)، (٦ / ٢٦) برقم: (٤٥١٢) ومسلم في "صحيحه"
(٨ / ٢٤٣) برقم: (٣٠٢٦).



وذلك مظنة وقوع النزاع»^(١).

ومن آيات القرآن التي كان لسبب النزول أثر في دفع الإشكال عنها ما يلي:

١ - أخرج البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، زَوْجَ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ حَدِيثُ السَّنِّ: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٢) فَلَا أَرَى عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَلَّا، لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ، كَانَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا، إِنَّمَا أُنزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ: كَانُوا يُهْلُونَ لِمَنَاةَ، وَكَانَتْ مَنَاةُ حَذْوَ قُدَيْدٍ، وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطَّوَّفُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٣) زَادَ سُفْيَانُ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ هِشَامٍ: مَا أَتَمَّ اللَّهُ حَجَّ امْرِئٍ، وَلَا عُمْرَتَهُ، لَمْ يَطْفُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ.

فسبب النزول هنا دفع الإشكال الذي وقع في نفس عروة حين ظن أن السعي بين الصفا والمروة ليس واجباً فبينت له أم المؤمنين **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** أن الآية إنما أنزلت لرفع الحرج عمن امتنع من السعي بينهما، بسبب ما كانوا يفعلونه في الجاهلية،

(١) انظر الموافقات (٤/١٤٦).

(٢) سورة البقرة: ١٥٨.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٢/١٥٧) برقم: (١٦٤٣)، (٦/٣) برقم: (١٧٩٠)، (٦/٢٣) برقم:

(٤٤٩٥)، (٦/١٤١) برقم: (٤٨٦١) ومسلم في "صحيحه" (٤/٦٨) برقم: (١٢٧٧).

والله أعلم.

٢ - أخرج البخاري ومسلم عن علقمة بن وقاص قال: إن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يُحمد بما لم يفعل، مُعذَّبًا، لنعذبن أجمعون. فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه، إنما دعا النبي **صلى الله عليه وسلم** يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(١) كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(٢).

فسبب النزول هنا بين أن الأمر ليس كما ظنه مروان في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣)، بل الآية نزلت بسبب اليهود حين كتموا رسول الله **صلى الله عليه وسلم** ما سألهم عنه، وأخبروه بغيره وفرحوا بكتمانهم إياه ما سألهم عنه، والله أعلم.

ثالثاً - إن معرفة سبب النزول تبين الحكمة الداعية إلى تشريع الحكم:

قال الزركشي **رحمة الله**: «وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته - يعني العلم بأسباب النزول - لجريانه مجرى التاريخ وليس كذلك بل له فوائد: منها: وجه

(١) سورة آل عمران: ١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ٤٠) برقم: (٤٥٦٨) ومسلم في "صحيحه" (٨ / ١٢٢) برقم: (٢٧٧٨).

(٣) سورة آل عمران: ١٨٨.



الحكمة الباعثة على تشريع الحكم»^(١).

ومن الأمثلة التي يبين فيها السبب الحكمة الداعية إلى تشريع الأحكام ما

يلي:

- ١ - أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافَتْ بِهَا﴾^(٢) قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ، فَكَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ، رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَإِذَا سَمِعَهُ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ، وَمَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ. فَقَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾^(٣) أَيِّ بِقِرَاءَتِكَ، فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ، ﴿وَلَا تَخَافَتْ بِهَا﴾^(٤) عَنِ أَصْحَابِكَ، فَلَا تُسْمِعُهُمْ ﴿وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٥).

فالآية خلت من ذكر الحكمة الداعية إلى التشريع، بينما السبب نص عليها،

وهي كف المشركين عن سب القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به.

- ٢ - أخرج مسلم عن عبد الله بن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمُتَلَاعِنِينَ أَيْفَرِقُ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ نَعَمْ، إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ أَنْ لَوْ وَجَدَ أَحَدُنَا امْرَأَتَهُ عَلَى فَاخِشَةٍ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ إِنْ تَكَلَّمَ، تَكَلَّمَ بِأَمْرٍ

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٢٢/١).

(٢) سورة الإسراء: ١١٠.

(٣) سورة الإسراء: ١١٠.

(٤) سورة الإسراء: ١١٠.

(٥) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٥٣ / ٩) برقم: (٧٥٢٥)، (٩ / ١٥٨) برقم: (٧٥٤٧) ومسلم في

"صحيحه" (٣٤ / ٢) برقم: (٤٤٦).

عَظِيمٍ، وَإِنْ سَكَتَ، سَكَتَ عَلَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ... الحديث^(١)
 فأيات اللعان خلت من ذكر الحكمة الداعية إلى التشريع، لكن السبب بينها،
 ذلك أن الزوج هنا بين أمرين أحلاهما مرّ، فإن تكلم فحد القذف أمامه، وإن
 سكت سكت على أمر عظيم كما قال. ولن يطبق هذا مؤمن فكانت مشروعية
 اللعان مخرجاً من حد القذف، أو السكوت على الريبة، والله أعلم.

رابعاً- أن يخصص الحكم بالسبب الذي نزل من أجله:

قال الزركشي **رَحْمَةُ اللَّهِ:** «ومنها: تخصيص الحكم به - أي بالسبب - عند من
 يرى أن العبرة بخصوص السبب»^(٢).

وتخصيص الحكم بالسبب لا ينافي العموم، لكنّ القائلين به يقولون: أخذنا
 ذلك العموم من القياس، أي قياس الحوادث المشابهة على الحوادث الواقعة في
 العهد النبوي، ولم نأخذ العموم من طريق اللفظ العام؛ لأن هذا اللفظ العام
 مختص بسببه، وكل سبب نزول يصح أن يكون مثلاً لهذا عند من يرى أن العبرة
 بخصوص السبب.

خامساً- تيسير الفهم والحفظ:

تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية، إذا
 عرف سبب نزولها لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث،
 والحوادث بالأشخاص والأزمدة والأمكنة كل ذلك من دواعي ثبوت
 المعلومات في الذهن وسهولة استذكارها عند تذكر بعضها، وذلك ما يعرف في

(١) أخرجه في "صحيحه" مسلم في "صحيحه" (٤ / ٢٠٦) برقم: (١٤٩٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (١/ ٢٢).



علم النفس بقانون «تداعي المعاني»^(١).



(١) مناهل العرفان: الزرقاني ج ١ ص ١٠٦، ١٠٧.

المبحث الثالث طرق معرفة أسباب النزول



لا طريق لمعرفة سبب النزول إلا عن طريق النقل الصحيح، ولا مجال للاجتهاد فيه.

قال الإمام الواحدي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلب»^(١).

وقال محمد بن سيرين **رَحْمَةُ اللَّهِ**: سألت عبيدة عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سداداً ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن^(٢).
وبهذا يتقرر أن سبب النزول حكمه حكم الحديث، ولا يقبل منه إلا الصحيح المتصل الإسناد، وأنه لا يحل القول فيه إلا ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها.



(١) أسباب النزول: للواحدي: ٤.

(٢) ينظر: الإتقان: للسيوطي: ١/ ١٠١، وأسباب النزول: للسيوطي: ١٠.



المبحث الرابع أحوال الألفاظ مع أسباب النزول من حيث العموم والخصوص



أحوال الألفاظ مع أسباب النزول من حيث العموم والخصوص:

أولاً - عموم اللفظ والسبب:

لا خلاف بين العلماء في حمل كل منهما على الآخر وذلك للمطابقة بين السبب واللفظ المنزل.

ومثاله:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾^(١) الآية، فلفظها عام لكل النساء، وسبب نزولها أيضاً عام؛ فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾^(٢) إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»^(٣) وهذا عموم في اللفظ وعموم في السبب.

ثانياً - خصوص اللفظ والسبب:

(١) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٣) أخرجه في "صحيحه" مسلم في "صحيحه" (١ / ٢٤٦) برقم: (٣٠٢).

لا خلاف بين العلماء في حمل كل منهما على الآخر وذلك للمطابقة بين السبب واللفظ المنزل.

وذلك؛ كقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾^(١) فإنها نزلت في أبي بكر الصديق **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** و «أل» في «الأتقى» للعهد وتفيد الخصوص، وليست «أل» الاستغراق التي تفيد العموم؛ ولذلك قال الواحدي **رَحِمَهُ اللَّهُ**:
الأتقى: أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين.

ثالثاً - عموم اللفظ وخصوص السبب:

واختلف العلماء إذا كان السبب خاصاً، واللفظ النازل عاماً، هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟

١ - ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
وفي الصحيحين عن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(٢) فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا؟ قَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»^(٣).

قال الشنقيطي **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى: «فهذا الذي أصاب القبلة من المرأة نزلت في خصوصه آية عامة اللفظ، فقال للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: ألي هذه؟ ومعنى ذلك: هل

(١) سورة الليل: الآيات ١٧ - ٢١.

(٢) سورة هود: ١١٤.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١ / ١٣٣) برقم: (١٣٤)، ومسلم في "صحيحه" (٤ / ٢١١٦) برقم:

(٣٩).



النص خاص بي لأنني سبب وروده؟ أو هو على عموم لفظه؟ وقول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** له: لجميع أمتي. معناه أن العبرة بعموم لفظ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١) لا بخصوص السبب، والعلم عند الله تعالى^(٢) ولو كان المراد تخصيصه بالحكم، لكان النص: إن حسناتك تذهب سيئاتك، فدل عمومها على عموم حكمها وعدم اعتبار سببها.

واعتمد هذه القاعدة أكثر علماء الأمة من مفسرين وغيرهم، والمحققون من أهل الأصول، بل حكى الزركشي الإجماع^(٣) على ذلك وطبقها السلف في تفسيرهم^(٤).

ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) قال ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: يعني المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم^(٦).

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن معقل، قال: «جَلَسْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْفِدْيَةِ، فَقَالَ: نَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً، وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةٌ»^(٧).
وأخرج الطبري عن محمد بن كعب القرظي قوله: «إن الآية تنزل في الرجل

(١) سورة هود: ١١٤.

(٢) أضواء البيان: الشنقيطي ج ٣ ص ٢٥٠.

(٣) البحر المحيط: الزركشي ج ٣ ص ١٩٨.

(٤) انظر قواعد الترجيح عند المفسرين: حسين الحربي ج ٢ ص ٥٤٥، ٥٤٩، باختصار.

(٥) سورة البقرة: ٨.

(٦) جامع البيان: الطبري ج ١ ص ١١٦.

(٧) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١ / ١٥٨)، ومسلم في "صحيحه" (٢ / ٨٦٢).

ثم تكون عامة بعد»^(١).

وقال ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى: «وقصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل، فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك، وقد علم أن شيئاً منها لم يقتصر على سببه»^(٢).

٢- وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ:

وأن اللفظ دليل على صورة السبب الخاص، ولا بد من دليل كالقياس لدخول غير صورة السبب في الحكم.

ولعل خلافهم لفظي فهم يعممون الحكم على غير من نزلت فيه بالقياس فيصبح الحكم عاماً، فالقول الأول أخذ العموم من اللفظ والقول الثاني أخذه بالقياس^(٣).



(١) جامع البيان: الطبري ج ٢ ص ٣١٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ابن تيمية ج ١٥ ص ٣٦٤..

(٣) انظر إتحاف ذوي البصائر: د. النملة ج ٢ ص ١٤١.



الفصل الرابع

المكي والمدني

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف المكي والمدني.

المبحث الثاني: خصائص السور المكية.

المبحث الثالث: خصائص السور المدنية.

المبحث الرابع: فوائد العلم بالمكي والمدني.

المبحث الأول تعريف المكي والمدني



يقصد بالمكي والمدني: الآيات والسور التي اصطلح على تسميتها بالآيات والسور المكية والمدنية، أو القرآن المكي والمدني، وذلك اعتماداً على تعريف كل منهما، وللعلماء في تعريف المكي والمدني ثلاثة أقوال^(١):

القول الأول: المكي هو ما نزل بمكة؛ ولو بعد الهجرة، والمدني هو ما نزل بالمدينة، ويدخل في مكة ضواحيها، كالمنزل على النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في المدينة ضواحيها أيضاً، كالمنزل عليه في بدر وأحد.

فلاحظ من التعريف أن الضابط فيه هو ضابط مكاني، ولكن يرد عليه أن هذا التعريف غير جامع، لأنه لا يشمل كل آيات القرآن، فمنه ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيها، ومن ذلك الآيات من سورة (المنافقون) من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، والتي نزلت في تبوك، كما جاء في سنن الترمذي عن الحكم بن عيينة قال: سمعت محمد بن كعب

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن ١ / ٤٩، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ١٩٥-١٩٧، وعلوم القرآن الكريم ص ٩٩-١٠٠.

(٢) سورة المنافقون، الآية (١-٨).



الْقُرْطَبِيُّ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، يَحْدِثُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي قَالٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^(١)، قَالَ: فَاتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَحَلَفَ مَا قَالَهُ، فَلَامَنِي قَوْمِي، وَقَالُوا: مَا أَرَدْتَ إِلَّا هَذِهِ، فَاتَيْتُ الْبَيْتَ، وَنَمْتُ كَثِيرًا حَزِينًا، فَاتَانِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ أَتَيْتُهُ، فَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ)، قَالَ: فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يُقُولُونَ لَا نُسْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾^(٢) (٣).

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي قَالٍ يَقُولُ: لَا تُتَّفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعَمْرٍ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي وَأَصْحَابِي، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِيبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَقَّتَكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّفِقُونَ﴾. فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ فَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ)^(٤).

(١) سورة المنافقون، من الآية (٨).

(٢) سورة المنافقون من الآية (٧).

(٣) سنن الترمذي ٤١٧/٥ رقم الحديث (٣٣١٤). وقال عنه: حديث حسن صحيح.

(٤) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: (إِذَا جَاءَكَ الْمُتَّفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ)، رقم

الحديث (٤٩٠٠)، ومواضع أخرى، وقد ذكر البخاري في صحيحه آيات السورة من أولها إلى قوله تعالى:

(وَلَكِنَّ الْمُتَّفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)، وجعل لكل آية منها باباً وذكر هذا الحديث معها، وصحيح مسلم ٢١٤٠/٤

رقم الحديث (٢٧٧٢).

فهذه الآيات النازلة في تبوك لا يمكن اعتبارها من المكي أو المدني؛ لأن تبوك ليست من ضواحيهما، لأن الضاحية من كل بلد إنما هي أطرافها^(١)، فلا تعد تبوك من أطرافهما إذا علمنا أنها تبعد عن مكة بمسافة (١٠٣٧ كم)، وعن المدينة بمسافة (٦٧٩ كم)^(٢).

القول الثاني: المكي هو ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني هو ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

فأساس هذا التعريف يعتمد على موضوع الآيات أو السور، لكنه لا يشمل إلا قسمًا يسيرًا من القرآن؛ لأن كثيرًا من القرآن لم يكن خطاباً لأهل مكة، ولا لأهل المدينة.

القول الثالث: المكي هو ما نزل قبل هجرة النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إلى المدينة؛ وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني هو ما نزل بعد هذه الهجرة؛ وإن كان نزوله بمكة.

وقال ابن حجر **رَحِمَهُ اللهُ** في تعريفهما: «كل ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني، سواء نزل في البلد حال الإقامة، أو في غيرها حال السفر»^(٣).

فالهجرة هي الفاصل بين العهدين المكي والمدني، لذلك كان الضابط في هذا التعريف ضابطاً زمنيًا، وهذا التعريف هو المشهور والمعتمد عند العلماء،

(١) ينظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي أبو عبيد (ت ٤٨٧ هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٤٠٣ هـ، باب: الضاد والواو.

(٢) جدول المسافات بين المدن الرئيسية في المملكة العربية السعودية، الملحق (ب).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥/٩.



وذلك لشموله كل آيات وسور القرآن.

أما ما نزل في طريق هجرته **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** قبل أن يبلغ المدينة فيعد من

المكي^(١).



(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٣٦/٢٦، والإتقان في علوم القرآن ١/٤٩.

المبحث الثاني خصائص السور المكية



من المعلوم أن ما نزل من القرآن في مكة كان يخاطب مجتمعًا وثنيًا فشا فيه الشرك، وانتشرت فيه الأصنام، ولم يتلق الدعوة الإسلامية بالقبول والتسليم، بل أخذ يناوئها العدا، ويضطهد أتباعها، ويحارب رسولها. وفي المدينة كان القرآن الكريم غالبًا يخاطب أتباعه المؤمنين بأمرهم فينقادون إليه، وينهاهم فينتهون عما نهى عنه. وإذا كان الأمر كذلك فلا شك أن البلاغة تقتضي الاختلاف في الأسلوب والاختلاف في المعاني والموضوعات بين ما نزل في مكة، وما نزل في المدينة، فمن خصائص السور المكية.

١- تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس بالدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان برسالة محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وباليوم الآخر، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية وعبادة غير الله وإيراد الحجج والبراهين على ذلك.

٢- تشريع أصول العبادات والمعاملات والآداب والفضائل العامة ففي مكة فرضت الصلوات الخمس مثلاً، وحرّم أكل مال اليتيم ظلماً، كما حرّم الكبر والخيلاء ونحوها.

٣- الاهتمام بتفصيل قصص الأنبياء والأمم السابقة، وبيان ما دعا إليه الأنبياء السابقون من عقائد، ومواقف أممهم منهم، وما نزل بالمكذّبين من عذاب



دنيوي جزاء تكذيبهم، وإيراد الحوار بين الأنبياء وخصومهم، وإبطال حججهم بما يوحي إلى أهل مكة بوجوب أخذ العبرة من هؤلاء، وفي هذا بسط أيضاً للعقيدة الإسلامية الصحيحة.

٤- قصر الآيات مع قوة جرس الألفاظ ووقعها، وإيجاز العبارة مع بلاغة المعنى ووفائه، وذلك أن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في القراءة يتنادون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(١).

ولا يناسب هذا المقام طول الآيات والمقاطع، بل يناسبه إيجازها وقوة معانيها.



(١) سورة فصلت: ٢٦.

المبحث الثالث خصائص السور المدنية



من خصائص السور المدنية:

- ١- الآيات والسور المدنية تخاطب - غالبًا - مجتمعًا إسلاميًا فكان الغالب تقرير الأحكام التشريعية للعبادات والمعاملات والحدود والفرائض، وأحكام الجهاد وغيرها.
- ٢- نشأ في المجتمع المدني طائفة من المنافقين فتحدث القرآن الكريم عن طبائعهم وهتك أستارهم، وبين خطرهم على الإسلام والمسلمين وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للكيد للمسلمين، ولم يكن في مكة نفاق؛ لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين فكان الكفار يحاربونهم جهارًا.
- ٣- عاش بين المسلمين في المدينة طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود، وكانوا يمكرون مكرًا سيئًا، ويكيدون للإسلام وأهله فكشف القرآن في المدينة سرائرهم وأبطل عقائدهم، وكشف تحريفهم لديانتهم، وبين بطلان عقائدهم، ودعاهم إلى الإسلام بالحجة والدليل والبرهان.
- ٤- الغالب على الآيات والسور المدنية طول المقاطع والسور لبسط العقائد الإسلامية والأحكام التشريعية، فقد كان أهل المدينة مسلمين يقبلون على سماع القرآن، وينصتون حتى كأن على رؤوسهم الطير، فالمقام ليس مقارعة



ولجاءً يناسبه الإيجاز بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يناسبه
الاسترسال والإطناب.



المبحث الرابع فوائد العلم بالمكي والمدني



لمعرفة المكي والمدني فوائد، يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١ - معرفة تأريخ التشريع الإسلامي وتدرج الأحكام:

معرفة تأريخ التشريع الإسلامي، وتدرجه الحكيم فيما شرعه من الأحكام بما يتلاءم مع ظروف كل مرحلة من مراحل الدعوة، وهذا ما بينته السيدة عائشة رضي الله عنها في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه:

عَنْ يُوْسُفَ بْنِ مَاهِكٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ. قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِنِي مِصْحَفَكَ، قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أَوْلَفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ، إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ (٤٦) ^(١) وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمَلْتُ عَلَيْهِ آيَ السُّورَةِ ^(٢).

(١) سورة القمر: ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٤٣) برقم: (٤٨٧٦) (كتاب تفسير القرآن، باب قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر)، (٦ / ١٨٥) برقم: (٤٩٩٣) (كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن).



حيث أشارت بقولها: «إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»، إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأنه أول ما نزل من القرآن الدعوة إلى التوحيد، وتبشير المؤمنين بالجنة، وإنذار الكافرين بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا»، وذلك لانطباع النفوس بالنفرة عن ترك المألوف، وفي قولها: «لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾﴾»^(١)، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده» إشارة منها إلى الحكمة في تقدم سورة القمر، وليس فيها شيء من الأحكام على نزول سورة البقرة والنساء، مع كثرة اشتغالها على الأحكام، وقولها: «إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ» يعني بالمدينة؛ لأن دخوله عليها إنما كان بعد الهجرة بلا خلاف^(٢).

٢- معرفة تاريخ السيرة النبوية:

إن ترتيب سور القرآن ترتيباً زمنياً يمكننا من تصور تاريخ السيرة النبوية تصوراً واضحاً، إذ إن تتابع الوحي على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني، منذ بداية الوحي إلى آخر آية نزلت، فالقرآن من هذه الناحية يعتبر المرجع الأصيل لدراسة السيرة النبوية^(٣).

(١) سورة القمر: ٤٦.

(٢) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٠/٢٢.

(٣) ينظر: علوم القرآن الكريم ص ١٠٢.

فترتيب السور والآيات حسب نزولها يعرف من خلاله ترتيب الأحداث التي وقعت وتحدثت عنها تلك السور، «فكثيراً من الآيات نزلت في إثر حادثةٍ أو واقعةٍ، من ذلك الغزوات التي تحدث القرآن الكريم عنها في سور عديدة منها: مثل سورة آل عمران، والأنفال، والتوبة، والأحزاب، والفتح، والحشر، وغير ذلك»^(١).

٣- معرفة الناسخ والمنسوخ^(٢):

اعتنى بعض العلماء الذين كتبوا في الناسخ والمنسوخ بالمكي والمدني؛ لأن القول بالنسخ مبني على معرفة المتقدم من المتأخر، والمدني ينسخ المكي لا العكس، وقد ذكر الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ) هذه العلاقة، فقال: «القسم السادس: ذكر الناسخ والمنسوخ في الأحكام:

فأول ذلك معرفة السور المكية والمدنية ليعرف أن ما فيها من الأمر والأحكام نزل بمكة أو بالمدينة، فإذا اختلف كان الذي نزل بالمدينة هو الناسخ؛ لأنه الآخر في النزول»^(٣).

وقال النحاس **رَحِمَهُ اللهُ** (ت ٣٣٨ هـ) في كتابه الناسخ والمنسوخ: «وإنما نذكر ما نزل بمكة والمدينة؛ لأن فيها أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ؛ لأن الآية إذا كانت مكية، وكان فيها حكم، وكان في غيرها مما نزل بالمدينة حكم غيره عُلِمَ أن

(١) البيان القرآني للسيرة النبوية، أحمد محمد الشرقاوي، بحث مقدم إلى الجامعة الإسلامية العالمية بهاولبور، باكستان، قسم السيرة النبوية، ١٤٢٨ هـ، ص ٦.

(٢) يمكن استقراء تطبيقات المكي والمدني وأثرها في معرفة الناسخ والمنسوخ من خلال كتب الناسخ والمنسوخ.

(٣) فهم القرآن (مطبوع مع كتاب العقل للحارث المحاسبي)، تحقيق القوّلي (ص ٣٩٤).



المدنية نسخت المكية»^(١).

وقال مكي بن أبي طالب القيسي **رَحْمَةُ اللَّهِ** (ت ٤٣٧ هـ) في كتابه إيضاح الناسخ والمنسوخ: «ويجب أن تعلم المكي من السور من المدني، فذلك مما يقوي ويفهم معرفة الناسخ والمنسوخ»^(٢).

٤ - معرفة الصحيح من الضعيف من التفسير (الترجيح بين الأقوال):

إن التفسير وضرب الأمثال لما يصلح دخوله في معنى الآية أوسع من مدلول الزمان في المكي والمدني، لكن قد يقع في بعض الأقوال ما يشير إلى تحديد المراد بالقرآن المكي بحدث مدني يكون هذا الحدث المدني صحيحاً من جهة التفسير، لكن لا يكون صحيحاً من كونه هو المراد الأول الذي نزلت من أجله الآيات، ومن أمثلة ذلك:

قال ابن الجوزي **رَحْمَةُ اللَّهِ** (ت ٥٩٧ هـ) في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ^(١٤) **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ^(١٥): «وفي قوله تعالى: ﴿فَصَلَّى﴾ ^(١٥) ثلاثة أقوال: **أحدها** - أنها الصلوات الخمس؛ قاله ابن عباس ومقاتل.

والثاني - صلاة العيدين؛ قاله أبو سعيد الخدري.

والثالث - صلاة التطوع؛ قاله أبو الأحوص.

والقول قول ابن عباس في الآيتين، فإن هذه السورة مكية بلا خلاف، ولم

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس، تحقيق: د. سليمان اللاحم (٦١١:٢).

(٢) إيضاح ناسخ القرآن ومنسوخة، لمكي بن أبي طالب، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات (ص ١١٣ - ١١٤).

(٣) سورة الأعلى: ١٤-١٥.

(٤) سورة الأعلى: ١٥.

يكن بمكة زكاة ولا عيد»^(١).

وإذا تأملت القول بصلاة العيد وجدته يدخل في عموم قوله تعالى:
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾^(٢)، لكن أن يكون هو المراد لا غيرُه، أو يكون هو المراد أولاً، ففيه
النظر الذي ذكره ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، والله أعلم.

٥- الاستفادة منه في الدعوة إلى الله بتنزيل المقال على مقتضى الحال:

إن القرآن المكي كان يخاطب أغلبية كافرة لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر،
فكان الخطاب يكثر فيه ذكر قضايا التوحيد الكلية وما يتعلق بإثبات النبوة
والبعث، وغيرها.

والقرآن المدني كان يخاطب الدولة المسلمة التي استقر أمرها، وصار الأمر
والنهي فيها لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فظهر الحديث عن التشريعات والحدود،
كما تجد الحديث عن الجهاد والمنافقين وغير ذلك، وكان لكل نوع من هذه
الأنواع طريقة في خطابه.

فالداعية يستفيد من هذا في تنويع خطابه، فلا يكون خطابه وأسلوب تعامله
واحداً لا يتغير، فإن كان يخاطب مؤمناً فإن خطابه لا يكون كما يخاطب كافراً
بالله، وإذا كان يخاطب ملحداً فإنه يختلف في خطابه له عن خطابه لمبتدع،
وخطابه لمبتدع يختلف عن خطابه لعاصٍ فاسقٍ، وهكذا يُنزل لكل قوم ما يصلح
لهم من الخطاب، والله أعلم.



(١) زاد المسير، لابن الجوزي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله (٢٣٠: ٨).

(٢) سورة الأعلى: ١٥.



الفصل الخامس

جمع القرآن وترتيبه

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم جمع القرآن.

المبحث الثاني: جمع القرآن زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المبحث الثالث: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الرابع: جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الخامس: ترتيب القرآن.

المبحث الأول مفهوم جمع القرآن



جمع القرآن يعني أمرين اثنين، وهما:

أ- حفظه واستظهاره في الصدور^(١):

فقد حفظ الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كل ما نزل عليه من الوحي في صدره الشريف، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾^(٢)، وكان الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يعارض جبريل بالقرآن في كل عام مرة، وفي العام الذي انتقل فيه إلى رفيقه الأعلى عارضه مرتين.

كما ثبت ذلك في صحيح البخاري وغيره عن عائشة عن فاطمة **عَلَيْهَا السَّلَامُ** قَالَتْ: «أَسْرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أَنَّ جَبْرِيْلَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ كُلِّ سَنَةٍ، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي»^(٣) (٤).

كما حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب جم غفير من الصحابة، منهم الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وكذلك أبي بن كعب، وعبد الله بن

(١) ومنه قول عثمان: ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله، أي حفظته، تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص: ١٦٢.

(٢) سورة الأعلى: ٦.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٨٦) برقم: (٤٩٩٧) (كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي).

(٤) راجع فضائل القرآن لأبي الفضل الرازي، ص: ٥١، البرهان للزركشي: ٢٣٢ / ١، لطائف الإشارات للقسطلاني: ٢٣ / ١.



مسعود، وزيد بن ثابت وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وغيرهم من الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** وهم الذين دارت أسانيد قراءات الأئمة العشرة عليهم ^(١).

يقول العلامة ابن الجزري:

«ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة» ^(٢).

وقد ساعدتهم على حفظه نزوله منجماً ومفرقاً، ولم يكن هم الصحابة حفظ ألفاظ القرآن فحسب، بل جمعوا إلى حفظ اللفظ فهم المعنى، وتدبر المراد، والعمل بمقتضى ما تضمنه من الأحكام والآداب.

قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرئونا القرآن: عثمان بن عثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ^(٣).

ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة الواحدة.

فقد ثبت عن ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** بإسناد صحيح أنه مكث أربع سنين في تعلم سورة البقرة ^(٤).

(١) انظر: الوجيز للقرطبي ص: ١٧٧، النشر: ٦/١، الاتقان: ٢٢٢/١، مناهل العرفان: ٢٤٢/١.

(٢) النشر: ٦/١.

(٣) أخرج عبد الرزاق ما في معناه عن معمر بن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي، وأخرجه ابن جرير في مقدمة تفسيره عن عطاء بن أبي عبد الرحمن وصححه أحمد شاكر، فإن أبا عبد الرحمن السلمي تابعي لا يُحَدَّثُ إلا عن الصحابة.

(٤) رواه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٤ / ١٦٤) قال: أخبرنا عبد الله بن جعفر حدثنا أبو المليح عن ميمون "أن ابن عمر تعلم سورة البقرة في أربع سنين".

ب- كتابته كله حروفاً وكلمات وآيات وسوراً.

وقد حدث ذلك في الصدر الأول ثلاث مرات:

الأولى- في عهد النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، حيث كان النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ينادي واحداً من كتاب الوحي فيأمره بكتابة ما نزل عليه من الوحي، وكان **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يرشدهم إلى مواضع الآيات من السور^(١)، ولم ينتقل الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إلى رفيقه الأعلى إلا والقرآن كله كان مكتوباً، مرتب الآيات في سورها، غير أنه لم يكن مرتب السور، ولا مجموعاً في مصحف واحد، ولا موجوداً في مكان واحد، بل كان مفرقاً لدى الصحابة، وكان ذلك لما كان يتوقع من نزول ناسخ لآية حكماً أو تلاوة^(٢).

والثانية- في خلافة أبي بكر **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

والثالثة- على عهد عثمان بن عفان **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**.

وسياتي تفصيل كل ذلك في المباحث التالية.



(١) انظر: سنن أبي داود: ١/٢٠٦، رقم: ٧٨٦، والترمذي: ٥/٢٥٤، رقم: ٣٠٨٦، ومسند أحمد: ١/٥٧، وجمال القراء: ١/٨٤-٨٥، وتفسير الطبري: ١/١٠٢، والقرطبي: ٨/٦١، وراجع البرهان للزركشي: ١/٢٣٢.

(٢) انظر: الإتيان: ١/١٦٤.



المبحث الثاني

جمع القرآن زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



لقد تلقى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن من أمين الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكان همُّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلال نزول الوحي عليه هو حفظ القرآن الكريم واستظهاره، حتى بلغ من حرصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه كان يحرك لسانه عند نزول الوحي عليه خشية نسيانه، حتى نهاه الله تعالى عن ذلك؛ لأنه قد تعهد له بحفظه فقال تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(١).

كما بين ذلك ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الصحيحين وغيرهما:

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(١٦) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحْرِكُ شَفْتَيْهِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحْرِكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْرِكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحْرِكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحْرِكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفْتَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ^(١٧). قَالَ: جَمَعُهُ لَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^(١٨) قَالَ فَاسْتَمِعَ لَهُ وَأَنْصَبَتْ:

(١) سورة القيامة: ١٦-١٧.

(٢) سورة القيامة: ١٦-١٧.

(٣) سورة القيامة: ١٨.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا آتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَرَأَهُ (٢).

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض القرآن على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في رمضان في كل عام مرة وفي العام الذي توفي فيه عرضه مرتين.

فَعَنْ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ قَالَتْ: «أَسْرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ جِبْرِيلَ يُعَارِضُنِي بِالْقُرْآنِ كُلِّ سَنَةٍ، وَإِنَّهُ عَارِضُنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجْلِي» (٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ يَعْزُضُ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَّضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ، وَكَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ عَامٍ عَشْرًا، فَاعْتَكَفَ عَشْرِينَ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ» (٤).

وبلغ من عنايته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بكتابة القرآن أنه إذا نزل عليه الوحي دعا من يكتب له فيملي عليه ما نزل من القرآن ويقول له: ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.

كما بين ذلك سيدنا عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) سورة القيامة: ١٩.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١ / ٨) برقم: (٥) (بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله) ومسلم في "صحيحه" (٢ / ٣٤) برقم: (٤٤٨).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٨٦) برقم: (٤٩٩٧) (كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي).

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٨٦) برقم: (٤٩٩٨) (كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي).



مِمَّا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَدْعُو بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ وَيَقُولُ لَهُ: (ضَعْ هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا). وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَالْآيَاتَانِ فَيَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ»^(١).

فيكتب في الألواح والعسب^(٢) والأكتاف^(٣) وغيرها من أدوات الكتابة المتيسرة آنذاك، ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وكما ورد عن البراء **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، قَالَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: (ادْعُوا فَلَانًا)، فَجَاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاهُ وَاللُّوْحُ - أَوْ الْكَتِفُ - فَقَالَ: (اكَتُبْ): ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وَخَلَفَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا ضَرِيرٌ، فَنَزَلَتْ مَكَانَهَا: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِزُّ أُولِي الضَّرْرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٥).

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرَّقَاعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: طُوبَى لِلشَّامِ فَقُلْنَا: لِأَيِّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ

(١) سنن أبي داود ٢٠٨/١ رقم الحديث (٧٨٦)، وسنن الترمذي ٢٧٢/٥ رقم الحديث (٣٠٨٦) وقال عنه:

حديث حسن صحيح. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. المستدرک علی الصحیحین

٢٤١/٢ رقم الحديث (٢٨٧٥).

(٢) عسب: جمع عسيب، والعسيب: جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها. ينظر: لسان العرب، مادة (عسب).

(٣) الأكتاف، جمع كتف، والكتف: عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، باب: كتف.

(٤) سورة النساء، من الآية (٩٥).

(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، رقم الحديث (٤٥٩٤). ومواضع أخرى، وصحيح مسلم ١٥٠٨/٣

رقم الحديث (١٨٩٨)، وسنن الترمذي ١٩١/٤ رقم الحديث (١٦٧٠)، وسنن النسائي ١٠/٦ رقم

الحديث (٣١٠١).

الله؟ قَالَ: لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا ^(١).

وكان من حرص الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** على القرآن أن كان بعضهم يكتبه في مصحف خاص به كعائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**.

كما جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن يُوْسُفَ بْنِ مَاهَكٍ قَالَ: إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ. قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرِينِي مُصْحَفَكَ، قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ، إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ، فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا تَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ ^(٢) وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ، قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمَلَتْ عَلَيْهِ آيَ السُّورَةِ ^(٣).

وبعض الصحابة كان يحفظه في صدره كما في الصحيحين:

عَنْ أَنَسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أَرْبَعَةً، كُلُّهُمْ

(١) سنن الترمذي ٥ / ٧٣٤ رقم الحديث (٣٩٥٤). وقال عنه الترمذي: حديث حسن غريب. قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. المستدرک على الصحيحين ٢ / ٢٤٩ رقم الحديث (٢٩٠١).

(٢) سورة القمر: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٤٣) برقم: (٤٨٧٦) (كتاب تفسير القرآن، باب قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر)، (٦ / ١٨٥) برقم: (٤٩٩٣) (كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن).



مِنَ الْأَنْصَارِ: أَبِي، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. قُلْتُ لِأَنْسٍ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ؟ قَالَ: أَحَدُ عُمُومَتِي ^(١).

وهكذا فقد جمع القرآن كله في حياته **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** في أدوات الكتابة المذكورة آنفاً، وفي صدور بعض الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** إلا أنه لم يجمع في مصحف واحد.



(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣٧ / ٥) برقم: (٣٨١٠) (كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب زيد بن ثابت، ومسلم في "صحيحه" (٧ / ١٤٩) برقم: (٢٤٦٥) (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار).

المبحث الثالث

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ



وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى - بواعث الجمع وأسبابه:

بعد تولي أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إمارة المسلمين واجهته أحداث جسيمة، خصوصاً ما كان من قبل أهل الردة، وما دار بعد ذلك من حروب طاحنة ومعارك عنيفة، خصوصاً ما كان في موقعة اليمامة^(١)، حيث استشهد فيها عدد كبير من الصحابة، منهم أكثر من سبعين من قراء الصحابة، فاشتد ذلك على الصحابة، ولا سيما على عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فاقترح على أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يجمع القرآن، خشية ضياعه بموت الحفاظ وقتل القراء، فتردد أبو بكر لأول الأمر ثم شرح الله صدره لما شرح له صدر عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فكان هو أول من جمع القرآن بين اللوحين^(٢)، وكان أحد الذين حفظوا القرآن كله^(٣).

ويتضح ذلك من الحديث الصحيح الذي روي عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

(١) قال الحموي: بين اليمامة والبحرين عشرة أيام، وهي معدودة من نجد وقاعدتها حجر، وتسمى اليمامة جواً والعروض - بفتح العين، وكان اسمها قديماً: جواً، فسميت اليمامة باليمامة بنت سهم بن طسم، (معجم البلدان: ٥/٤٤٢)، أما غزوة اليمامة فكانت سنة ١٢ هـ (شذرات الذهب: ١/٢٣) قتل فيها عدو الله مسلمة الكذاب، وآلاف من جنده وأعوانه، وفتحت على يد خالد بن الوليد صلحاً، واستشهد فيها أكثر من سبعمائة من كبار المهاجرين والأنصار. (الكامل لابن الأثير: ٢/٢٤٣) وما بعدها، وقيل: ١٢٠٠ مقاتل (الشذرات: ١/٢٣)، وانظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٧٦.

(٢) راجع كتاب المصاحف لابن أبي داود: ١/١٦٥.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص: ٤٤، نقلاً عن ابن كثير في تفسيره، والنووي في التهذيب.



وكان من كتاب الوحي، وقال فيه:

«أرسل إليّ أبو بكرٍ مقتلِ أهلِ اليمامةِ وعندهُ عمرُ فقال أبو بكرٍ إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحرَّ^(١) يوم اليمامةِ بالناس، وإني أخشى أن يستحرَّ القتلُ بالقراءِ في المواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن إلا أن تجمعه، وإني لأرى أن تجمع القرآن.

قال أبو بكر قلتُ لعمرَ كيفَ أفعلُ شيئاً لم يفعله رسول الله **صلى الله عليه وسلم** فقال عمرُ: هو والله خيرٌ فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر.

قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالسٌ لا يتكلم فقال أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ ولا نتهمك كنت تكتبُ الوحي لرسول الله **صلى الله عليه وسلم** فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبلٍ من الجبال ما كان أثقلَ عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.

قلتُ: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي **صلى الله عليه وسلم**؟

فقال أبو بكر: هو والله خيرٌ فلم أزل أراجعهُ حتى شرح الله صدري للذي شرحَ الله له صدر أبي بكرٍ وعمر، فقمْتُ فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُشبِ وصدور الرجال حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحدٍ غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ

(١) أي اشتد.

الْعَظِيمِ ﴿١٦٩﴾ (١).

وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر (٢).

وعلى هذا، فقد بدأ جمع القرآن في عهد أبي بكر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** سنة ١٢ هـ.

المسألة الثانية - كيفية الجمع:

استثقل زيد بن ثابت المهمة، إلا أنه حينما شرح الله له صدره باشر بها، وبدأ بجمع القرآن بوضع خطة أساسية للتنفيذ، اعتماداً على مصدرين هامين، وهما: ما كتب أمام الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وبإملاء منه، وكان زيد نفسه من كتاب الوحي.

ما كان محفوظاً لدى الصحابة، وكان هو من حفاظه في حياته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وكان لا يقبل شيئاً من المكتوب، حتى يتيقن أنه:

مما كتب بين يدي الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وذلك بشهادة شاهدين عدلين (٣). وأنه مما ثبت في العرصة الأخيرة، ولم تنسخ تلاوته.

يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: قدم عمر، فقال: من كان تلقى من رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** شيئاً من

(١) سورة التوبة: ١٢٨-١٢٩.

(٢) البخاري، التفسير: ٤٣١١، فضائل القرآن: ٤٦٠٣، الأحكام: ٦٦٥٤، الترمذي، التفسير: ٣٠٢٨، أحمد، مسند العشرة: ٧٢، جمال القراء: ٨٦/١، وانظر: تخريجه مستوفى في كتاب المصاحف لابن أبي داود: ١٦٩-١٧٩، وراجع المقنع للداني: ٢-٣.

(٣) الإتيان: ٥٨/١.



القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعصب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان^(١).

كما يدل عليه ما أخرجه ابن أبي داود أيضاً، ولكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر وزيد: «اقعدا عليّ باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين عليّ شيء من كتاب الله فاكتباه»^(٢).

قال الحافظ ابن حجر **رَحْمَةُ اللَّهِ**^(٣) (المراد بالشاهدين: الحفظ والكتابة)^(٤).

وقد ذهب العلامة السخاوي **رَحْمَةُ اللَّهِ**^(٥) إلى أن المراد بشاهدين:

رجلان عدلان يشهدان عليّ أنه كتب بين يدي رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، أو

أنه من الوجوه السبعة التي نزل بها القرآن^(٦).

وقال أبو شامة **رَحْمَةُ اللَّهِ**: وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين

(١) كتاب المصاحف: ١/١٨١-١٨٢، وعنه السيوطي في الدرر المشور: ٤/٣٣٢، وابن حجر في الفتح: ٩/١٥، وانظر فضائل القرآن لابن كثير (٢٧)، والإتقان: ١/١٦٦.

(٢) كتاب المصاحف ١/١٦٩، وانظر جمال القراء ١/٨٦، والفتح ٩/١٤، واللطائف ١/٥٦، وكنز العمال ٢/٥٧٣، والمرشد الوجيز: ٥٥.

(٣) أحمد بن علي بن محمد، المعروف بابن حجر العسقلاني، فلسطيني الأصل، من أعلام الحديث والتاريخ، مولده ووفاته بالقاهرة، ولد سنة: ٧٧٣ هـ، وتوفي سنة ٨٥٢ هـ، كثير التصانيف، من أشهرها: فتح الباري شرح صحيح البخاري، نخبة الفكر، تهذيب التهذيب، وتقريبه، لسان الميزان، الإصابة، بلوغ المرام، (البدر الطالع: ١/٨٧، الأعلام: ١/١٧٨-١٧٩).

(٤) الفتح: ٩/١٤.

(٥) علي بن محمد بن عبد الصمد، علم الدين أبو الحسن السخاوي، ولد في سخا بمصر سنة ٥٥٨ هـ، أو ٥٥٩ هـ، من أبرز تلامذة الإمام الشاطبي، وأول من شرح قصيدته باسم: فتح الوصيد في شرح القصيد، ومن مؤلفاته: جمال القراء، هداية المرتاب، الوسيلة إلى شرح العقيلة، توفي في دمشق سنة: ٦٤٣ هـ (معرفة القراء الكبار: ٢/٦٣١، غاية النهاية: ١/٥٦٨، شذرات الذهب: ٥/٢٢٢، الأعلام: ٤/٣٣٢).

(٦) انظر: جمال القراء: ١/٨٦.

يدي النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، لا من مجرد الحفظ.

وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن في صحف بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وأجمعت الأمة على ذلك دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف، ولعمر في الاقتراح، ولزيد في التنفيذ، والصحابة في المعاونة والإقرار.

قال علي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع بين اللوحين»^(١).

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيد بما تستحق من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده مدة حياته، ثم حفظها عمر بعده حتى شهادته، ثم حفظتها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة والدها، حتى طلبها منها عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** ليستنسخ منها مصاحفه اعتماداً عليها، ثم ردها إليها بإيفاء بالعهد الذي أعطها إياه، فلم تزل عندها حتى أرسل إليها مروان بن الحكم^(٢) حينما ولي المدينة فأبت، ثم لما توفيت **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** سنة ٤٥ هـ، حضر مروان جنازتها، ثم طلب من أخيها عبد الله بن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فبعث بها إليه فأخذها مروان وأمر بإحراقها^(٣).

المسألة الثالثة - مزايا هذه الصحف:

- (١) كتاب المصاحف: ١/١٦٦، وانظر المصنف لابن أبي شيبة: ٦/١٦٨، والمسند لأحمد: ١/٢٣٠، ٣٥٤.
- (٢) مروان بن الحكم بن أبي العاص، أو عبد الملك، خليفة أموي، إليه ينسب بنو مروان، ولد بمكة في ٢ هـ، ونشأ بالطائف، وسكن المدينة، من خواص عثمان وكاتب سر له، ولسببه جرى لعثمان ما جرى له، قاتل في وقعة الجمل قتالاً شديداً، وشهد صفين مع معاوية، وتولى المدينة في أيامه، وأخرجه منها ابن الزبير فسكن الشام، وبها توفي في طاعون سنة: ٦٥ هـ، تهذيب التهذيب: ١٠/٩١، الأعلام: ٧/٢٠٧.
- (٣) كتاب المصاحف: ١/١٧٧، ١/١٧٩، وراجع جمال القراء: ١/٨٨، مناهل العرفان: ١/٢٥٢، وانظر الفتح: ٩/١٦، ٢٠.



وامتازت هذه الصحف بميزات مهمة، منها:

أولاً- جمع فيها القرآن الكريم على أدق وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول الثبوت العلمي.

ثانياً- اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته.

ثالثاً- ظفرت بإجماع الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** عليها، وعلى تواتر ما فيها.

رابعاً- كان هذا الجمع شاملاً للأحرف السبعة التي بها نزل القرآن تيسيراً على الأمة الإسلامية^(١).

أما ما ورد في بعض الروايات^(٢) بأن علياً **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أول من جمع القرآن بعد رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فهي - على وهنها وضعفها - تثبت أن علياً أو بعض الصحابة كان قد كتب القرآن في مصحف، وهي مصاحف فردية، ليست لها تلك الثقة، ولم تنل حظها من الدقة والتحري، والجمع والترتيب، والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، والمزايا التي ذكرناها سابقاً، ولم يحجر أبو بكر على أحد جمع وكتابة مصحف لنفسه، فكتابة القرآن أمر مسموح لجميع المسلمين، وكان الصحابة يكتبونه لأنفسهم، منهم أبي بن كعب^(٣)، وابن مسعود... وغيرهما من الصحابة، وإذا كان بعض المصاحف قد سبق في الوجود على صحف أبي بكر

(١) راجع منجد المقرئين: ٢٢، ومناهل العرفان: ١/ ٢٥٤.

(٢) كتاب المصاحف: ١/ ١٨٠، وقال ابن أبي داود: لم يذكر المصحف أحد إلا أشعث، وهو لين الحديث، وإنما روى: حتى أجمع القرآن، يعني أتم حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن: قد جمع القرآن، وهو بذلك نفى أن يكون علي قد جمع القرآن، وقد صرح ابن حجر بضعف هذه الرواية لانقطاع سندها، وعلى تقدير ثبوتها أولها بأن المراد بالجمع: حفظه في الصدر، على ما ذهب إليه مؤلف كتاب المصاحف، انظر الفتح: ١٢/ ٩-١٣، والإتقان: ١/ ١٦٤.

(٣) الإتقان: ١/ ٧٢.

فإن جمع أبي بكر هو الأول من نوعه على كل حال^(١).



(١) راجع مناهل العرفان: ١/ ٢٥٤-٢٥٥.



المبحث الرابع

جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ



وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى - بواعث الجمع في العهد العثماني:

الباعث الأساس في جمع القرآن في عهد عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو: استدراك اختلاف القراء في وجوه قراءة القرآن الكريم وتخطئة بعضهم البعض، فأراد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جمع الأمة على مصحف موحد مجمع عليه.

روى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي صحيحه: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانَ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَّةٍ^(١) وَأَذْرَبِيحَانَ^(٢) مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْرَعُ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ، اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسُخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَيْنَا

(١) اسم لصُقع عظيم في جهة الشمال.. قيل هما إرمينتان، وقيل: ثلاث، وقيل: أربع، وقد أطال الحموي في وصفها، وكانت هي بأيدي الروم حتى جاء الإسلام، انظر معجم البلدان: ١/١٥٩-١٦١.

(٢) ذكر الحموي في ضبطها أربعة أقوال: أذربيجان، أذربيجان، وأذربيجان، معناها: بيت النار بالفارسية، أو خازن النار، إقليم وساع، وصُقع جليل، وملكة عظيمة، من مدنها: تبريز، الغالب عليها الجبال، ذات قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه جمّة، وبساتين كثيرة ومياه وافرة وعيون حارية، فتحت أيام عمر بن الخطاب فولى عليها الحذيفة بن اليمان، ثم عزله وولى عليها عتبة بن فرقد، ثم لما عزل عثمان بن عفان عتبة بن فرقد نقضوا، فغزاهم الوليد بن عقبة سنة خمس وعشرين، ثم صالح أهلها على صلح حذيفة، انظر: معجم البلدان للحموي: ١/١٢٨-١٢٩.

عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ
بْنَ الْحَارِثِ بْنَ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ
الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَارْتَبِعُوا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ،
فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ
الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أَقْفٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ
مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ^(١).

وأخرج ابن أبي داود^(٢) من طريق سويد بن غفلة الجعفي قول علي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**:

«يا أيها الناس: لا تغلوا في عثمان ولا تقولوا له إلا خيراً.. فوالله ما فعل الذي
فعل المصاحف إلا من ملأ منا جميعاً، فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد
بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفراً،
قلنا: فما ترى؟ قال: نرى أن يجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة
ولا يكون اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت.. قال: قال علي: والله لو وليت لفعلت
مثل الذي فعل»^(٣).

لهذه الأسباب والأحداث، رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤ / ١٨٠) برقم: (٣٥٠٦) (كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان
قريش)، (٦ / ١٨٢) برقم: (٤٩٨٤) (كتاب فضائل القرآن، باب نزل القرآن بلسان قریش والعرب)، (٦ /
١٨٣) برقم: (٤٩٨٧) (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن).

(٢) عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، أبو بكر، من كبار المحدثين والمقرئين، صاحب كتاب
المصاحف، ولد في سجستان (من بلاد أفغانستان الحالية) ٢٣٠ هـ، وتوفي سنة ٣١٦ هـ، الغاية: ١ / ٤٢٠،
ميزان الاعتدال: ٤٣ / ٢، الأعلام: ٩١ / ٤.

(٣) كتاب المصاحف: ١ / ٢١٣-٢١٤، وراجع السنن الكبرى للبيهقي: ٢ / ٤٢، والمرشد الوجيز، ص: ٥٤،
ولطائف القسطلاني: ١ / ٦١، والإتقان للسيوطي: ١ / ١٦٩-١٧٠.

الأمر، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف لإرسالها إلى الأمصار، فيؤمر الناس باعتمادها، والتزام القراءة بما يوافقها، وبإحراق كل ما عداها، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية الأساس والمرجع المعتمد لحسم الخلاف وقطع النزاع والمراء^(١).

المسألة الثانية - كيفية الجمع:

أرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر، فبعثت إليه بالصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وتسلمت اللجنة هذه الصحف واعتبرتها المصدر الأساس في هذا الخطب الجلل، ثم أخذت في نسخها، حسب الدستور الذي وضعه لهم عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** حيث قال للقرشيين الثلاثة:

«إِذَا اِخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ ^(٢) فَارْتَبِعُوا بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ» ^(٣).

وفي الترمذي: (قال الزهري فاختلفوا يومئذ في التابوت والتابوه فقال القرشيون التابوت^(٤) وقال زيد التابوه فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال اكتبوه التابوت فإنه نزل بلسان قريش)^(٥).

وكان ما ذكر من منهجهم أنهم كانوا لا يكتبون شيئاً في هذه المصاحف إلا

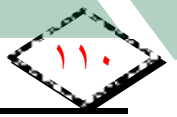
(١) راجع الإتقان: ١/ ١٨٧، وما بعدها، ومناهل العرفان: ١/ ٢٥٥-٢٥٧.

(٢) أي في كيفية كتابته ورسمه، كما يدل عليه لفظ: فاكتبوه.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٨٣) برقم: (٤٩٨٧) (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن).

(٤) سورة البقرة: ٢٤٨، سورة طه: ٣٩، أي في كتابتها بالتاء المجرورة أو المربوطة، ولا يذكر في التاريخ من اختلفهم إلا في هذه الكلمة الوحيدة.

(٥) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، رقم: ٣٠٢٩.



تيسير علوم القرآن

بعد ما يتحققون منه أنه قرآن متلوّ، وغير منسوخ، وذلك بعرضه على حملته من قراء الصحابة، أما لو ثبت نسخ شيء من ذلك تركوه، وهو الذي يسمى اليوم: بـ «القراءات الشاذة».



المسألة الثالثة - مصير المصاحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية:

بعد أن تم نسخ المصاحف العثمانية بالكيفية التي أوضحناها سابقاً، أمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإرسالها إلى الأقطار الإسلامية الشهيرة، وأرسل مع كل مصحف مقرئاً من الذين توافق قراءته في أغلبه قراءة أهل ذلك القطر، وذلك لأن التلقي أساس في قراءة القرآن، وأمر أن يحرق كل ما عداها من الصحف أو المصاحف الشخصية الموجودة لدى الصحابة مما تخالفها، ليستأصل بذلك سبب الخلاف والنزاع بين المسلمين في قراءة كتاب الله، فاستجاب لذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فجمعت المصاحف والصحف وحرقت أو غسلت بالماء^(١).

ففي صحيح البخاري: «حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ»^(٢).

واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية، حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان، وأنه أبى أن يحرق مصحفه، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية، واجتماع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها^(٣).



(١) انظر مناهل العرفان: ١ / ٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٨٣) برقم: (٤٩٨٧) (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن).

(٣) مناهل العرفان: ١ / ٢٦١.

المبحث الخامس ترتيب القرآن



وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى - ترتيب سور القرآن الكريم:

اختلف العلماء في القول بترتيب سور القرآن الكريم على ثلاثة آراء وهي كالآتي:

الرأي الأول: إن ترتيب السور في القرآن هو ترتيب توقيفي من الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وقد تولاه النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فقد كان القرآن الكريم في عهده **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** مرتباً على الترتيب الذي بين أيدينا اليوم؛ إلا أنه غير مجموع، واستدلوا على ذلك بالآتي:

أولاً - ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ: **إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُولِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي (١)**. فذكرها مرتبة كما جاء ترتيبها في القرآن (٢).

ثانياً - ما أخرجه أبو داود وابن ماجه في سننهما عن أوس بن حذيفة قَالَ: **وَفَدْتُ فِي وَفِدِ ثَقِيفَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَزَلَّتِ الْأَخْلَافُ عَلَى الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ. وَأَنْزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي مَالِكٍ فِي قُبَّةٍ لَهُ. فَكَانَ يَنْصَرِفُ**

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ٨٢) برقم: (٤٧٠٨) (كتاب تفسير القرآن، باب حدثنا آدم).

(٢) ينظر: الإتيان في علوم القرآن ١/ ١٩٨-١٩٩، ومباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم،

دمشق، ط ٥، ١٤٢٨ هـ، ص ٨١.



عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ الْعِشَاءِ، فَيُحَدِّثُنَا قَائِمًا عَلَيَّ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَرَاوِحَ بَيْنَ قَدَمَيْهِ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، وَأَكْثَرُ مَا يُحَدِّثُنَا مَا كَانَ يَلْقَى مِنْ قُرَيْشٍ. ثُمَّ يَقُولُ: لَا سَوَاءَ، كُنَّا بِمَكَّةَ مُسْتَدَلِّينَ مُسْتَضْعَفِينَ، فَلَمَّا هَاجَرْنَا كَانَتْ سِجَالُ الْحَرْبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، نُدَالُ عَلَيْهِمْ وَيُدَالُونَ عَلَيْنَا.

فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ لَيْلَةً أَبْطَأَ عَلَيْنَا عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَأْتِي فِيهِ، فَقُلْتُ: أَبْطَأَتْ عَلَيْنَا اللَّيْلَةُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبِي مِنَ الْقُرْآنِ، فَكْرِهْتُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّى أُتَمَّهُ. قَالَ أَوْسُ بْنُ حُذَيْفَةَ: فَسَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ تُحَزِّبُونَ الْقُرْآنَ؟ قَالُوا: ثَلَاثًا، وَخَمْسًا، وَسَبْعًا، وَتِسْعًا، وَإِحْدَى عَشْرَةَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَحِزْبُ الْمُفْصَّلِ وَحْدَهُ^(١) (٢).

ثالثاً- إن إجماع الصحابة على المصحف الذي كتب في عهد عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وعدم مخالفة أحدهم يدل على أن ترتيبه لم يكن باجتهاد اللجنة التي جمعته؛ وإنما كان بتوقيف النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وإلا لتمسك بعض الصحابة بترتيب المصاحف التي كتبوها^(٣).

رابعاً- احتجوا بأن السور المتجانسة في القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والولاء، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحد لهذا التجانس والتماثل في كثير من سورته،

(١) سنن ابن ماجه ٤٢٧/١ رقم الحديث (١٣٤٥)، وسنن أبي داود ٥٥/٢ رقم الحديث (١٣٩٣). إسناده حسن. المغني عن حمل الأسفار، أبو الفضل العراقي (ت ٨٠٦ هـ)، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، ط ١، ١٤١٥، ٢٢٥/١ رقم الحديث (٨٧٥).

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٢/٩، ومباحث في التفسير الموضوعي ص ٨٠.

(٣) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (ت ٧٠٨ هـ)، تحقيق: سعيد الفلاح، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٨ هـ، ص ٥١، ومناهل العرفان في علوم القرآن ٣٥٤-٣٥٥، ومباحث في التفسير الموضوعي ص ٨١.

كسور المسبحات، والحواميم، فإنها لم ترتب على التوالي^(١).
وممن قال بهذا الرأي: الإمام مالك^(٢) حيث يقول: «إنما ألف القرآن على ما
كانوا يسمعون من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٣).
وكذلك ذهب إليه البغوي^(٤) بقوله: «إن الصحابة رَضُوا اللَّهَ عَنْهُمْ جمعوا بين
الدفين القرآن الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير أن
زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً، والذي حملهم على جمعه ما جاء بيانه في الحديث
وهو أنه كان مفرقاً في العسب واللخاف وصدور الرجال فخافوا ذهاب بعضه
بذهاب حفظته، ففزعوا فيه إلى خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوه إلى
جمعه، فرأى في ذلك رأيهم، فأمر بجمعه في موضع واحد باتفاق من جميعهم
فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير أن قدموا شيئاً أو أخرجوا
أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلقي أصحابه ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي
هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل صلوات الله عليه إياه على ذلك وإعلامه عند
نزول كل آية: أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في السور التي يذكر فيها كذا،
وقال: «ثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه؛ فإن
القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا أنزله الله
تعالى جملة واحدة في شهر رمضان ليلة القدر إلى السماء الدنيا، كما قال الله

(١) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن ص ٥١-٥٢، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٣٥٥.

(٢) ينظر: ملحق الأعلام، ت (٦١).

(٣) الإتيان في علوم القرآن ١/ ١٩٦.

(٤) ينظر: ملحق الأعلام، ت (١٧).



سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(١)، وقال الله **عَزَّوَجَلَّ:** ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٢)^(٣).

وقال ابن الحصار **رَحْمَةُ اللَّهِ:** «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي، كان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا»، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»^(٤).

ومن الذين ذهبوا إليه القاضي أبو بكر حيث قال: «أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر ينزل، والآية جواباً لمستخبر ويوقف جبريل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف كان عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن»^(٥).

وذهب إليه الكرمانى^(٦) بالقول: «ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ، وهو على هذا الترتيب وكان يعرض النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على جبريل ما اجتمع لديه منه، وعرضه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في السنة التي توفي فيها

(١) سورة البقرة، من الآية (١٨٥).

(٢) سورة القدر، الآية (١).

(٣) شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط ٣، ٤/٥٢١-٥٢٢.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١/١٩٧.

(٥) أسرار ترتيب القرآن ١/٦٨-٦٩.

(٦) ينظر: ملحق الأعلام، ت (٨١).

مرتين»^(١).

الرأي الثاني: إن ترتيب السور في القرآن لم يكن بتوقيف النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وإنما كان باجتهاد الصحابة، واستدلوا على ذلك بالآتي:

أولاً- ما أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما عن ابن عباسٍ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** قال: قلت لعُثْمَانَ بن عَفَّانَ ما حَمَلَكُم أَنْ عَمَدْتُمُ إِلَى بَرَاءَةَ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينَ وَإِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي فَجَعَلْتُمُوهُمَا فِي السَّبْعِ الطَّوَالِ، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قال: عُثْمَانُ كان النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مِمَّا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ، فَيَدْعُو بَعْضَ مَنْ كان يَكْتُبُ لَهُ وَيَقُولُ لَهُ: «ضَعْ هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا»، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَالْآيَاتَانِ، فيقول مثل ذلك، وَكَانَتْ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَّلِ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءَةٌ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ هُنَاكَ وَضَعْتُهُمَا فِي السَّبْعِ الطَّوَالِ وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

وفي سنن الترمذي: «وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، فَخَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَنْتُ بَيْنَهُمَا وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطَّوَالِ»^(٢) ^(٣).

ثانياً- ما جاء عن حُذَيْفَةَ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: قال صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ذَاتَ لَيْلَةٍ،

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١/ ٢٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (١ / ٢٣٠) برقم: (٤٣) والحاكم في "مستدرکه" (٢ / ٢٢١) برقم:

(٢٨٩٣)، (٢ / ٣٣٠) برقم: (٣٢٩١) والنسائي في "الكبرى" (٧ / ٢٥٣) برقم: (٧٩٥٣) وأبو داود في

"سننه" (١ / ٢٨٧) برقم: (٧٨٦)، (١ / ٢٨٨) (بدون ترقيم) والترمذي في "جامعه" (٥ / ١٦٦) برقم:

(٣٠٨٦)

(٣) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٣٥٣-٣٥٤.



فَأَفْتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّيُ بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، فَكَانَ سُجُودَهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ، (قال).

وفي حديث جرير من الزيادة، فقال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد» (١) (٢).

ثالثاً- إن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان **رضي الله عنه**؛ فلو كان هذا الترتيب توقيفياً لما اختلفت مصاحفهم (٣).

وذهب القاضي أبو بكر بن الطيب **رحمه الله** في أحد قوله إلى أن: «ترتيب السور اليوم هو من تلقاء زيد ومن كان معه مع مشاركة من عثمان **رضي الله عنه** في ذلك» (٤).

وذهب إليه ابن تيمية **رحمه الله** (٥) بقوله: «كما أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً بل مفوضاً إلى اجتهادهم» (٦).

(١) صحيح مسلم ٥٣٦/١ رقم الحديث (٧٧٢)، وسنن النسائي ٣/٢٢٥ رقم الحديث (١٦٦٤).

(٢) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٦١.

(٣) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/٣٥٣.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/٤٩-٥٠، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١/٣٥٣.

(٥) ينظر: ملحق الأعلام، ت (٣).

(٦) كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس

الرأي الثالث: أن سور وآيات القرآن الكريم كانت على عهد النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مرتبة على الترتيب الذي بين أيدينا اليوم؛ إلا الأنفال وبراءة، لحديث ابن عباس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** السابق.

وقد استدلل الحافظ ابن حجر **رَحِمَهُ اللهُ** من هذا الحديث: بأن عدم بيان النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** للصحابة أن براءة من الأنفال جعل عثمان **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** يضيفها إليها اجتهاداً منه^(١).

ومن الذين قالوا بهذا الرأي ابن عطية **رَحِمَهُ اللهُ**^(٢) الذي ذهب إلى ذلك بقوله: «وظاهر الآثار أن السبع الطوال والحواميم والمفصل كان مرتباً في زمن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وكان في السور ما لم يرتب فذلك هو الذي رتب وقت الكتب»^(٣).

قلت: إن كثيراً من سور القرآن كان معلوم الترتيب في عهد النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كسور المفصل بدليل الأحاديث الواردة في ذلك منها:

عن جابر بن عبد الله قال: كان مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يُصَلِّيُ مَعَ النَّبِيِّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَوْمُ قَوْمِهِ، فَصَلَّى الْعِشَاءَ فَقَرَأَ بِالْبَقَرَةِ، فَانصَرَفَ الرَّجُلُ، فَكَانَ مُعَاذًا تَنَاولَ مِنْهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فقال: «فَتَانُ فَتَانُ فَتَانُ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَوْ قَالَ: «فَاتِنَا فَاتِنَا فَاتِنَا»، وَأَمْرُهُ بِسُورَتَيْنِ مِنْ أَوْسَطِ الْمُفَصَّلِ قَالَ عَمْرُو: لَا أَحْفَظُهُمَا^(٤).

(ت ٨٢٧ هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط ٢،

٣٩٦/١٣.

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٢/٩.

(٢) ينظر: ملحق الأعلام، ت (٣٨).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥٠/١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب: إذا طول الإمام وكان للرجل حاجة

فخرج فصلي، رقم الحديث (٧٠١).



وكذلك ما نراه من مؤلفات بشأن الترابط الموضوعي بين سور القرآن الكريم^(١)، والتي أكد فيها مؤلفوها أن هناك ترابطاً بين السور المتجاورة، وهذا الربط يكون أحياناً لفظياً وظاهراً، ويكون أحياناً بمضمون السور، وفي هذا الترابط يظهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم، ولا يمكن أن يظهر الترابط إلا بالترتيب الذي عليه المصحف، وفي هذا دلالة واضحة على إن ترتيب السور لم يكن اجتهاداً من الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، وإنما كان ذلك بتوقيف الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، وأنه لا يمكن أن يخالف ما أنزله الله تعالى على نبيه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ما في اللوح المحفوظ، وأن هذا الترتيب هو الذي ارتضاه الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لكتابه العزيز، لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾^(٢).

وما أجمل ما قاله الألوسي **رَحِمَهُ اللَّهُ** في تفسيره بصدد هذا الموضوع حيث قال: «إن ما بين اللوحين الآن موافق لما في اللوح من القرآن، وحاشا أن يهمل **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أمر القرآن، وهو نور نبوته، وبرهان شريعته، فلا بد إما من التصريح بمواضع الآي والسور، وإما من الرمز إليهم بذلك، وقال: وعثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وإن لم يقف على ما يفيد القطع في براءة والأنفال وفعل ما فعل بناء على ظنه، إلا أن غيره وقف وقبل ما فعله ولم يتوقف، وكم لعمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** موافقات لربه أدى إليها ظنه، فليكن لعثمان هذه الموافقة التي ظفر غيره بتحقيقها من النصوص، أو الرموز، فسكت على أن ذلك كان قبل ما فعل عثمان عند التحقيق، ولكن لما رفعت الأقلام، وجفت الصحف، واجتمعت الكلمة في أيامه،

(١) ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن ص ٥٢، ومباحث في التفسير الموضوعي ص ٨٢.

(٢) سورة البروج، الآية (٢١-٢٢).

واقترنت المسلمون في سائر الآفاق بإمامه، نسب ذلك إليه، وقصر من دونهم عليه، والسؤال منه وجوابه ليسا قطعيين في الدلالة على الاستقلال، لجواز أن يكون السؤال للاستخبار عن سر عدم المخالفة، والجواب لإبدائه على ما خطر في البال، وبالجملة بعد إجماع الأمة على هذا المصحف لا ينبغي أن يصاح إلى آحاد الأخبار»^(١).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١/ ٢٧.



المسألة الثانية- ترتيب آيات القرآن الكريم في سورة:

أجمع العلماء على إن ترتيب الآيات في سور القرآن هو بتوقيف من النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** للأدلة القاطعة بذلك وهي:

أولاً- ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: **﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾**، قَالَ: قَدْ نَسَخْتَهَا آيَةً الْأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ أَوْ: تَدْعُهَا؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ ^{(١)(٢)}.

فقول سيدنا عثمان **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** لا أغير شيئاً من مكانه، يدل على أنه لا يجتهد في شيء من ترتيب القرآن.

ثانياً- ما جاء في الصحيح أن عمر بن الخطاب خطب يوم الجمعة فذكر نبي الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وذكر أبا بكر - إلى أن قال - ثم إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري فقال: «يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء» ^(٣).

فقد بين النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** موضع آية الصيف وهي قوله تعالى: **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾** ^(٤) من سورة النساء، وهذا يدل على

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ٢٩) برقم: (٤٥٣٠) (كتاب تفسير القرآن، باب والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا).

(٢) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١ / ٣٤٨.

(٣) صحيح مسلم ١ / ٣٩٦ رقم الحديث (٥٦٧)، ٣ / ١٢٣٦ رقم الحديث (١٦١٧)، وسنن ابن ماجه ٢ / ٩١٠ رقم الحديث (٢٧٢٦).

(٤) سورة النساء، الآية (١٧٦).

أن ترتيبها كان توقيفياً^(١).

ثالثاً- ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ»^(٢)^(٣).

رابعاً- عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرَّقَاعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: طُوبَى لِلشَّامِ فَقُلْنَا: لِأَيِّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا^(٤)^(٥).

خامساً- ما جاء عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قلت لعُثْمَانَ بنِ عَفَّانَ مَا حَمَلَكُمُ أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى بَرَاءةٍ وَهِيَ مِنَ الْمِئِينِ وَإِلَى الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي فَجَعَلْتُمُوهُمَا فِي السَّبْعِ الطَّوَالِ، وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قَالَ: عُثْمَانُ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ، فَيَدْعُو بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ وَيَقُولُ لَهُ: «ضَعْ هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا»، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَالْآيَاتُ، فَيَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَكَانَتْ الْأَنْفَالُ مِنْ أَوَّلِ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ بَرَاءةً مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَةً بِقِصَّتِهَا فَظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنْهَا، فَمِنْ هُنَاكَ وَضَعْتُهُمَا فِي السَّبْعِ الطَّوَالِ

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ٣٤٨.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٥٥٥ رقم الحديث (٨٠٩).

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٩٤.

(٤) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٣١٩ / ١) برقم: (١١٤)، (١٦ / ٢٩٣) برقم: (٧٣٠٤) والحاكم في

"مستدرکه" (٢٢٩ / ٢) برقم: (٢٩١٨)، (٢ / ٢٢٩) برقم: (٢٩١٩)، (٢ / ٦١١) برقم: (٤٢٤٠)

والترمذي في "جامعه" (٦ / ٢٢٣) برقم: (٣٩٥٤) وأحمد في "مسنده" (٩ / ٥٠٥٤) برقم: (٢٢٠٠٧).

(٥) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٩٣.



ولم أَكْتُبَ بَيْنَهُمَا سَطْرَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١).

وقد جاء في شرح هذا الحديث بأن قول عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كان مما ينزل عليه الآيات، فَيَدْعُو بَعْضَ مَنْ كَانَ يَكْتُبُ لَهُ وَيَقُولُ له: «ضَعْ هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَالْآيَتَانِ، فيقول مثل ذلك. «أن هذا زيادة جواب تبرع به **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** للدلالة على أن ترتيب الآيات توقيفي وعليه الإجماع»^(٢).

قال القاضي عياض **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «ولا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»^(٣).

وقال الزركشي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «وأما ما يتعلق بترتيبه، فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه»^(٤).
وقال القاضي أبو بكر **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا»^(٥).

(١) سنن أبي داود ٢٠٨/١ رقم الحديث (٧٨٦)، وسنن الترمذي ٢٧٢/٥ رقم الحديث (٣٠٨٦). وقال عنه: حديث حسن صحيح.

(٢) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ٣٨٠/٨.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٠/٩، والديباج على مسلم ٣٨١/٢.

(٤) البرهان في علوم القرآن ٢٥٦/١.

(٥) الإتيان في علوم القرآن ١٩٦/١.

المسألة الثالثة - تسمية السور:

اختلف العلماء في جواز تسمية السور بأسمائها على قولين:

القول الأول: يكره أن يقال سورة البقرة أو سورة آل عمران؛ وإنما يقال السورة التي يذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمران وهكذا في سائر السور^(١).

القول الثاني: يجوز أن يقال سورة البقرة وسورة آل عمران وهكذا مع بقية السور^(٢). وهذا قول الجمهور وهو الأصح، لورود الأدلة على ذلك ومنها:

١. عن الأعمش قال: سمعت الحجاج يقول على المنبر: السورة التي يُذكر فيها البقرة، والسورة التي يُذكر فيها آل عمران، والسورة التي يُذكر فيها النساء، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: حدثني عبد الرحمن بن يزيد: أنه كان مع ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** حين رمى جمرة العقبة فاستبطن الوادي، حتى إذا حاذى بالشجرة اعترضها فرمى بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ثم قال: من ها هنا والذي لا إله غيره قام الذي أنزلت عليه سورة البقرة **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**^(٣).

٢. عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه»^(٤).

(١) ينظر: الإتيان في علوم القرآن ١/ ١٧٣.

(٢) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ١/ ٤٠، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/ ٨٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب: من يكبر مع كل حصاة، رقم الحديث (١٧٥٠)، ومواضع أخرى، وصحيح مسلم ٢/ ٩٤٢ رقم الحديث (١٢٩٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: من لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وكذا، رقم الحديث (٥٠٤٠)، ومواضع أخرى، وصحيح مسلم ١/ ٥٥٤ رقم الحديث (٨٠٧)، وسنن ابن ماجه ١/ ٤٣٥ رقم الحديث (١٣٦٨)، و(١٣٦٩)، وسنن أبي داود ٢/ ٥٦ رقم الحديث (١٣٩٧)، وسنن



٣. عن عائشة قالت لَمَّا أُنزِلَتْ الْآيَاتُ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرَّبَا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَقَرَأَهُنَّ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ حَرَّمَ تِجَارَةَ الْخَمْرِ^(١).

وهناك أحاديث أخرى كثيرة في الكتب الستة تدل على رجحان ما ذهب إليه أصحاب القول الثاني، وهو رأي البخاري حيث عقد له باباً في صحيحه أسماه: باب: من لم ير بأساً أن يقول: سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةُ كَذَا وَكَذَا، وذكر فيه ثلاثة أحاديث^(٢).



الترمذي ١٥٩/٥ رقم الحديث (٢٨٨١).

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: تحريم تجارة الخمر في المسجد، رقم الحديث (٤٤٧)، ومواضع أخرى، وصحيح مسلم ١٢٠٦/٣ رقم الحديث (١٥٨٠)، وسنن ابن ماجه ١١٢٢/٢ رقم الحديث (٣٣٨٢)، وسنن أبي داود ٢٨٠/٣ رقم الحديث (٣٤٩٠).

(٢) ينظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: من لم ير بأساً أن يقول: سورة البقرة، وسورة كذا وكذا، رقم الحديث (٥٠٤٠)، و(٥٠٤١)، و(٥٠٤٢).

الفصل السادس

النسخ

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف النسخ.

المبحث الثاني: حكم النسخ.

المبحث الثالث: الحكمة من النسخ.

المبحث الرابع: أقسام النسخ.



المبحث الأول تعريف النسخ



وفيه مسألتان:

المسألة الأولى- النسخ في اللغة:

يطلق النسخ في لغة العرب على معنيين:

أحدهما- إبطال الشيء وإقامة آخر مقامه، ومنه، قول العرب: نسخت الشمس

الظل، أي: أزالته وحلت محله، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ

نُنسَخَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(١).

والآخر- نقل الشيء من مكان إلى مكان مع بقاء الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا

نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^{(٢)(٣)}.

المسألة الثانية- النسخ في الاصطلاح:

عرف العلماء النسخ بتعريفات كثيرة نذكر منها:

١- هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه^(٤).

٢- هو بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخ عنه^(١).

(١) سورة البقرة، من الآية (١٠٦).

(٢) سورة الجاثية، من الآية (٢٩).

(٣) ينظر: لسان العرب، مادة (نسخ).

(٤) ينظر: المعتمد: لأبي الحسين البصري: ١/ ٣٦٥، واللامع: للشيرازي: ٥٥، والأحكام للأمدي ٣/ ٩٨،

والموفقات: للشاطبي: ٢/ ٦٤، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٧٤، والوجيز: عبد الكريم زيدان: ٣٨٨.

٣- هو الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه

لولا له لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه^(٢).

وإلى التعريف الأول ذهب كثير من العلماء؛ لأنه هو الأقرب والأنسب^(٣).



(١) ينظر: البرهان في أصول الفقه: للجويني: ٢/ ٨٤٢، وأصول السرخسي: ٢/ ٤، والأحكام لابن حزم:

٣٦٣/ ٤، والناسخ والمنسوخ: لابن حزم: ٧.

(٢) ينظر: المستصفى: للغزالي: ١/ ١٠٧.

(٣) من هؤلاء العلماء: عبد العظيم الزرقاني، وصبحي الصالح، ومناع القطان.



المبحث الثاني حكم النسخ



أجمع المسلمون على وقوع النسخ شرعاً وجوازه عقلاً إلا ما روي عن بعضهم^(١)، وهو قول شاذ لا يلتفت إليه.

قال النحاس **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «وقالت الملحدة ليس في القرآن ناسخ ولا منسوخ وهؤلاء قوم وافقوا اليهود وجميعاً عن الحق صدوا وبإفكهم على الله ردوا والكتاب ناطق بإثبات ما جحدوا»^(٢).

قال ابن الجوزي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «اتفق جمهور علماء الأمم على جواز النسخ عقلاً وشرعاً»^(٣).

وقال الرازي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «النسخ عندنا جائز عقلاً وواقع سمعاً خلافاً لليهود»^(٤).

وقد استدل العلماء على وقوع النسخ بأدلة عقلية ونقلية نذكر بعضاً منها

باختصار^(٥):

-
- (١) منهم أبو مسلم الأصفهاني حيث كان يرى أن النسخ جائز عقلاً وممتنع شرعاً، ذكر ذلك الإمام الرازي ورد عليه، ينظر: المحصول: للرازي: ٣/ ٤٦٠-٤٦٦، ومفاتيح الغيب: للرازي: ٣/ ٢٢٩.
- (٢) الناسخ والمنسوخ: للنحاس: ٢٦٥.
- (٣) نواسخ القرآن: لابن الجوزي: ١٤.
- (٤) مفاتيح الغيب: للرازي: ٣/ ٢٢٧، والمحصل: للرازي: ٣/ ٤٤٠.
- (٥) ينظر: المستصفى: للغزالي: ٨٧، والأحكام: للأمدي: ٣/ ١٢٧، والناسخ والمنسوخ: لابن حزم: ٨،

أما العقل فلا يمنع جوازه؛ لأنه لا يترتب على وقوعه محال؛ ولأن النسخ ممكن والله قادر على جميع الممكنات وهو فعال لما يريد؛ ولأن أفعال الله لا تعلق بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء في وقت وينسخه بالنهي عنه في وقت؛ وذلك لأن الله تعالى يشرع الأحكام لتحقيق مصالح العباد، ومصالح العباد قد تختلف باختلاف الأزمان، وليس مما يمنعه العقل أن يعلم الله تعالى المصلحة في عمل في زمن من الأزمان ويعلم عدم المصلحة فيه في زمن آخر، وعلم الله تعالى في الحالتين قديم، فيأمر به في الزمن الأول وينهى عنه في الزمن الآخر، وهو **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ.**

أما النقل فقد وردت أدلة كثيرة على جواز النسخ منها^(١):

١- قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا قَدْ أَلَّمَ تَعَالَى أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) فهي صريحة بجواز النسخ، بل هي نزلت رداً على الذين طعنوا في الشريعة الإسلامية بوقوع النسخ فيها^(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٤).

والتبصرة: للشيرازي: ٢٥١، ومناهل العرفان: للزرقاني: ٢/ ٨٤-٨٩.

(١) ينظر: المحصول: للرازي: ٣/ ٤٤٣، والفصول في الأصول: للجصاص: ٢/ ٢١٣-٢١٦، واللمع:

للشيرازي: ١٦٤، والأحكام: للآمدي: ٣/ ١١٥، ونواسخ القرآن: لابن الجوزي: ١٤، والبرهان في علوم

القرآن: للزركشي: ٢/ ٣٠، ومناهل العرفان: للزرقاني: ٢/ ٨٧-٨٨.

(٢) سورة البقرة: ١٠٦.

(٣) ينظر: أسباب النزول: للواحدي: ١٨، والجامع لأحكام القرآن: للقرطبي: ٢/ ٦١.

(٤) سورة الرعد: ٣٩.



أي يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه، (ويثبت) ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِنْدَهُ وُجُوهٌ مِّنَ السَّمَاءِ يُنزِلُ فِيهَا السُّحُبُ الْمَكِينَةُ﴾ (١)، وجملة ذلك عنده في أم الكتاب أي الناسخ والمنسوخ (٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣).
والتبديل هو رفع الأصل وإثبات البدل، وهذا معنى النسخ (٤)، والآية صريحة في جواز ذلك، بل هي تنكر على من يتهم الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بالكذب بسب وقوع ذلك في شرعه.

٤- أن سلف الأمة أجمعوا على أن النسخ وقع في الشريعة الإسلامية (٥).
٥- إن في القرآن آيات كثيرة نسخت أحكامها (٦).
مما تقدم يتبين لنا أن النسخ ثابت في الشريعة الإسلامية.



(١) سورة الرعد: ٣٩.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: للرازي: ٥١/١٩، وتفسير القرآن العظيم: لابن كثير: ٥٢١/٢.

(٣) سورة النحل: ١٠١.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: للرازي: ٩٣/٢٠، والجامع لأحكام القرآن: للقرطبي: ١٧٦/١٠.

(٥) ينظر: مناهل العرفان: للزرقاني: ٨٩/٢.

(٦) المصدر نفسه.

المبحث الثالث الحكمة من النسخ



الآن وقد عرّفنا النَّسخ وثبوته بالأدلة الشرعية، يجدر بنا أن نبيّن حكمة الله - تعالى- فيه؛ لأنّ معرفة الحكمة تريح النفوس، وتزيل اللبس، وتعصم من الوسوسة. لاسيما في موضوعنا الذي كثر منكره، وتصيدوا لإنكاره الشبهات من هنا وهناك.

ولأجل تفصيل القول في الحكمة نذكر- كما ذكرنا آنفاً- أنّ النَّسخ وقع بالشرعية الإسلامية، ووقع فيها على معنى أن الله تعالى نسخ بالإسلام كل دين سبقه، ونسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض.

وأما حكمة الله - تعالى- في أنه نسخ بعض أحكام الإسلام ببعض، فترجع إلى سياسة الأمة وتعهداتها بما يرقّيها ويمحصّها.

وبيان ذلك أنّ الأمة الإسلامية في بدايتها حين صدعها رسول الله **صلى الله عليه وسلم** بدعوته كانت تعاني فترة انتقال شاق، بل كان أشق ما يكون عليها ترك عقائدها وموروثاتها وعاداتها خصوصاً مع ما هو معروف عند العرب الذين شوفهوا بالإسلام، من التحمس لما يعتقدون أنه من مفاخرهم وأمجادهم، فلو أخذوا بهذا الدين الجديد مرة واحدة، لأدّى ذلك إلى نقيض المقصود، ومات الإسلام في مهده، ولم يجد أنصاراً يعتنقونه ويدافعون عنه؛ لأنّ الطفرة من نوع المستحيل الذي لا يطيقه الإنسان من هنا جاءت الشريعة إلى الناس تمشي على



مهل متألفة لهم، متلطفة في دعوتهم متدرجة بهم إلى الكمال رويداً رويداً، صاعدة بهم في مدارج الرقي شيئاً فشيئاً. منتهزة فرصة الإلف والمران والأحداث الجادة عليهم، لتسير بهم من الأسهل إلى الأسهل، ومن السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب، حتى تم الأمر ونجح الإسلام نجاحاً لم يعرف مثله في سرعته وامتزاج النفوس به، ونهضة البشرية بسببه.

تلك الحكمة على هذا الوجه تتجلى فيما إذا كان الحكم الناسخ أصعب من المنسوخ، كموقف الإسلام في سموه ونبله من مشكلة الخمر في عرب الجاهلية بالأمس، وقد كانت مشكلة معقدة كل التعقيد، يحتسونها بصورة تكاد تكون إجماعية، ويأتونها لا على أنها عادة مجردة بل على أنها أمانة القوة، ومظهر الفتوة، وعنوان الشهامة! فهل كان معقولاً أن ينجح الإسلام في فطامهم عنها لو لم يتألفهم ويتلطف بهم إلى درجة أن يمتن بها أول الأمر، كأنه يشاركهم في شعورهم. وإلى حدّ أنه أبى أن يحرمها عليهم في وقت استعدت فيه بعض الأفكار لتسمع كلمة تحريمه، حين سأله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾^(١).

والخمر - كما هو معلوم - جاء تحريمها على أربع مراحل، مرحلة الإباحة، ومرحلة التعريض، ومرحلة التوقيت، ومرحلة التأييد:

مرحلة الإباحة: قال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ

سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(٢)، فالنخيل والأعناب التي يكون منها الخمر أباحها الله

(١) سورة البقرة: ٢١٩.

(٢) سورة النحل: ٦٧.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(١).

مرحلة التعريض: قال **عزَّجَلَّ:** ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٢)، فإن العاقل يتركها لكنه يرى نفسه في حلٍّ إن فعلها، والحكمة في قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٣) حيث قال سبحانه:-
﴿وَمَنْفَعٌ﴾ ولم يقل منفعة، يعني حتى مع كثرة المنافع فالإثم أكبر.

مرحلة التوقيف: قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٤) يستلزم النهي عن قربان الصلاة حال السكر، أي لا يسكر الإنسان حين أوقات الصلاة لأنه لو سكر لوقع فيما نهى الله عنه، إذا فهذا يخفف من شربها.

ومرحلة التأييد: قال **عزَّجَلَّ:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٥)، فهذا تدرُّج لأنَّ النَّاسَ لو صُدِمُوا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ وَحُمِلُوا عَلَىٰ أَنْ يَدْعُوا هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَعَوَّدُوا عَلَيْهِ وَالْفَوْهُ وَاشْتَهَتْهُ أَنْفُسُهُمْ لَصَعِبَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَرَبَّمَا لَمْ يَمْتَثِلْ بَعْضُهُمْ.

(١) سورة النحل: ٦٧.

(٢) سورة البقرة: ٢١٩.

(٣) سورة البقرة: ٢١٩.

(٤) سورة النساء: ٤٣.

(٥) سورة المائدة: ٩٠.



أما الحكمة في نسخ الحكم الأصعب بما هو أسهل منه، فالتخفيف على الناس ترفيهاً عنهم، وإظهاراً لفضل الله عليهم ورحمته بهم، وفي ذلك ترغيب لهم على المبالغة في شكره وتمجيده - سبحانه - وتحبيب لهم فيه وفي دينه.

وأما الحكمة في نسخ الحكم بمساويه في صعوبته أو سهولته، فالابتلاء والاختبار ليظهر المؤمن فيفوز، والمنافق فيهلك ليميز الله الخبيث من الطيب.

فإذا قال قائل: «إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (١) . الجواب: بلى هو أعلم بالشاكرين وأعلم بالمتقين. ولكن علمه لا يترتب عليه الجزاء، فلا يترتب الجزاء حتى يجرب العبد الشكر والتقوى، أما قبل ذلك فهو علم لا يتعلق بنا - نحن - أي: بالنسبة للتكليف والإثابة والعقوبة.

أما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم، فتسجيل تلك الظاهرة الحكيمة ظاهرة سياسة الإسلام للناس، حتى يشهدوا أنه هو الحق، وأن نبيه نبي الصدق، وأن الله هو الحق المبين، العليم الحكيم، الرحمن الرحيم، يُضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة، ومن قيام معجزات بيانية أو علمية أو سياسية بها. (٢)

وأما نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، فحكمتها تظهر في كل آية بما يناسبها. وأنه تبدو لنا حكمة في مثال مشهور من هذا النوع.

ذلك أنه صح في الرواية عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب أنهما قالا: كان

(١) سورة الأنعام: ٥٣.

(٢) ينظر: شرح الأصول من علم الأصول، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م دار ابن

الهيثم - القاهرة: ٣٩٦.

فيما أنزل من القرآن (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) (١).
 أي كان هذا النص آيةً تُتلى ثم نُسخَتْ تلاوتها وبقي الحكم معمولاً به إلى
 اليوم. والسّرُّ في ذلك أنّها كانت تُتلى أولاً لتقرير حكمها، ردعاً لمن تُحدثه نفسه
 أن يتلّخ بهذا العار الفاحش من شيوخ وشيخات. حتى إذا ما تقرر هذا الحكم في
 النفوس، نسخ الله تلاوته لحكمةٍ أخرى، هي الإشارة إلى شناعة هذه الفاحشة،
 وبشاعة صدورها من شيخٍ وشيخةٍ، حيث سلكها مسلك ما لا يليق أن يُذكر
 فضلاً عن أن يُفعل، وسار بها في طريقٍ يُشبه طريق المُستحيل الذي لا يقع، كأنه
 قال: نزهوا الأسماع عن سماعها، والألسنة عن ذكرها، فضلاً عن الفرار منها
 والتلوث برجسها.

نخلص مما سبق أن للنسخ حكماً متعددة، منها:

- ١- مراعاة مصالح العباد بتشريع ما هو أنفع في دينهم ودنياهم.
- ٢- تطوّر التشريع إلى مرتبة الكمال، بحسب تطوّر الدعوة وتطوّر حال الناس.
- ٣- اختبار المُكلّفين باستعدادهم لقبول التحوّل من حكم إلى آخر ورضاهم بذلك،
 أي: ابتلاء المُكلّف واختباره بالامتثال وعدمه.
- ٤- اختبار المُكلّفين بقيامهم بوظيفة الشكر إذا كان النسخ إلى أخفّ، ووظيفة الصبر
 إذا كان النسخ إلى أثقل، أي: إرادة الخير للأمة والتيسير عليها، لأنّ النسخ إذا
 كان إلى أشقّ ففيه زيادة الثواب، وإذا كان إلى أخفّ ففيه سهولة ويُسرّ.

الأمثلة التشريعية على تطبيق حكم النسخ:

اذكر هنا بعض الأمثلة على النسخ مراعاةً للمصلحة والتدرج في التشريع (١):

(١) صحيح مسلم: كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنى، ج ٣، ص ١٣١٧، رقم ١٦٩١.

١- سكت التشريع في مبدأ الأمر لمُدَّة ما على (زواج المُتعة) الذي كان في الجاهليَّة، ثمَّ نُسِخَ بنظامِ الزواج الذي يُقرَّر للمرأة حقوقاً كاملةً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٢).

٢- منع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولاً من زيارة القبور، خشية أن يؤدي إلى شيء من الشرك والوثنية عند بعض ضعاف الإيمان، ثمَّ أباح الزيارة بقوله: (كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، فإنها تُرهدُّ في الدنيا، وتذكِّر الآخرة)^(٣).

٣- أوجِبَ اللهُ - تعالى - أولاً الوصية للوالدين والأقربين رداً على نظام الجاهليَّة الذي كانت المرأة فيه تُحرَّم من الميراث، ويستأثر أكبر الأولاد بالتركة، وقد يوصي بها المالك لمن يشاء، ثمَّ جاءت آيات الموارث بتوزيع عادلٍ بين الرجال والنساء، سواءً من قرابة الأب، أو قرابة الأم أحياناً.

٤- حرَّم الخمر على مراحل - وقد تقدَّم بيانهُ -.

٥- كذلك حرَّم الربا على مراحل تدرجت من مُقارنته مع الزكاة التي يُضاعفُ اللهُ ثوابها، وأما الربا فلا نماء ولا ثمرة ولا بركة فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾^(٤). ثمَّ بيان كونه ظلمًا، فحرَّم على اليهود، قال سبحانه: ﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا

(١) ينظر: أصول الفقه، للإمام محمد أبي زهرة، د. ط، د. ت، دار الفكر العربي، مصر: ١٨٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٣) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود وهو حديثٌ صحيحٌ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة القبور، ج ١، ص

٥٠١، رقم الحديث (١٥٧١).

(٤) سورة الروم: ٣٩.

عَنْهُ ﴿^(١)﴾، ثُمَّ التَّشْنِيعُ عَلَيْهِ فِي الصُّورَةِ الْقَبِيحَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ أَكْلِهِ أضعافاً مضاعفةً، قَالَ **عَزَّجَلَّ**: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ ^(٢)، ثُمَّ تَحْرِيمُهُ الْعَامُّ بِآيَاتٍ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ ^(٣)، ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ ^(٤)، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ^(٥).

٦- شُرِّعَتِ الصَّلَاةُ أَوَّلًا رَكَعَتَيْنِ فِي الْغَدَاةِ وَرَكَعَتَيْنِ فِي الْعِشِيِّ، رِفْقًا فِي النَّاسِ، حَتَّى أَلْفُوا مَعْنَى الصَّلَاةِ، وَتَذَوَّقُوا حَلَاوتَهَا وَلَذَّةَ مَنَاجَاتِهَا، شَرَعَ اللَّهُ - تَعَالَى - خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي أَوْقَاتٍ مَخْصُوصَةٍ.

٧- مَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مِنْ ادِّخَارِ لَحُومِ الْأَضَاحِيِّ مِنْ أَجْلِ بَعْضِ الْوَفُودِ الْقَادِمَةِ عَلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ أَبَاحَهُ بِقَوْلِهِ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ لَحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ لِيَتَّسِعَ ذَوُو الطَّوْلِ عَلَى مَنْ لَا طَوْلَ لَهُ، فَكَلُوا مَا بَدَا لَكُمْ وَأَطْعَمُوا وَادَّخَرُوا» ^(٦).

٨- نَهَى **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عَنِ الْأَشْرِبَةِ الْمُبَاحَةِ فِي أَوْعِيَةِ الْخَمْرِ، ثُمَّ أَبَاحَ اسْتِعْمَالَ

(١) سورة النساء: ١٦١.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٠.

(٣) سورة البقرة: ٢٧٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٧٦.

(٥) سورة البقرة: ٢٧٨.

(٦) رواه الترمذی عن بُرَيْدَةَ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، كِتَابُ الْأَضَاحِيِّ، بَابُ الرِّخْصَةِ فِي أَكْلِهَا بَعْدَ ثَلَاثِ، ج ٤،

ص ٩٤، رَقْم ١٥١٠.

جميع الأوعية، فقال: «كنتُ نهيتُكم عن الأشرية إلا في ظروفِ الأدمِ فاشربوا في كُلِّ وعاءٍ، غيرَ أنْ لا تشربوا مُسكرًا»^(١).



(١) رواه مسلم عن بُريدة، كتاب النهي عن الانتباذ في المزفت والدباء والحنتم والنقير، ج ٣، ص ١٥٨٤، رقم

المبحث الرابع أقسام النسخ



ينقسم النسخ إلى أقسام عدة باعتبارات مختلفة، وعلى النحو الآتي^(١):

أولاً- النسخ باعتبار المنسوخ.

ثانياً- النسخ باعتبار الناسخ.

ثالثاً- النسخ باعتبار البدل.

القسم الأول النسخ باعتبار المنسوخ

النسخ باعتبار المنسوخ وهو ثلاثة أنواع:

أولاً- نسخ الحكم والتلاوة جميعاً^(٢): وهو رفع النص المقروء مع حكمه

من سطور المصحف الكريم، فلا تجوز قراءته ولا العمل به.

ومن أمثله:

١- ما ثبت عن السيدة عائشة **رَضِيَ اللهُ عَنْهَا** أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ فِيْمَا أُنزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرُ

رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فَتَوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُنَّ فِيْمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٣).

(١) ينظر: الأحكام في أصول الأحكام: الآمدي: ١٥٤ / ٣.

(٢) ينظر: الفصول: للجصاص: ٣٥ / ٢، والمحصول: للرازي: ٤٨٢ / ٣، والناسخ والمنسوخ: للمقري: ٢٠،

وميزان الأصول: محمد بن أحمد السمرقندي: ١٠٠٨ / ٢، والأحكام: للآمدي: ١٤١ / ٣، والبرهان في

علوم القرآن: للزركشي: ٣٩ / ٢، والإتقان: للسيوطي: ٣٠ / ٣.

(٣) صحيح مسلم: ١٠٧٥ / ٢، كتاب الرضاة- باب التحريم بخمس رضعات، والحديث برقم (٢٦٣٤).



٢- ما روي عن أبي بن كعب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه قال عن سورة الأحزاب: «لَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ»^(١).

ثانياً- نسخ التلاوة دون الحكم^(٢): وهو رفع التلاوة من بين سطور المصحف، مع بقاء الحكم الذي جاءت به الآية ثابت، أي أن المنسوخ من النص القرآني لفظة فقط أما حكمه فهو باق.

ومثاله:

ما ثبت عن عمر بن الخطاب أنه قال: «لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ، حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ: لَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، أَلَا وَإِنَّ الرَّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى وَقَدْ أَحْصَنَ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَمْلُ أَوْ الْإِعْتِرَافُ قَالَ سُفْيَانٌ: كَذَا حَفِظْتُ أَلَا وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ»^(٣).

وفي رواية «وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا: الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَى فَاَرْجُمُوهُمَا الْبَيِّنَةَ نَكَالًا مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^(٤).

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في "زوائد المسند" (٢١٢٠٧)، وعبد الرزاق في "المصنف" (٥٩٩٠)، وابن حبان في "صحيحه" (٤٤٢٨)، والحاكم في "المستدرک" (٨٠٦٨)، والبيهقي في "السنن" (١٦٩١١) وقال ابن كثير رحمه الله: "وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم" انتهى من "تفسير ابن كثير" (٣٣٥/٦).

(٢) ينظر: الفصول للجصاص: ٣٥/٢، ونواسخ القرآن: لابن الجوزي: ٣٨، والمحصول: للرازي: ٤٨٢/٣، والأحكام: للآمدي: ١٤١/٣، والبرهان: للزركشي: ٣٥/٢، والإتقان: للسيوطي: ٣/٣١، ومناهل العرفان: للزرقاني: ١١١/٢.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٦٨/٨) برقم: (٦٨٢٩)، (١٦٨/٨) برقم: (٦٨٣٠)، (١٠٣/٩) برقم: (٧٣٢٣) ومسلم في "صحيحه" (١١٦/٥) برقم: (١٦٩١).

(٤) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٢٧٣/١٠) برقم: (٤٤٢٨) والحاكم في "مستدرکه" (٤١٥/٢) برقم:

ثالثاً- نسخ الحكم دون التلاوة^(١): وهو رفع الحكم الذي جاءت به الآية وانتفاء وجوب العمل به مع بقاء تلاوته بين آيات المصحف.

ومثاله:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢) ، فقد نسخت بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٣) .

فأصبحت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً بعد أن كانت حولاً كاملاً، ولا يزال لفظ الآية المنسوخة بين دفتي المصحف يقرأ ويتعبد بتلاوته.

(٣٥٧٥)، والنسائي في "الكبرى" (٦ / ٤٠٨) برقم: (٧١١٢) والبيهقي في "سننه الكبير" (٨ / ٢١١) برقم: (١٧٠١٢).

(١) ينظر: الفصول للجصاص: ٢ / ٣٥، ونواسخ القرآن: لابن الجوزي: ٣٨، والمحصول: للرازي: ٣ / ٤٨٢، والأحكام: للآمدي: ٣ / ١٤١، والبرهان: للزركشي: ٢ / ٣٥، والإتقان: للسيوطي: ٣ / ٣١، ومناهل العرفان: للزرقاني: ٢ / ١١١.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٠.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٤.



القسم الثاني النسخ باعتبار الناسخ

وهذا القسم من النسخ يبحث عن الدليل الناسخ للحكم السابق الثابت أي عن طريق النسخ، وينقسم إلى أنواع عدة هي:

أولاً- نسخ القرآن بالقرآن.

لا خلاف بين العلماء في جواز نسخ القرآن بالقرآن؛ وذلك لتساوي الناسخ والمنسوخ في الرتبة والعلم، ووجوب العمل به^(١).

ومن أمثله:

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾^(٢).

فقد أجمع العلماء على أن هذه الآية نسخت بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾^(٣) إلى غيرها من الآيات الأخرى.

ثانياً- نسخ القرآن بالسنة:

اختلف العلماء في جواز نسخ القرآن بالسنة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: يجوز نسخ القرآن بالسنة المتواترة وهو مذهب أصحاب أبي

حنيفة ومالك^(١).

(١) ينظر: المحصول: للرازي: ٣/٣٠٧، والأحكام في أصول الأحكام: لابن حزم: ٤/٤٧٧، واللمع:

للشيرازي: ١٧٤، والأحكام: / للامدي: ٣/١٥٩، والمعتمد: لأبي الحسين البصري: ١/٣٩٠.

(٢) سورة النساء: ١٥.

(٣) سورة النور: ٢.

واستدلوا على ذلك بأدلة منها^(٢):

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ﴾^(٣) فلا فرق بين القرآن والسنة إلا في النظم، وأما الحكم فحكم كل واحد منهما حكم الله **عَزَّوَجَلَّ**، فلا يستحيل أن يرفع أحدهما الآخر، وكذلك لا يستحيل أن يبين أحدهما الآخر، لأن كلا منهما وحي الله **عَزَّوَجَلَّ**.

٢- قالوا إن نسخ الوصية الثابتة للوالدين والأقربين بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، قد نسخت بقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِرِثِّهِ»^(٥)، فيكون حكم الآية منسوخاً بالحديث^(٦).

(١) ينظر: الفصول في الأصول: للجصاص: ٣٢٢/٢، والأحكام: للآمدني: ١٦٢/٣، والمستصفي: للغزالي:

١٢٥، والمعتمد: لأبي الحسين: ٤/٤٢٤، وميزان الأصول: محمد بن أحمد السمرقندي: ١٠٠٧/٢،

وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٣٢٤.

(٢) ينظر: الأحكام: للآمدني: ١٦٢/٣ - ١٦٥، ومناهل العرفان: للزرقاني ١٣٣/٢، ودراسات في علوم القرآن:

محمد بكر إسماعيل: ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٣) سورة النجم: ٣-٤.

(٤) سورة البقرة: ١٨٠.

(٥) سنن الترمذي: ٣/٢٩٤، كتاب الوصايا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب لا وصية لوارث،

والحديث برقم (٢٢٠٤)، وسنن ابن ماجه: ٢/٩٠٥، كتاب الوصايا- باب لا وصية لوارث، والحديث برقم

(٢١٢٠).

(٦) ينظر: الأحكام: للآمدني: ١٦٦/٣.



القول الثاني: لا يجوز نسخ القرآن بالسنة مطلقاً، وهو مذهب الإمام الشافعي^(١)، وإليه ذهب الإمام أحمد بن حنبل أيضاً في إحدى الراويتين^(٢).
واستدلوا على قولهم بأدلة منها:

١- قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا قَدْ أَلَّمَ تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣)، فقد بين الله تعالى أن الآية لا تنسخ إلا بمثلها أو بخير منها، فالسنة لا تكون مثلها، ثم امتدح الله عز وجل نفسه فقال: ﴿أَلَمْ تَعَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤) فبين أنه لا يقدر عليه غيره^(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٦) وهذا يفيد بأن وظيفة الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** منحصرة في بيان القرآن، والسنة أن نسخت القرآن لم تكن حينئذ بياناً له، بل تكون رافعة إياه^(٧).

القول الثالث: يجوز نسخ القرآن بالسنة مطلقاً، وإلى هذا ذهب ابن حزم الظاهري^(٨)، وهي رواية عن الإمام أحمد^(٩).

(١) ينظر: الرسالة: للشافعي: ١٠٦-١٠٨، والمستصفى: للغزالي: ١/٣٧١، واللامع: للشيرازي: ٥٩.
(٢) ينظر: الأحكام: للآمدني: ٣/١٦٥، وروضة الناظر: لابن قدامة: ٧٨، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٢٤.
(٣) سورة البقرة: ١٠٦.
(٤) سورة البقرة: ١٠٦.
(٥) ينظر: المستصفى: للغزالي: ٣٧١، والمحصول: للرازي: ٣/٥٢٢ ومفاتيح الغيب: للرازي: ٢/٢٣٢.
(٦) سورة النحل: ٤٤.
(٧) مناهل العرفان: للزرقاني: ٢/١٣٤.
(٨) ينظر: الأحكام: لابن حزم: ٤/٤٧٧.
(٩) ينظر: إرشاد الفحول: للشوكاني: ٣٢٤.

وقد استدلووا بأدلة منها^(١):

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾^(٢) ، فقد

دلت هذه الآية على أن المحرم من الأطعمة محصور في الميتة والدم ولحم الخنزير، وأن غيرها من الأطعمة باق على الحل والإباحة الأصلية، ولكن ثبت أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** نهى عن أكل غير هذه الأصناف، بقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «كُلْ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ فَأَكُلُهُ حَرَامٌ»^(٣).

٢- أن النسخ بيان فكان جائزاً بخبر الواحد كالتخصيص.

والذي يبدو راجحاً والله أعلم هو ما ذهب إليه أصحاب القول الأول من جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة.

ثالثاً- نسخ السنة بالكتاب:

اختلف العلماء في جواز نسخ السنة بالكتاب على قولين:

القول الأول: يجوز نسخ السنة بالكتاب، وهو قول جمهور العلماء من

الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، والظاهرية^(٤).

واستدلووا على ذلك بأدلة نوجزها بالآتي^(١):

(١) ينظر: إرشاد الفحول: للشوكاني: ٣٢٤

(٢) سورة الأنعام: ١٤٥.

(٣) صحيح مسلم: ٣/ ١٥٣٤، كتاب الصيد والذبائح- باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع والحديث برقم (١٩٣٣).

(٤) ينظر: الأحكام: للآمدي: ٣/ ١٦١، وتقريب الوصول: لابن جزى: ١٢٦، والأحكام: لابن حزم: ٤/ ٥٠٥، واللمع: للشيرازي: ٨٧٣، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٨٥، والبرهان: للزركشي: ٢/ ٣٢، والإتقان: للسيوطي: ٢/ ٥٦، وقلائد المرجان: للكرمي: ٣٣، وقواطع الأدلة: للسمعاني: ١/ ٤٥٧.



١- أن وجوب التوجه إلى بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة، لأنه لا يوجد في الكتاب ما يدل عليه، فنسخ بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢).

٢- أن الأكل والشرب والمباشرة كان محرماً في ليل رمضان على من صام ثم نسخ هذا التحريم بقوله تعالى: ﴿فَأَلْزَمْنَا بَشْرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(٣).

٣- قالوا: إن السنة وحي كما أن القرآن وحي ولا مانع من نسخ وحي بوحي لمكان التكافؤ بينهما من هذه الناحية.

القول الثاني: لا يجوز نسخ السنة بالكتاب، وهو مذهب الإمام الشافعي^(٤). وقد استدلوا على ذلك بأدلة منها^(٥):

١- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٦) فالآية تفيد أن السنة ليست إلا بياناً للقرآن، فإذا نسخها القرآن خرجت عن كونها بياناً له.

(١) ينظر: للمع: للشيرازي: ١٧٢، وأصول السرخسي: ٧٧/٢، والأحكام: للآمدني ٣/١٦٤، وكشف الأسرار: عبد العزيز البخاري: ٣/٢٦٤، والبرهان: للجويني: ٢/٨٥١، والبحر المحيط: للزركشي: ٣/١٩٩-٢٠٠، ومناهل العرفان: للزرقاني: ٢/١٤١.

(٢) البقرة: ١٤٤.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧.

(٤) الرسالة: للإمام الشافعي: ١٠٨.

(٥) ينظر: المحصول: للرازي: ١/٥٥٥، والأحكام: لابن حزم: ٤/٥٠٥، وكشف الأسرار: عبد العزيز البخاري: ٣/٢٦٤، وميزان الأصول: للسمرقندي: ٢/١٠٠٧.

(٦) سورة النحل: ٤٤.

ونوقش هذا الدليل: بأن المراد من الآية التبليغ، ويبين صحة ذلك أنه يجوز أن يكون القرآن بياناً للسنة.

٢- قالوا إن الشيء إنما ينسخ بجنسه، فينسخ القرآن بالقرآن والسنة بالسنة والقرآن لا ينسخ بالسنة ولا السنة بالقرآن.

وأجيب عن هذا الدليل: بأن الشيء ينسخ بجنسه أو بما هو أقوى منه والقرآن أقوى من السنة، فوجب أن ينسخ به^(١).

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن قول الجمهور بجواز نسخ القرآن للسنة هو الراجح وذلك لقوة أدلتهم والله تعالى أعلم.

(١) ينظر: التمهيد: للأسنوي: ٢/٣٨٦، والتبصرة: للشيرازي: ٢٧٣.



القسم الثالث النسخ باعتبار البدل

ينقسم النسخ باعتبار البدل وعدمه إلى قسمين:

أولاً- النسخ بلا بدل:

وهو أن ينسخ الحكم دون الإتيان بحكم جديد بدلاً منه.

ومن أمثله:

١- إن الله أمر بتقديم الصدقة بين يدي رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عند مناجاته فقد قال الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُودِكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرٌ﴾^(١)، ثم نسخ هذا الحكم إلى غير بدل، بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُودِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؕ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

٢- إن الأكل والشرب والمباشرة كان محرماً في ليل رمضان، ثم نسخ هذا الحكم إلى غير بدل بقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(٣).

ثانياً- النسخ إلى بدل:

(١) سورة المجادلة: ١٢.

(٢) سورة المجادلة: ١٣.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧.

وهو نسخ الحكم الثابت بحكم آخر بدل عنه، وينقسم إلى ثلاثة أقسام^(١):

١- النسخ إلى بدل أخف منه:

ومن أمثله:

نسخ الاعتداد بالحوال للمتوفى عنها زوجها في قوله تعالى: ﴿مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾^(٢) بحكم أخف منه بالاعتداد بأربعة أشهر وعشرة أيام، بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(٣).

٢- النسخ إلى بدل مساوٍ له ثقلاً وخفة:

ومن أمثله:

نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة، ولا خلاف بين العلماء على جواز هذين النوعين عقلاً ووقوعها سمعاً^(٤).

٣- النسخ إلى بدل أثقل.

ومن أمثله:

(١) ينظر: الأحكام: للآمدني: ٣/١٥٠، والمحصول: للرازي: ٥٤٦، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٣١٨.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٠.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٤.

(٤) ينظر: الأحكام: للآمدني: ٣/١٥١، واللمع: للشيرازي: ١٧١، وأصول السرخسي: ٦٢/٢، والأحكام:

لابن حزم: ٤/٤٦٦.



١- أن الله **عَزَّوَجَلَّ** نسخ إباحة الخمر بتحريمها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ^(١).

٢- أن الله **عَزَّوَجَلَّ** فرض على المسلمين أولاً صوم يوم عاشوراء، ثم نسخه بفرض رمضان بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ^(٢).



(١) سورة المائدة: ٩٠.

(٢) سورة البقرة: ١٨٥.

الفصل السابع

المحكم والمتشابه

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف المحكم والمتشابه.

المبحث الثاني: أقسام المتشابه.

المبحث الثالث: الحكمة من وجود المتشابه.

المبحث الرابع: معرفة المتشابه وسبب الاختلاف فيه.



المبحث الأول تعريف المحكم والمتشابه



وفيه مسألتان:

المسألة الأولى - المحكم والمتشابه في اللغة:

المحكم لغة: المنع والإتقان، يقال: أحكم الأمر أي أتقنه ومنعه من الفساد، وكل من منعه من شيء فقد حكّمه وأحكّمته، يقال: حكمت السفينة وأحكّمته: إذا أخذت على يديه، وحكمت الدابة وأحكّمته: إذا جعلت لها حكمة وهي ما أحاط بالحنك من اللجام؛ لأنها تمنع عن الاضطراب، وإحكام الشيء إتقانه، والمحكم المتقن، والمحكم اسم مفعول من أحكم أي أتقن يقال بناءً محكم أي متين^(١).

إما المتشابه لغة: المتماثل، وهو أن يشبه أحد الشئيين الآخر، يقال: أشبهت فلاناً وشابهه واشتبه عليّ وتشابه الشيطان واشتبهها أي أشبه كل واحد منهما صاحبه، وفي التنزيل ﴿مُتَشَبِّهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهٍ﴾^(٢)، والمتشبهات من

(١) ينظر: لسان العرب: لابن منظور: ١٢/١٤٤، مادة (حكم)، والمفردات في غريب القرآن: للراغب

الأصفهاني: ١٢٦، والمصباح المنير: للفيومي: ١/١٤٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٤١.

الأمر المشكلات، والمتشابهات المتماثلات، وشبه عليه: خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره^(١).

والقرآن الكريم كله محكم: باعتبار أنه متقن في نظمه وأسلوبه وأحكامه؛ لأن الله **عَزَّوَجَلَّ** صاغه صياغة تمنع أن يتطرق إليه الخلل أو الفساد في اللفظ والمعنى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ آيَاتِهِ﴾^(٢).

وهو متشابه كله أيضاً: باعتبار أنه متماثل في فصاحته وبلاغته، وحلاوته وطلاوته؛ لأنه يماثل بعضه بعضاً في هذه الأحكام، مماثلة مفضية إلى التباس التمييز بين آياته وكلماته، ولهذا قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾^(٣).

وبعضه محكم وبعضه متشابه: باعتبار أن من القرآن ما اتضحت دلالاته على مراد الله تعالى منه، ومنه ما خفيت دلالاته على هذا المراد الكريم، فالأول هو المحكم والثاني هو المتشابه، على خلاف في ذلك بين العلماء كما سنبينه

(١) ينظر: لسان العرب: ١٣/٥٠٤، مادة (شبه)، والمفردات في غريب القرآن: للراغب: ٢٥٤، والمصباح

المنير: للفيومي: ١/٢٠٤.

(٢) سورة هود: ١.

(٣) سورة الزمر: ٢٣.



ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ

هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴿١﴾ .

المسألة الثانية- المحكم والمتشابه في الاصطلاح:

إن العلماء اختلفوا في تحرير معنى المحكم والمتشابه على عدة أقوال نذكر بعضها:

١- المحكم ما كانت دلالاته راجحة، ويدل على معناه بوضوح وهو النص والظاهر أما المتشابه فهو ما كانت دلالاته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل.

٢- المحكم هو الواضح الدلالة الظاهر الذي لا يحتمل النسخ، والمتشابه هو الخفي الذي لا يدرك معناه عقلاً ولا نقلاً، وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة، والحروف المقطعة في أوائل السور.

٣- المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً من التأويل، والمتشابه هو ما استأثر الله تعالى بعمله.

٥- المحكم هو الواضح المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال مأخوذ من الإحكام وهو الإتقان، والمتشابه نقيضه.

هذه هي أهم الأقوال التي قيلت في معنى المحكم والمتشابه^(١).

(١) ينظر: المحصول: للرازي: ٣١٧/١، مفاتيح الغيب: للرازي: ١٤٧/٧-١٤٨، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٦٥، والبرهان: للزرکشي: ٧٠/٢، والإتقان: للسيوطي: ٢٣٨-٢٣٩، ومناهل العرفان: للزرقاني: ١٦٩-١٧٢، ومباحث في علوم القرآن: للقطان: ١٩٣، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٣٩٣-٣٩٤.



وهذه الأقوال متقاربة متشابهة ليس بينها تناقض ولا تعارض، إلا أن القول الأول فيما يبدو أوضحها؛ لأن أمر الأحكام والتشابه يرجع إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه وإلى عدم وضوحه، وهذا القول مانع جامع من هذه الناحية لا يدخل في المحكم ما كان خفياً ولا في المتشابه ما كان جلياً، إضافة إلى أن هذا القول ارتضاه كثير من المحققين^(١).



(١) منهم الرازي في المحصول: ٣١٧، والزرقاني في مناهل العرفان: ١٧٢/٢، وصبيحي الصالح في مباحث في علوم القرآن: ٢٨٢، وغيرهم.

المبحث الثاني أقسام المتشابه



التشابه في بعض آيات القرآن الكريم ثلاثة أقسام:

الأول - التشابه من جهة اللفظ:

وهو ما كان خفاء معناه ناشئاً من جهة اللفظ وهو نوعان:

أ- تشابه لفظي يرجع إلى المفردات:

إما لغرابتها وقلة استعمالها مثل: ﴿وَفَكِهَةٌ وَأَبَاً﴾^(١) وبقوله: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾^(٢) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٣) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ﴾^(٤) كما روي عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: «لا أدري ما الأواه وما الغسيلين»^(٥).

وإما لجهة الاشتراك اللفظي كالقراء في قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٍ﴾^(٦)؛ حيث يطلق على الحيض والطهر، ومثل عسعس في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَّعَسَ﴾^(١) فإنه يطلق على إقبال الليل وإدباره.

(١) سورة عبس: ٣١.

(٢) سورة الصافات: ٩٤.

(٣) سورة التوبة: ١١٤.

(٤) سورة الحاقة: ٣٦.

(٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور ج ٣ ص ١٥٩.

(٦) سورة البقرة: ٢٢٨.



ب- تشابه لفظي يرجع إلى التركيب للألفاظ وهي الجمل:

وهو ثلاثة أقسام:

أحدها- لاختصار الكلام كقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا﴾^(٢) والمعنى ألا تقسطوا في اليتامى إذا تزوجتموهن.

ثانيها- بسط الكلام كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣) ففي ذكر الكاف بسط للكلام، ولو قال ليس شيء لظهر المعنى، فاشتبه المراد بذكرها مع ظهور المعنى بدونها.

ثالثها- نظم الكلام كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ قَيِّمًا﴾^(٤) فجاءت جملة: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾^(٥) فاصلة بين الصفة والموصوف وأصل الكلام: أنزل على عبده الكتاب قيما، ولم يجعل له عوجا. وكقوله: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۗ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(٦) ففصل بين المصدر ومعموله وأصل الكلام وإنه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر.

الثاني - التشابه من جهة المعنى:

(١) سورة التكويد: ١٧.

(٢) سورة النساء: ٣.

(٣) سورة الشورى: ١١.

(٤) سورة الكهف: الآيتين ١، ٢.

(٥) سورة الكهف: ١.

(٦) سورة الطارق: ٨-٩.

ويتعلق هذا النوع بالغيبيات؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يتصور ما غاب عن حواسه على حقيقته، فالتخيل والتصور عنده لا يتعد عن المحسوسات، فلا تدرك^(١) صفات الله تعالى ولا ما في الجنة من النعيم، ولا ما في النار من عذاب إلا على سبيل التقريب.

الثالث - التشابه من جهة اللفظ والمعنى:

وهو خمسة أنواع:

- الأول -** من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).
- الثاني -** من جهة الكيفية كالوجوب والندب، كقوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا﴾^(٣).
- الثالث -** من جهة الزمان؛ كالناسخ والمنسوخ؛ نحو قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(٤).
- الرابع -** من جهة المكان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾^(٥) وكقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾^(٦) فإن من لا يعرف عادة أهل الجاهلية في ذلك يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

(١) المفردات: الأصفهاني ص ٢٥٥، عمدة الحفاظ: السمين ج ٢ ص ١٢٩٩، وانظر المحكم والمتشابه: د. عبد

الرحمن المطرودي ص ٦٩.

(٢) سورة التوبة: ٥.

(٣) سورة النساء: ٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٥) سورة البقرة: ١٨٩.

(٦) سورة التوبة: ٣٧.



الخامس- من جهة الشروط التي يصح بها الفعل أو يفسد كشرط الصلاة والنكاح^(١).

قال الراغب الأصفهاني: بعد ذكره لهذه الأقسام «وهذه الجملة إذا تصورت، علم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم»^(٢).



(١) انظر المفردات: الأصفهاني ص ٢٥٤، ٢٥٥، وعمدة الحفاظ: السمين ج ٢ ص ١٢٩٨، ١٣٠٠، والمحكم والمتشابه: المطرودي ٦٥، ٧٠.

(٢) المفردات: الأصفهاني ص ٢٥٥.

المبحث الثالث الحكمة من وجود المتشابه



ذكر العلماء أن لوجود المتشابه حكما عديدة منها^(١):

- ١- تحدي العرب، حيث إن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** احتج على العرب بالقرآن؛ إذ كان فخرهم ورياستهم بالبلاغة وحسن البيان، والاختصار والإطناب، وكان كلامهم على ضربين: أحدهما الواضح الموجز الذي لا يخفى على سامعه، ولا يحتمل غير ظاهره، والثاني: على المجاز والكنيات والإشارات والتلويحات، وهذا الضرب هو الأفضل عندهم الغريب من ألفاظهم البديع في كلامهم، فلما قرَّعهم سبحانه فعجزهم عن المعارضة بمثل سوره أو سورة منه؛ أنزله على الضربين؛ ليصح العجز منهم، وتتأكد الحجج ولزومها إياهم.
- ٢- في الآيات المتشابهة اختبار لموقف المؤمن الذي يتقبل ما جاء بهذه الآيات ويردها إلى عالمها في حالة العجز عن إدراك معناها، في حين أن المنافق يتخذ من المتشابهة سبيلاً إلى بث عقائده الفاسدة عن طريق التأويل الفاسد.

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: للرازي: ١٤٩/٧، والجامع لأحكام القرآن: للقرطبي: ١٩/٤، وزاد المسير: لابن الجوزي: ٣٥١/١، والبرهان: للزركشي: ٧٥-٧٦، والإتقان: للسيوطي: ٢/٢٦٥، ومناهل العرفان: للزرقاني: ١٧٨/٢-١٨٢، وأصول التفسير: لخالد العك: ٢٩٣-٢٩٥، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ١٩٠-١٩٢، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٠٦، وفي علوم القرآن دراسات ومحاضرات: عبد السلام كفاي: ١٢٩، والواضح في علوم القرآن: مصطفى البغا: ١٣٤.



- ٣- في المتشابه حث العلماء على التدبير والتأمل؛ فيطول بذلك فكرهم، ويظهر بالبحث عنه اهتمامهم، ولو أنزله كله محكمًا؛ لاستوى فيه العالم والجاهل، فشغل العلماء به ليعظم ثوابهم وتعلو منزلتهم.
- ٤- أنزل الله تعالى المتشابه؛ لتشتغل به قلوب المؤمنين، وتتعب فيه جوارحهم، وتنصرف في البحث عنه أوقاتهم، فيحوزوا من الثواب حسبما كابدوا من المشقة.
- ٥- وجود المتشابه في القرآن الكريم، يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة، مثل اللغة والنحو وأصول الفقه مما يعينه على النظر والاستدلال، فكان وجود المتشابه سببًا في تحصيل علوم كثيرة.
- هذه هي أهم الحكم التي ذكرها العلماء من وجود المتشابه وهناك حكم أخرى تركناها؛ لأنها متداخلة فيما ذكرنا.



المبحث الرابع معرفة المتشابه وسبب الاختلاف فيه



وفيه مسألتان:

المسألة الأولى - معرفة المتشابه^(١):

اختلف العلماء في المتشابه؛ هل يمكن معرفته أم لا؟ والحقيقة أنه ينقسم من حيث إمكانية معرفته وعدمها إلى ثلاثة أنواع هي:

الأول - المتشابه الحقيقي:

وهذا النوع لا يعلمه أحد من البشر، ولا سبيل للوقوع عليه؛ كوقت قيام الساعة، وحقيقة الروح وغير ذلك من الغيبات التي اختص الله بعلمها.

الثاني - المتشابه الإضافي:

وهو ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر، فإذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه؛ كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغلقة، والتي تحتاج إلى استنباط وتدبر، وبعض مسائل الإعجاز العلمي^(٢).

الثالث - المتشابه الخفي:

(١) انظر: الموافقات: الشاطبي ج ٣ ص ٩١، ٩٣.

(٢) انظر التحرير والتنوير ج ٣ ص ١٥٧ و ١٥٩ لبيان وجه كون الإعجاز العلمي من المتشابه عند قوم ومحكم عند من بعدهم.



وهو ضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه في دعوة الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لابن عباس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**: «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(١).

المسألة الثانية - سبب الاختلاف في معرفة المتشابه:

ويرجع بعض الباحثين السبب في الاختلاف في معرفة المتشابه إلى الاختلاف في الوقف في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾^(٢) وهذا ليس بصحيح؛ إذ إن الوقف أو الوصل مبني على الاختلاف في معنى التأويل. فسبب الاختلاف إذاً في معرفة المتشابه هو الاختلاف في المراد بالتأويل في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٣).

وفيه قولان:

القول الأول - أن التأويل بمعنى التفسير:

وعلى هذا فالتأويل يعلمه الراسخون في العلم. ومنه دعوة الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لابن عباس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**: «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(٤).

(١) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٥٢٩ / ١٥) برقم: (٧٠٥٣)، (٥٣١ / ١٥) برقم: (٧٠٥٥) والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٦٩ / ١٠) برقم: (١٦٦)، (٢٢١ / ١٠) برقم: (٢٣٣)، (١٠ / ١٠) برقم: (٢٢٢)، (٢٣٤)، (١٠ / ٢٢٢) برقم: (٢٣٥)، (١٢ / ١٠٠) برقم: (١١٧)، (١٣ / ١٩) برقم: (١٨) والحاكم في "مستدرکه" (٥٣٤ / ٣) برقم: (٦٣٣٦)، (٣ / ٥٣٧) برقم: (٦٣٤٤) والنسائي في "الكبرى" (٧ / ٣٢١) برقم: (٨١٢١) وأحمد في "مسنده" (٢ / ٥٩١) برقم: (٢٤٣٤).

(٢) سورة آل عمران: ٧.

(٣) سورة آل عمران: ٧.

(٤) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٥٢٩ / ١٥) برقم: (٧٠٥٣)، (٥٣١ / ١٥) برقم: (٧٠٥٥) والضياء

وقول ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: «أَنَا مِمَّنْ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ»^(١) وقول مجاهد: «الراسخون في العلم يعلمون تأويله»^(٢) وقول ابن جرير الطبري: «واختلف أهل التأويل في هذه الآية» وقوله: «القول في تأويل قوله تعالى...» وهو أيضًا المعنى الذي قصده ابن قتيبة وأمثاله ممن يقول: إن الراسخون في العلم يعلمون التأويل ومرادهم به التفسير^(٣).

وهو قول متقدمي المفسرين وابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** ومجاهد، ومحمد بن جعفر بن الزبير، وابن إسحاق، وابن قتيبة، والربيع بن أنس، والضحاك، والنووي، وابن الحاجب^(٤).

وعليه فإن الوقف يكون على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(٥) وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد^(٦).

القول الثاني - أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الخطاب:

المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠ / ١٦٩) برقم: (١٦٦)، (١٠ / ٢٢١) برقم: (٢٣٣)، (١٠ / ٢٢٢) برقم: (٢٣٤)، (١٠ / ٢٢٢) برقم: (٢٣٥)، (١٢ / ١٠٠) برقم: (١١٧)، (١٣ / ١٩) برقم: (١٨) والحاكم في "مستدرکه" (٣ / ٥٣٤) برقم: (٦٣٣٦)، (٣ / ٥٣٧) برقم: (٦٣٤٤) والنسائي في "الكبرى" (٧ / ٣٢١) برقم: (٨١٢١) وأحمد في "مسند" (٢ / ٥٩١) برقم: (٢٤٣٤).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ج ٦ ص ٢٠٣ رقم ٦٦٣٢.

(٢) تفسير مجاهد ج ١ ص ١٢٢.

(٣) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية ج ٥ ص ٣٨١، ٣٨٢.

(٤) انظر درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية ج ١ ص ٢٠٥، والقطع والاستئناف: النحاس، ص ٢١٥، والإتقان: السيوطي ج ٢ ص ٤.

(٥) سورة آل عمران: ٧.

(٦) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١١.



فتأويل ما أخبر به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون في اليوم الآخر، وتأويل ما أخبر به عن نفسه هو نفسه المقدسة الموصوفة بصفاته العلية.

وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله، ولهذا كان السلف يقولون: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول» فيثبتون العلم بالاستواء، وهو التأويل الذي بمعنى التفسير، وهو معرفة المراد بالكلام حتى يتدبر، ويعقل، ويفقه، ويقولون: الكيف مجهول، وهو التأويل الذي انفرد الله بعلمه، وهو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو^(١).

وعليه فإن الوقف يكون على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾^(٢)، والواو للاستئناف، والراسخون مبتدأ، ويقولون خبره.

وقال بهذا القول نيف وعشرون رجلاً من الصحابة والتابعين والقراء والفقهاء وأهل اللغة، فمن الصحابة: عائشة وابن عباس وابن مسعود، وابن عمر، وأبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**.

وقال به من التابعين ثلاثة: الحسن وابن نهيك والضحاك، وقال به من الفقهاء مالك بن أنس، ومن القراء ثلاثة: نافع ويعقوب والكسائي، ومن النحويين: الأخفش وسعيد، والفراء وسهيل بن محمد، ويروى عن عمر بن عبد العزيز وعروة بن الزبير وأبي عبيد، وابن جرير، وأبي إسحاق، وابن كيسان، والسدي^(٣).

(١) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية ج ٥ ص ٣٨٢.

(٢) سورة آل عمران: ٧.

(٣) القطع والاستئناف: النحاس ص ٢١٢، ٢١٣، ودرء تناقض العقل والنقل: ابن تيمية ج ١ ص ٢٠٥، والإتقان

السيوطي ج ٢ ص ٤، وانظر تفسير ابن جرير الطبري، ج ٦ ص ٢٠٢، ٢٠٤، وفتح القدير: الشوكاني ج ١

ص ٣١٥.

روى البخاري ومسلم عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قالت: «تلا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^(١) إلى قوله: ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢) قالت: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله، فأحذروهم»^(٣).

ويدل على ذلك؛ أن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه، ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا إليه، كما مدح الله المؤمنين بالغيب»^(٤).

وقال ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ** عن هذا المعنى: إنه هو معنى التأويل في القرآن والمراد به في مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾^(٥) وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٦) وقال يوسف: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٧)، وقال

(١) سورة آل عمران: ٧.

(٢) سورة آل عمران: ٧.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ٣٣) برقم: (٤٥٤٧) ومسلم في "صحيحه" (٨ / ٥٦) برقم: (٢٦٦٥).

(٤) الإتيان: السيوطي ج ٢ ص ٤.

(٥) سورة الأعراف: ٥٣.

(٦) سورة النساء: ٥٩.

(٧) سورة يوسف: ١٠٠.

(٨) درء تعارض العقل والنقل ج ١ ص ٢٠٦.

عن هذا المعنى: إنه لغة القرآن التي نزل بها.. فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول إليه كما قال يوسف: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾^(١) وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٢) قالوا: أحسن عاقبة ومصيرًا، فالتأويل هنا تأويل فعلهم، الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة، والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا، والتأويل في الأعراف^(٣) ويونس^(٤) تأويل القرآن وكذلك في سورة آل عمران.

وقال تعالى في قصة موسى والعالم: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٥) إلى قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^(٦) فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها، ومن قتل الغلام، ومن إقامة الجدار، فهو تأويل عمل لا تأويل قول، وإنما كان كذلك؛ لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلا.. وقولهم: آل يؤول: أي عاد إلى كذا ورجع إليه، ومنه «المآل» وهو ما يؤول إليه

(١) سورة يوسف: ١٠٠.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

(٣) قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} سورة الأعراف: الآية ٥٣.

(٤) في قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس: ٣٩].

(٥) سورة الكهف: ٧٨.

(٦) سورة الكهف: ٨٢.

الشيء ويشاركه في الاشتقاق الأكبر «الموئل» فإنه من وأل، وهذا من أول، والموئل
المرجع، قال تعالى: ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ (٥٨) (١) (٢).

والحقيقة لا تعارض بين هذين القولين ولا اختلاف فالجميع يسلم بأن
الراسخين في العلم يعلمون تأويله بمعنى تفسيره، ومن زعم أنهم لا يعلمون تأويله
بمعنى تفسيره نازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله وقالوا
بأنهم يعلمون معناه (٣)، والراسخون في العلم لا يعلمون تأويله بمعنى الحقيقة التي
يؤول إليها الكلام، وبهذا يظهر التوافق والتطابق والتكامل بين القولين.



(١) سورة الكهف: الآية ٥٨.

(٢) مجموع فتاوي ابن تيمية ج ١٣ ص ٢٩٠، ٢٩١ باختصار.

(٣) درء تعارض العقل والنقل: ابن تيمية ج ١ ص ٢٠٨.



الفصل الثامن

القراءات

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف القراءات.

المبحث الثاني: شروط القراءة الصحيحة وأركانها.

المبحث الثالث: نشأة علم القراءات.

المبحث الرابع: نزول القرآن على سبعة أحرف.

المبحث الأول تعريف القراءات



وفيه مسألتان:

المسألة الأولى - القراءات في اللغة:

القراءات لغة: جمع قراءة، وهي مصدر قرأ قراءة وقرآنًا بمعنى: تلا تلاوة، وهي في الأصل بمعنى الجمع والضم، تقول: قرأتُ الماءَ في الحوض أي: جمعته فيه، وسمي «القرآن» قرآنًا؛ لأنه يجمع الآيات والسور ويضم بعضها إلى بعض^(١).

المسألة الثانية - القراءات في الاصطلاح:

عرّف العلماء القراءات بتعاريف كثيرة نذكرُ منها:

- ١- هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف أو كیفيتها، من تخفيف وتشديد وغيرهما^(٢).
- ٢- هو علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو النقلة^(٣).

(١) ينظر: الصحاح: للجوهري: ١/ ٥٠، ولسان العرب: لابن منظور: ٣/ ٤٢، مادة (قرأ)، ومجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى ١/ ١-٣.

(٢) ينظر: البرهان: للزركشي: ١/ ٣١٨، والإتقان: للسيوطي: ١/ ٢٢٨.

(٣) ينظر: منجد المقرئين ومرشد الطالبين: لابن الجزري: ٣.



٣- هو علم يعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالى واختلافهم في الحذف والإثبات والتحريك والتسكين والفصل والوصل، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال وغيره، من حيث السماع^(١).
إلى غيرها من التعاريف الأخرى^(٢).



(١) ينظر: إتحاف فضلاء البشر: للدمياطي: ١ / ٥.

(٢) ينظر أيضاً في تعريف القراءات: مناهل العرفان: للزرقاني: ١ / ٤٠٥، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان: ١٥٣، واللاكئ الحسان في علوم القرآن: موسى شاهين: ٩٠، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ٨٨، وفي علوم القرآن دراسات ومحاضرات: محمد عبد السلام كفاقي: ١٠٥، والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتاح عبد الغني: ٥١، والمهذب في القراءات العشر وتوجيهها: محمد محمد سالم محيسن: ٦.

المبحث الثاني شروط القراءة الصحيحة وأركانها



وضع علماء القراءات شروطاً لقبول القراءة، واعتبارها صحيحة، فإذا ما وافق المروي في القراءات هذه الشروط كان مقبولاً، وكانت هذه القراءة صحيحة، ولا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، أما إذا خالف المروي هذه الشروط، أو واحداً منها كانت القراءة ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة.

وهذه الشروط هي^(١):

أولاً- أن تكون القراءة صحيحة الإسناد؛ لأن القراءة سنة متبعة، يعتمد فيها على سلامة النقل، وصحة الرواية، فلا بد من أن يروي القراءة عدل ضابط عن مثله وهكذا إلى رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ومن غير شذوذ ولا علة قاذحة.

ثانياً- أن توافق رسم المصحف العثماني على الشكل الذي كتب في عهد الخليفة عثمان بن عفان **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** ولو احتمالاً، ولا يشترط في القراءة الصحيحة أن تكون موافقة لجميع المصاحف بل يكفي موافقتها لما ثبت في بعضها.

(١) ينظر: البرهان: للزركشي: ٣٣١ / ١، والنشر: لابن الجزري: ١ / ١٥، وفتح الباري: لابن حجر: ٣٢ / ٩، وغيث النفع في القراءات السبع: للسفاقي: ١٤، ومناهل العرفان للزرقاني: ١ / ٤١١، ومباحث في علوم القرآن: مناع القطان: ١٥٨، ومحاضرات في علوم القرآن: غانم قدوري: ١٥٧-١٦٥، ورسم المصحف دراسة لغوية تاريخية: غانم قدوري: ٦٣٢، والواضح في علوم القرآن: مصطفى البغا: ١٢٠، واللائي الحسان في علوم القرآن: موسى شاهين: ٩٧-١٠٠، والشامل في القراءات المتواترة: محمد حبش: ٤٥، والمهذب في القراءات العشر: محمد محمد سالم محيسن: ٢٧، ودراسات في علوم القرآن: عبد القهار داود العاني: ١١٥.



ثالثاً- موافقة القراءة للعربية ولو بوجه من الوجوه، سواء كان أفصح أم فصيحاً، مجتمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاها الأئمة بالإسناد الصحيح.

قال ابن الجوزي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة^(١) أم عن العشرة^(٢) أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة، أو باطلة...»^(٣).

وقال الشوكاني **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «والحاصل إن ما اشتمل عليه المصحف الشريف، واتفق عليه القراء المشهورون فهو قرآن، وما اختلفوا فيه فإن احتمل رسم المصحف قراءة كل واحد من المختلفين مع مطابقتها للوجه الإعرابي والمعنى العربي فهي قرآن كلها، وإن احتمل بعضها دون وبعض؛ فإن صح إسناد ما لم يحتمله وكانت موافقة للوجه الإعرابي والمعنى العربي فهي شاذة، ولها حكم

(١) القراء السبعة: هم نافع بن عبد الرحمن المدني ت (١٦٩ هـ)، وعبد الله بن كثير ت (١٢٠ هـ)، وأبو عمرو بن العلاء المازري البصري ت (١٥٤ هـ)، وعبد الله بن عامر اليحصبي ت (١١٨ هـ)، وعاصم بن أبي النجود الكوفي ت (١٢٧ هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات ت (١٥٦ هـ)، وعلي بن حمزة الكسائي ت (١٨٩ هـ)، وهؤلاء القراء قد اتفق العلماء على تواتر قراءتهم.

(٢) العشرة: هم القراء السبعة مضافاً إليهم، أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي ت (١٦٠ هـ)، ويعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي ت (٢٠٥ هـ) وخلف بن هشام البزار البغدادي ت (٢٢٩ هـ)، وقد اختلف العلماء في تواتر هذه القراءات الثلاث، والصحيح أنها متواترة، ينظر: الإتيان: للسيوطي: ٢٣٢/١، والقواعد والإشارات في أصول القراءات: للحموي: ٣٠/١، وإتحاف فضلاء البشر: للدماطي: ٩.

(٣) النشر: لابن الجزري: ١٥/١.

أخبار الآحاد في الدلالة على مدلولها، وسواء كانت من القراءات السبع أو من غيرها»^(١).

وعليه فالقراءة الصحيحة هي القراءة التي توافرت فيها هذه الأركان الثلاثة المتقدمة وبناءً عليها تعدّ الرواية قراءة قرآنية تصح القراءة بها في الصلاة وفي خارجها.

ومن هذا يتبين لنا أن القراءات القرآنية سنة متبعة ونقل محض نقلت عن رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ثم عن الصحابة والتابعين ثم تناقلتها أجيال المسلمين جيلاً عن جيل.



(١) إرشاد الفحول: للشوكاني: ٦٣.



المبحث الثالث نشأة علم القراءات



الأصل في نشوء علم القراءات هو قول النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَاقْرَؤُوا مِنْهُ مَا تيسَّرَ»^(١)، وقوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: «أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، كُلُّهُنَّ شَافٍ كَافٍ»^(٢)، ولأن العرب الذين أنزل عليهم القرآن الكريم كانوا مختلفي اللهجات، لذلك أنزل الله تعالى كتابه مشتملاً على لهجات العرب ليتمكنوا من قراءته، وينتفعوا بما فيه من أحكام وتشريعات، فأباح النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لأُمَّته القراءة بما شاءت من هذه الأحرف السبعة مع الإيمان بجميعها، والإقرار بكلها؛ لأنها جميعها منزلة من عند الله تعالى، ومنه **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** مأخوذة، ولو أنزله الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** على حرف واحد لصعب على الكثير من الداخلين في الإسلام أن يقرؤوه وينتفعوا به، وهذا يتنافى مع التيسير الذي طلبه النبي **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** لأُمَّته بقوله: «أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي»^(٣). وكذلك قوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** عندما جاءه جبريل **عَلَيْهِ السَّلَامُ** فقال له: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ ثُمَّ قَالَ: عَلَى حَرْفَيْنِ، ثُمَّ قَالَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ. فَكَانَ **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** يَجِيبُ فِي كُلِّ

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٢٢ / ٣) برقم: (٢٤١٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢ / ٢٠٢) برقم: (٨١٨).

(٢) سنن النسائي ١٥٣ / ٢ رقم الحديث (٩٤٠). إسناده صحيح. الأحاديث المختارة ٣ / ٣٣٦ رقم الحديث (١١٣٠).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ٢٠٢) برقم: (٨٢٠).

مرة: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»^(١). وذلك لأن الإنسان يتعذر عليه أن يتحول من لهجته التي درج عليها ومرن لسانه على التخاطب بها منذ نعومة أظفاره، وصارت طبيعة من طباعه، وسجية من سجايه، حتى لا يمكنه التخلي عنها، وكان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقرئ أصحابه القرآن على الأحرف السبعة التي نزله الله تعالى بها.

وكما جاء في حديث عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه قال: «سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأَهَا - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أَقْرَأْنِيهَا - فَكَدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَهَلْتُهُ حَتَّى أَنْصَرَفَ. ثُمَّ لَبَّيْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتِنِيهَا!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: أَرْسَلُهُ. أَقْرَأَ فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: هَكَذَا أَنْزَلْتُ ثُمَّ قَالَ لِي: أَقْرَأْ، فَقَرَأْتُ فَقَالَ: هَكَذَا أَنْزَلْتُ. إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَيَّ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ، فَأَقْرَأُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ»^(٢).

فلذلك اختلف أخذ الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذا الحال، مما أدى إلى اختلاف أخذ التابعين عنهم، ولما كان فتح أرمينية وأذربيجان في خلافة عثمان بن عفان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** واجتمع المسلمون في الجيش من الأمصار، وكان كل مصر يقرأ بقراءة من استقر عندهم من الصحابة، فاختلفوا في القرآن، وفي قصة هذا الاختلاف روى الإمام البخاري

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ٢٠٢) برقم: (٨٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣ / ١٢٢) برقم: (٢٤١٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢ / ٢٠٢) برقم:

(٨١٨).



رَحْمَةُ اللَّهِ فِي صَحِيحِهِ: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ: «أَنَّ حُدَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ، وَكَانَ يَغَارِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ إِرْمِينِيَّةَ^(١) وَأَذْرَبِيجَانَ^(٢) مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْرَعَ حُدَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُدَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكُ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ، اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسُخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكَ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنَ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَارْتَبِعُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أَفْقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ»^(٣).

(١) اسم لصقع عظيم في جهة الشمال.. قيل هما إرمينتان، وقيل: ثلاث، وقيل: أربع، وقد أطال الحموي في

وصفها، وكانت هي بأيدي الروم حتى جاء الإسلام، انظر معجم البلدان: ١٥٩-١٦١.

(٢) ذكر الحموي في ضبطها أربعة أقوال: أذربيجان، أذربيجان، أذربيجان، وأذربيجان، معناها: بيت النار بالفارسية، أو خازن النار، إقليم وساع، وصُفَّع جليل، وملكة عظيمة، من مدنها: تبريز، الغالب عليها الجبال، ذات قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه جمّة، وبساتين كثيرة ومياه وافرة وعيون حارية، فتحت أيام عمر بن الخطاب فولى عليها الحذيفة بن اليمان، ثم عزله وولى عليها عتبة بن فرقد، ثم لما عزل عثمان بن عفان عتبة بن فرقد نقضوا، فغزاهم الوليد بن عقبة سنة خمس وعشرين، ثم صالح أهلها على صلح حذيفة، انظر: معجم البلدان للحموي: ١٢٨-١٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤ / ١٨٠) برقم: (٣٥٠٦) (كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان قريش)، (٦ / ١٨٢) برقم: (٤٩٨٤) (كتاب فضائل القرآن، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب)، (٦ / ١٨٣) برقم: (٤٩٨٧) (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن).

فكان أهل كل مصر يقرؤون بما في مصحفهم، فلما كثر القراء وتفرقوا في البلاد وانتشروا، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهور بالرواية والدراية، ومنهم دون ذلك، فكثر الاختلاف وقل الضبط، وكاد الباطل أن يلتبس بالحق، فقام جهابذة العلماء فبالغوا في الاجتهاد، وجمعوا الحروف والقراءات، وميزوا بين المتواتر والصحيح والشاذ، ووضعوا القواعد والأصول لذلك، حتى وصل الأمر إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا بالقراءات وانقطعوا إليها يضبطونها ويعتنون بها، فعرفت هذه القراءات بأسمائهم ونسبت إليهم، وهذه النسبة نسبة تمييز فقط لا نسبة إنشاء^(١).



(١) ينظر: الأحرف السبعة، الداني أبو عمرو (٤٤٤ هـ)، تحقيق: عبد المهيمن طحان، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٨، ٤٦/١، ومناهل العرفان ١/٤١٠، والتيسير الوافي في التجويد الكافي، جمال محمود حميد الكبيسي، شركة الخنساء للطباعة، بغداد، ٢٠٠٢م، ص ١٠-١١.



المبحث الرابع نزول القرآن على سبعة أحرف



وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى - الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف:

لقد وردت جملة من الأحاديث تدل على نزول القرآن على سبعة أحرف،

ومن هذه الأحاديث:

- ١ - عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأُهَا - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأُهَا - فَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَهَلْتُهُ حَتَّى انصَرَفَ. ثُمَّ لَبَّيْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتُهَا!! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرْسَلَهُ. اقْرَأْ فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَكَذَا أَنْزَلْتُ ثُمَّ قَالَ لِي: اقْرَأْ، فَقَرَأْتُ فَقَالَ: هَكَذَا أَنْزَلْتُ. إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣ / ١٢٢) برقم: (٢٤١٩)، ومسلم في "صحيحه" (٢ / ٢٠٢) برقم:

٢- عن ابن عباس **رضي الله عنهما**: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صلى الله عليه وسلم** قَالَ: «أَقْرَأَنِي جَبْرِيلُ **عليه السلام** عَلَى حَرْفٍ، فَرَأَجَعْتُهُ. فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ فَيَزِيدُنِي، حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ»^(١).

وفي صحيح مسلم بزيادة: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: «بَلَّغَنِي أَنَّ تِلْكَ السَّبْعَةَ الْأَحْرَفُ إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يَكُونُ وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ فِي حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ»^(٢).

٣- عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرَ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ. فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ **صلى الله عليه وسلم**، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرَ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ. فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وسلم** فَقَرَأَ فَحَسَّنَ النَّبِيُّ **صلى الله عليه وسلم** شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وسلم** مَا قَدْ عَشِينِي ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفَضْتُ عِرْقًا وَكَأَنَّمَا أَنْظَرُ إِلَى اللَّهِ **عز وجل** فَرَقًا، فَقَالَ لِي: يَا أَبُي، أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ: أَقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ. فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّلَاثَةَ: أَقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَلِكْ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةً تَسْأَلُنيهَا. فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّلَاثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمَ **صلى الله عليه وسلم**.^(٣)

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١١٣ / ٤) برقم: (٣٢١٩)، (١٨٤ / ٦) برقم: (٤٩٩١) ومسلم في

"صحيحه" (٢ / ٢٠٢) برقم: (٨١٩).

(٢) صحيح مسلم ٥٦١ / ١ رقم الحديث (٨١٩).

(٣) صحيح مسلم ٥٦١ / ١ رقم الحديث (٨٢٠).

٤ - عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ أَصَاةِ بَنِي غِفَارٍ. قَالَ: فَاتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ. ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ فَايَّمَا حَرْفٍ قَرُّوْا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا» (١).

٥ - عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أُبَيُّ إِنِّي أُقِرْتُ الْقُرْآنَ، فَقِيلَ لِي عَلَى حَرْفٍ أَوْ حَرْفَيْنِ، فَقَالَ الْمَلِكُ الَّذِي مَعِيَ: قُلْ عَلَى حَرْفَيْنِ، قُلْتُ: عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقِيلَ لِي عَلَى حَرْفَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ الْمَلِكُ الَّذِي مَعِيَ: قُلْ عَلَى ثَلَاثَةٍ، قُلْتُ: عَلَى ثَلَاثَةٍ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ، ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ مِنْهَا إِلَّا شَافٍ كَافٍ، إِنْ قُلْتَ سَمِيعًا عَلِيمًا عَزِيزًا حَكِيمًا مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ» (٢).

٦ - عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ، إِنِّي بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ مِنْهُمْ الْعَجُوزُ وَالشَّيْخُ الْكَبِيرُ

(١) صحيح مسلم ١/٥٦٢ رقم الحديث (٨٢١).

(٢) سنن أبي داود ٢/٧٦ رقم الحديث (١٤٧٧). إسناده صحيح. الأحاديث المختارة ٣/٣٧٩ رقم الحديث

وَالْغُلَامُ وَالْجَارِيَةُ وَالرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الْقُرْآنَ
أُنزِلَ عَلَيَّ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ^(١).

(١) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٣ / ١٤) برقم: (٧٣٩) والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٣ / ٣٧٣) برقم: (١١٦٨)، (٣ / ٣٧٣) برقم: (١١٦٩) والترمذي في "جامعه" (٥ / ٦٠) برقم: (٢٩٤٤) وأحمد في "مسنده" (٩ / ٤٩٣٥) برقم: (٢١٥٩٥)، (٩ / ٤٩٣٦) برقم: (٢١٥٩٦) والطيالسي في "مسنده" (١ / ٤٣٩) برقم: (٥٤٥) والبزار في "مسنده" (٧ / ٣١١) برقم: (٢٩٠٩) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٥ / ٥٠٩) برقم: (٣٠٧٥٢) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.



المسألة الثانية - حِكْمُ نَزْوِلِ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ:

١ - التيسير على الأمة الإسلامية بأجمعها:

جاء في الحديث المذكور آنفاً عندما قال جبريل **عَلَيْهِ السَّلَامُ** للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ**، ثم على حرفين، ثم على ثلاثة أحرف، وفي كل ذلك يقول **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: **«أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»**، إلى أن قال: **«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأْتَهُ عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا»**.

يدل ذلك أن الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف هي التيسير على الأمة الإسلامية بأجمعها، وخصوصاً من نزل فيهم القرآن الكريم، إذ أنه كان مجتمعاً يغلب عليه طابع الأمية، كما بين ذلك قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾**^(١)، وكذلك قوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** كما في الحديث الذي سبق ذكره: **«يَا جِبْرِيلُ إِنِّي بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيِّينَ: مِنْهُمْ الْعَجُوزُ، وَالشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْغُلَامُ، وَالْجَارِيَةُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ»**^(٢)، وقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: **«إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ الشَّهْرَ هَكَذَا وَهَكَذَا يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ»**^(٣)، وقد كانت القبائل العربية كثيرة وكان بينها اختلاف في اللهجات، فلو

(١) سورة الجمعة، من الآية (٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (٣ / ١٤) برقم: (٧٣٩) والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٣ / ٣٧٣) برقم: (١١٦٨)، (٣ / ٣٧٣) برقم: (١١٦٩) والترمذي في "جامعه" (٥ / ٦٠) برقم: (٢٩٤٤) وأحمد في "مسنده" (٩ / ٤٩٣٥) برقم: (٢١٥٩٥)، (٩ / ٤٩٣٦) برقم: (٢١٥٩٦) والطيالسي في "مسنده" (١ / ٤٣٩) برقم: (٥٤٥) والبخاري في "مسنده" (٧ / ٣١١) برقم: (٢٩٠٩) وابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٥ / ٥٠٩) برقم: (٣٠٧٥٢) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: {لا نكتب ولا نحسب}، رقم

أخذت كلها بقراءة القرآن على حرف واحد لشق ذلك عليها^(١).
قال ابن الجزري: «وإن سبب وروده على سبعة أحرف هو التخفيف على
هذه الأمة، وإرادة التيسير بها والتهوين عليها، شرفاً لها وتوسعة ورحمة، وإجابة
لقصد نبينا أفضل الخلق. وقال: وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم كانت
لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها،
أو من حرف إلى آخر؛ بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم
والعلاج، ولا سيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتاباً، كما أشار إليه النبي
صلى الله عليه وسلم»^(٢).

٢- الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم:

في اختلاف القراءات نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز، وغاية الاختصار،
وجمال الإيجاز، إذ إن قراءة كل كلمة مختلفة هي بمثابة قراءة آية؛ لأن تنوع
اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف
ما في ذلك من التطويل^(٣).

٣- نيل الأجر والثواب:

إعظام أجور الأمة لتبعمهم معاني الكلمات المختلفة، واستنباط الحكم

الحديث (١٨١٤)، وصحيح مسلم ٧٦١/٢ رقم الحديث (١٠٨٠)، وسنن أبي داود ٢٩٦/٢ رقم الحديث

(٢٣١٩)، وسنن أبي النسائي ١٣٩/٤ رقم الحديث (٢١٤٠)، و١٤٠/٤ رقم الحديث (٢١٤١).

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٤٧.

(٢) تقريب النشر في القراءات العشر ص ٥٨.

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد الدمشقي ابن الجزري أبو الخير (ت ٨٣٣ هـ)، تقديم:

علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٢ م، ١/٤٧.



والأحكام من دلالة كل لفظ من هذه الألفاظ، وبيان صوابه، وإتقان تجويده
فحموه من الخلل والتحريف، وهذا يبين فضل هذا الأمة على سائر الأمم^(١).

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد الدمشقي ابن الجزري أبو الخير (ت ٨٣٣ هـ)، تقديم:
علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ١/٤٧.

المسألة الثالثة - معنى الأحرف السبعة:

لم يأت نص صريح عن رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ولا عن أحد الصحابة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ** ينص على ماهية الحروف السبعة ولا معناها، ولهذا السبب اختلف العلماء فيها على أقوال كثيرة حتى ذكر بعضهم أن أوجه الخلاف بينهم وصلت إلى خمسة وثلاثين وجهًا، وبلغ بها آخرون أربعين قولاً^(١).

قال ابن العربي «لم يأت في معنى هذا السبع نص ولا أثر واختلف الناس في تعيينها»^(٢).

وفيما يأتي أشهر الأقوال فيها:

القول الأول: إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد، بمعنى أنها لغات مختلفة في كلمة واحدة باتفاق المعاني نحو أقبل، وتعال، وهلم، وعجل، وأسرع، أي أنه إذا اختلفت لغات العرب في التعبير عن معنى من المعاني ينزل القرآن بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد، وإذا اتفقت فإنه يأتي بلفظ واحد أو أكثر. واختلفوا في تحديد هذه اللغات، ف قيل: هي لغات: قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وكنانة، وتميم، واليمن. وقيل: قريش، وهذيل، وتميم، والأزد، وربيعه، وهوازن، وسعد بن بكر^(٣).

وعلى هذا القول الكثير من أهل العلم كسفيان بن عيينة، والطبري والطحاوي، وغيرهم، ودليلهم في هذا ما جاء في حديث أبي **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: «فقال المَلِكُ الذي مَعِيَ: قُلْ: على ثلاثة، قلت: على ثلاثة، حتى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرَفٍ، ثُمَّ

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٢، ومباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص ١٠٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢١٢.

(٣) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٥٨، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١/ ٢٠.



قال: ليس منها إلا شافٍ كافٍ إن قلت: سَمِيْعًا، عَلِيْمًا، عَزِيْزًا، حَكِيْمًا، ما لم تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أو آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ»^(١).

قال القاضي ابن الطيب راداً على هذا الرأي: «وإذا ثبتت هذه الرواية حمل على أن هذا كان مطلقاً، ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسماً لله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه، أو يخالف»^(٢).

وذهب بعض العلماء إلى: أن من قال إن المراد بالأحرف السبعة هو تبديل خواتيم الآيات بأن يجعل مكان غفور رحيم، سميع بصير، وغيره بأن هذا فاسد لإجماع الأمة على منع تغيير شيء من القرآن^(٣).

قلت:

١- لا يجوز إبدال شيء من القرآن الكريم، أو زيادة، أو نقص فيه باجتهاد من أحد؛ لأن هذا يعد من قبيل التحريف فيه؛ ولأن القرآن كله سور، وآيات، وكلمات توقيف من الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**.

٢- لم يرد دليل على تغيير لفظ في القرآن بلفظ مختلف معه في الرسم متفق في المعنى، إلا ما جاء في بعض القراءات الشاذة مثل قراءة ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾^(٤)، وقراءة ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: ﴿كَالْصُوفِ الْمَنْفُوشِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ

(١) ينظر: الإتيان في علوم القرآن ١/١٥٨، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٧٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١/٤٣.

(٣) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/١٠٠.

(٤) سورة الكهف، من الآية (٧٩).

كَأَلْهِنَّ الْمَنْفُوشِ ﴿١﴾، وهذا لا يثبت به شيء؛ لأن القرآن لا يثبت إلا

بالتواتر.

القول الثاني: إن المراد بها سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، فالقرآن لا

يخرج في كلماته عن سبع لغات هي أفصح لغاتهم، فهو يشتمل في مجموعه على

اللغات السبعة، أي أن هذه الأحرف السبعة متفرقة في القرآن الكريم، وهذه اللغات

هي لغة قريش، وهذيل، وثقيف، وهوازن، وكنانة، وتميم، واليمن، فبعضه بلغة

قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وهكذا في بقية اللغات السبعة^(٢).

أجيب عن هذا الرأي: بأن في القرآن الكريم ألفاظاً كثيرة نزلت بلغات قبائل

غير السبعة التي عدوها، ومن أمثلة ذلك: كلمة ﴿سَمِيدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ

سَمِيدُونَ﴾^(٣) فهي باللغة الحميرية، وكلمة ﴿خَمْرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرْنِي

أَعَصِرُ خَمْرًا﴾^(٤)، فإنها نزلت بلغة أهل عمان لأنهم يسمون العنب خمرًا، وكلمة

﴿بَعْلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا﴾^(٥)، فإنها بلغة أزد شنوءة، وغيرها الكثير

من الكلمات، حتى عد بعض العلماء اللغات التي نزل بها القرآن الكريم إلى

أربعين لغة^(٦).

(١) سورة القارعة، الآية (٥).

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ١/١٥٩، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٨١.

(٣) سورة النجم، الآية (٦١).

(٤) سورة يوسف، من الآية (٣٦).

(٥) سورة الصافات، من الآية (١٢٥).

(٦) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ٢/٤١٦-٤١٧، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٨٢.



القول الثالث: المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه من الأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، والجدل، والقصص، والمثل، أو من الأمر، والنهي، والحلال، والحرام، والمحكم، والمتشابه، والأمثال.

وقد خطأ بعض العلماء هذا القول؛ لإجماع المسلمين على تحريم إبدال آية بآية، أي إذا قلنا: إن الأحرف السبعة هي هذه الأوجه التي ذكرت وهي: الأمر والنهي إلى آخره، فإنهم يجوزون إبدال آية أمثال آية أحكام وغيرها، وهذا غير جائز؛ لأنه يدخل في باب التحريف^(١).

القول الرابع: المراد بها وجوه التغير السبعة التي يقع فيها الاختلاف، وهذا مذهب الإمام الرازي^(٢) وهذه الوجوه هي^(٣):

١- اختلاف الأسماء بالإنفراد والتذكير وفروعهما (التثنية، والجمع، والتأنيث)، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٤) بالجمع والإنفراد.

﴿لَأَمْنَتِهِمْ﴾ و ﴿لَأَمَانَتِهِمْ﴾، قراءتان متواترتان، حيث قرأ ابن كثير، ووافقه ابن محيصر من أصحاب القراءات الشاذة بالإنفراد: ﴿لَأَمَانَتِهِمْ﴾، وقرأ الباقون بالجمع: ﴿لَأَمْنَتِهِمْ﴾^(٥).

(١) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ١٠٠.

(٢) ينظر: ملحق الأعلام، ت (٧٨).

(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/ ٢٩، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٥٦-١٥٨.

(٤) سورة المؤمنون، الآية (٨).

(٥) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢/ ٢٨١.

٢- اختلاف تصريف الأفعال من ماضٍ، ومضارع، وأمر، كقوله تعالى:

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾^(١)، قرأت: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ برفع

لفظ ربنا، وتضعيف العين في لفظ بعد.

قرأت: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ﴾ و﴿رَبَّنَا بَاعَدَ﴾ و﴿رَبَّنَا بَعَدَ﴾^(٢) وهي قراءات متواترة، فقرأ ابن

كثير، وأبو عمرو، وهشام بنصب ﴿رَبَّنَا﴾ على النداء، وكسر العين المشددة من

غير ألف: ﴿بَعْدَ﴾، وقرأ يعقوب بضم الباء في لفظ ﴿رَبَّنَا﴾، وبالألف وفتح العين:

﴿بَاعَدَ﴾، وقرأ الباقون بنصب ﴿رَبَّنَا﴾، وبالألف وكسر العين ﴿بَعْدَ﴾^(٣)

٣- الاختلاف في وجوه الإعراب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾

﴿٤﴾ بفتح الراء وضمها من ﴿يُضَارُّ﴾.

قرأت: بتشديد الراء مع الفتح ﴿يُضَارُّ﴾ وهي قراءة أصحاب القراءات

المتواترة جميعهم، ولأبي جعفر وجه ثان وهو بسكون الراء ﴿يُضَارُّ﴾،

وقرأت: بالضم ﴿يُضَارُّ﴾ وهي قراءة ابن محيصة وهي قراءة شاذة^(٥).

٤- الاختلاف في التقديم والتأخير، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَّ﴾^(٦)، قرأت:

﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَّ﴾.

(١) سورة سبأ، من الآية (١٩).

(٢) سورة سبأ: ١٩.

(٣) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢ / ٣٨٥-٣٨٦.

(٤) سورة البقرة، من الآية (٢٨٢).

(٥) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ١ / ٤٦٠.

(٦) سورة الرعد، من الآية (٣١).



وقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(١)، قرأت: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، بالبناء للمفعول في الأول، وللفاعل في الثاني، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾^(٢)، قرأت: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾. ﴿أَفَلَمْ يَأْسِ﴾، قراءة متواترة قرأ بها البزي - بخلاف عنه - بتقديم الهمزة على الياء، وقرأ الباقون بتقديم الياء على الهمزة ﴿أَفَلَمْ يَأْسِ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بيناء الأول للمفعول، والثاني للفاعل: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾. وقرأ الباقون بيناء الأول للفاعل، والثاني للمفعول ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(٤).

أما قراءة ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾، فهذه قراءة شاذة، ذكرها المفسرون بأنها قراءة أبي بكر الصديق **رضي الله عنه**^(٥).

٥- الاختلاف في الإبدال، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾^(٦)، قرأت: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾، الإبدال في كلمة ﴿نُنشِزُهَا﴾، حيث قرأت بالراء المهملة ﴿نُنشِزُهَا﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَطَلِّحْ مَنْضُودٍ﴾^(٧)، قرأت: ﴿وَطَلِّحْ مَنْضُودٍ﴾.

(١) سورة التوبة، من الآية (١١١).

(٢) سورة ق، من الآية (١٩).

(٣) ينظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ٢/١٦٢.

(٤) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢/٩٩.

(٥) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٦/١٦٠.

(٦) سورة البقرة، من الآية (٢٥٩).

(٧) سورة الواقعة، الآية (٢٩).

﴿نُنَشِّرُهَا﴾ و ﴿نُنَشِّرُهَا﴾، قراءتان متواترتان، قرأ بالزاي ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف، ووافقهم الأعمش. وقرأ الباقون بالراء. وقرأ الحسن بفتح النون وضم الشين (نُنَشِّرُهَا) (١).

(وَطَلَعِ مَنُضُودٍ) هذه قراءة شاذة، ذكرها السيوطي في تفسيره عن علي بن أبي طالب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه قرأ: (وَطَلَعِ مَنُضُودٍ) (٢).

٦- الاختلاف بالزيادة والنقص، كقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٣) قرأت: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بزيادة (من). وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾ (٤) قرأت: ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضْبًا وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٥) قرأت: ﴿وَالذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾، بنقص كلمة (ما خلق).

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ و ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، قرأ من غير (من) ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا﴾ جميع القراء، عدا ابن كثير، ووافقه ابن محيصة بوضع (من) فقرأ: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ (٦).

﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضْبًا وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾

(١) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ١/ ٤٤٩.

(٢) ينظر: الدر المنثور في التفسير المأثور ٨/ ١٣.

(٣) سورة التوبة، من الآية (١٠٠).

(٤) سورة الكهف، الآية (٧٩-٨٠).

(٥) سورة الليل، الآية (٣).

(٦) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢/ ٩٧.

هذه قراءة شاذة أخرجها الشيخان في صحيحيهما عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا، وَكَانَ يَقْرَأُ: وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنِينَ^(١).

(وَالذِّكْرُ وَالْأُنْثَى)، قراءة شاذة جاءت في الصحيحين عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: قَدِمْتُ الشَّامَ فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَاتَيْتُ قَوْمًا فَجَلَسْتُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا شَيْخٌ قَدْ جَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيَّ جَنِبِي، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَقُلْتُ: إِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُيسِّرَ لِي جَلِيسًا صَالِحًا، فَيَسِّرْكَ لِي، قَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، قَالَ: أَوْلَيْسَ عِنْدَكُمْ ابْنُ أُمِّ عَبْدِ، صَاحِبُ النَّعْلَيْنِ وَالْوَسَادِ وَالْمِطْهَرَةِ، وَفِيكُمْ الَّذِي أَجَارَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ سِرِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ غَيْرُهُ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ يَقْرَأُ عَبْدُ اللَّهِ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾^(٢) فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾^(٢) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى^(٣) . (وَالذِّكْرُ وَالْأُنْثَى) قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَقْرَأْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فِيهِ إِلَيَّ فِيَّ.^(٤)

٧- اختلاف اللهجات بالتفخيم والترقيق، والفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والهمز والتسهيل، والإشمام ونحو ذلك، كالفتح أو الإمالة في الألف

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٤ / ١٥٤) برقم: (٣٤٠١)، ومسلم في "صحيحه" (٧ / ١٠٣) برقم: (٢٣٨٠).

(٢) سورة الليل: ١.

(٣) سورة الليل: ١-٢.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٥ / ٢٥) برقم: (٣٧٤٢)، ومسلم في "صحيحه" (٢ / ٢٠٦) برقم:

المقصورة مثل: (عيسى، وموسى، وأتى، وبلى، ونحوها)، وترقيق الراء أو تفخيمها في مثل قوله تعالى: (خبيراً بصيراً، ونحوها)، وتحقيق الهمزة أو تسهيلها في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

القول الخامس: المراد بالأحرف السبعة، الوجوه التي يقع بها التغير في سبعة أشياء، وهو قول ابن قتيبة، وهذه الوجوه هي^(٢):

- ١- ما تتغير حركته، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾^(٣)، بنصب الراء ورفعها في ﴿يُضَارُّ﴾.
- ٢- ما يتغير بتغير الفعل مثل: ﴿وَبَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، و ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، بصيغة الفعل الماضي في الأولى والطلب في الثانية.
- ٣- ما يتغير بنقط بعض الحروف المهملة مثل: ﴿نُنَشِّرُهَا﴾ بالزاي، و ﴿نُنَشِّرُهَا﴾ بالراء.
- ٤- ما يتغير بإبدال حرف قريب من مخرج الآخر مثل: ﴿وَطَلِحَ مَنُضُودٍ﴾^(٤) وفي قراءة: ﴿وَطَلَعَ مَنُضُودٍ﴾.
- ٥- ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾^(٥)، قرأت: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾.

(١) سورة المؤمنون، الآية (١).

(٢) ينظر: الإتيان في علوم القرآن ١/ ١٥٧، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٦٠.

(٣) سورة البقرة، من الآية (٢٨٢).

(٤) سورة الواقعة، الآية (٢٩).

(٥) سورة ق، من الآية (١٩).



٦- ما يتغير بزيادة أو نقصان، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾^(١)، قرأت:

﴿وَالذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾، بنقص كلمة (ما خلق)، ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢)،

قرأت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ورهطك منهم المخلصين.

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (ورهطك منهم المخلصين). هذه أيضاً قراءة

شاذة ذكرها الشيخان في صحيحيهما في الحديث الذي أخرجه ابن عباسٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٣) (وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ

الْمُخْلِصِينَ)، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا، فَهَتَفَ: يَا

صَبَا حَاهُ، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا

تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ:

فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا،

ثُمَّ قَامَ. فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٤) (وَقَدْ تَبَّ). هَكَذَا قَرَأَهَا

الْأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ^(٥).

٧- ما يتغير بإبدال كلمة بكلمة ترادفها، مثل: ﴿كَالْمَنْفُوشِ﴾^(٦)،

قرأت: (كَالْصُوفِ الْمَنْفُوشِ).

(١) سورة الليل، الآية (٣).

(٢) سورة الشعراء، الآية (٢١٤).

(٣) سورة الشعراء: ٢١٤.

(٤) سورة المسد: ١.

(٥) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٧٩) برقم: (٤٩٧١)، ومسلم في "صحيحه" (١ / ١٣٤) برقم:

(٢٠٨).

(٦) سورة القارعة، من الآية (٥).

(كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ) هذه قراءة شاذة، وقد ذكرها البخاري في صحيحه وقال: وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: كَالصُّوفِ^(١).

القول السادس: المراد بالأحرف السبعة هي سبعة أوجه تضمنتها القراءات الصحيحة، والشاذة، والضعيفة، والمنكرة وهو رأي ابن الجزري حيث قال: «تتبع صحیح القراءات وشاذها وضعيفها ومنكرها، فإذا هي يرجع إلى سبعة أوجه لا يخرج عنها»^(٢)، وهذه الأوجه هي^(٣):

١- التغيير في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو: (البخل) بأربعة أوجه و(يحسب) بوجهين.

٢- التغيير في الحركات مع تغير المعنى دون الصورة نحو: ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾^(٤)، برفع لفظ آدم، ونصب لفظ كلمات وبالعكس ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾.

قراءتان متواترتان، إذ قرأ ابن كثير ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ أي أن الكلمات هي التي تلت آدم، وقرأ الباقون بالعكس^(٥).

٣- التغيير في الحروف مع تغير المعنى دون الصورة نحو: ﴿تَبَلَّوْا﴾ و ﴿تَتَلَّوْا﴾.

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: تفسير سورة القارعة.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١/ ١٥٧، ومناهل العرفان في علوم القرآن ١/ ١٦١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة البقرة، من الآية (٣٧).

(٥) ينظر: حجة القراءات ص ٩٤ - ٩٥.



هذا من قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾، حيث قرأ حمزة، والكسائي

وخلف: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾^(١)، وقرأ الباقون ﴿تَبْلُغُوا﴾^(٢).

٤- التغيير في الحروف مع تغير الصورة دون المعنى نحو: ﴿الصِّرَاطَ﴾ و﴿السرَّاطَ﴾، و﴿بَسْطَةَ﴾ و﴿بصْطَةَ﴾.

﴿الصِّرَاطَ﴾ و﴿السدَّاطَ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) و﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾^(٤)، حيث قرأ ابن كثير بالسين، والباقون وبالصاد، وقرأ خلف بإشمام الصاد الزاي^(٥).

﴿بَسْطَةَ﴾ و﴿بصْطَةَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(٦). ومن قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾^(٧)، حيث قرأت بالصاد، وبالسين قراءتان متواترتان^(٨).

٥- التغيير في الصورة والمعنى نحو: ﴿فَأَسْعَوْا﴾ و﴿فامضوا﴾.

وهذا من قوله تعالى: ﴿فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٩)، حيث قرأت ﴿فامضوا﴾ وهي

قراءة شاذة لم يقرأ بها أحد من أصحاب القراءات المتواترة، إلا أن هذه القراءة

(١) ينظر: حجة القراءات ص ٣٣١.

(٢) سورة يونس، من الآية (٣٠).

(٣) سورة الفاتحة، الآية (٦).

(٤) سورة الفاتحة، من الآية (٧).

(٥) ينظر: حجة القراءات ص ٨٠، وإتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ١/ ٣٦٥.

(٦) سورة البقرة، من الآية (٢٤٧).

(٧) سورة الأعراف، من الآية (٦٩).

(٨) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ١/ ٤٤٤.

(٩) سورة الجمعة، من الآية (٩).

وردت في أحاديث خارج الكتب الستة^(١).

٦- التغيير في التقديم والتأخير نحو: ﴿فَيَقْنُلُونَ وَيُقْنَلُونَ﴾^(٢)

٧- أو في الزيادة والنقصان نحو ﴿وَوَصَّىٰ﴾ و ﴿أَوْصَىٰ﴾.

هذا في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾^(٣)

قرأ: نافع، وابن عامر، وأبو جعفر بهمزة بين الواوين ﴿وَأَوْصَىٰ﴾، والباقون

بواوين مفتوحتين من غير ألف ﴿وَوَصَّىٰ﴾^(٤).

وأما القاضي ابن الطيب فيقول: تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها

سبعا وهي^(٥):

١- ما تتغير حركته، ولا يزول معناه ولا صورته مثل: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾^(٦)

بضم الراء، و ﴿أَطْهَرَ﴾ بفتح الراء، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾^(٧)، و ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾.

﴿أَطْهَرَ﴾ بفتح الراء، قراءة شاذة^(٨).

(١) ذكره البيهقي في سننه: عن سالم عن أبيه قال: ما سمعت عمر بن الخطاب يقرأها إلا: فامضوا إلى ذكر الله.

سنن البيهقي الكبرى، تأليف: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي أبو بكر (ت ٤٥٨ هـ)، تحقيق: محمد عبد

القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٢٤، ٣/٣٢٢ رقم الحديث (٥٨٦٧).

(٢) سورة التوبة، من الآية (١١١).

(٣) سورة البقرة، من الآية (١٣٢).

(٤) ينظر: البدور الزاهرة في القراءات الأربعة عشر ١/١٤١، وإتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة

عشر ١/٤١٨.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١/٤٣، والجامع لأحكام القرآن ١/٤٥.

(٦) سورة هود، من الآية (٧٨).

(٧) سورة الشعراء، من الآية (١٣).

(٨) ذكرها الشوكاني في تفسيره، وذكر بأن الحسن قرأ بها. ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من



- ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ و ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ قرأ يعقوب بفتح القاف ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ وقرأ الباقون بضم القاف ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾^(١).
- ٢- ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب، مثل: ﴿ رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾^(٢) بصيغة الطلب، و ﴿ بَاعَدَ ﴾ بصيغة الماضي.
- ٣- ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل قوله: ﴿ نُنَشِّرُهَا ﴾ بالزاي، و ﴿ نُنَشِّرُهَا ﴾ بالراء.
- ٤- ما تتغير صورته ويبقى معناه، مثل: ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾^(٣)، و(كالصوف المنفوش).
- ٥- ما تتغير صورته ومعناه مثل: ﴿ وَطَلَّحَ مَنُضُودًا ﴾^(٤) وفي قراءة: (وَطَلَّعَ مَنُضُودًا).
- ٦- التقديم والتأخير مثل: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾^(٥)، قرأت: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ ﴾.
- ٧- الزيادة والنقصان نحو: ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً ﴾^(٦) و ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً ﴾ بزيادة أنثى.

علم التفسير ٢/ ٥١٤.

(١) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ٢/ ٣١٤.

(٢) سورة سبأ، من الآية (١٩).

(٣) سورة القارعة، من الآية (٥).

(٤) سورة الواقعة، الآية (٢٩).

(٥) سورة ق، من الآية (١٩).

(٦) سورة ص، من الآية، (٢٣).

هذه قراءة شاذة، ذكرها المفسرون بأنها قراءة عبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**^(١).
بعد هذا العرض لأشهر الأقوال التي وردت في معنى الأحرف السبعة يمكن
القول:

- ١- الآراء الثلاثة الأولى تم الرد عليها بعد كل رأي منها، ويمكن القول فيها:
بأنها أقوال مرجوحة.
- ٢- الملاحظ على الآراء الأربعة الأخيرة وهي آراء الإمام الرازي، وابن قتيبة،
وابن الجزري، وابن الطيب ما يلي:
أ- إنها جميعاً ضمنت الأحرف السبعة الاختلاف في القراءات، سواء كانت
المتواترة، أو الشاذة.
ب- آراء ابن الطيب، وابن قتيبة، وابن الجزري هي آراء متفقة، وكما صرح بذلك
كثير من العلماء، حتى إن بعضهم جمع رأي الرازي معهم^(٢).
ت- رأي الإمام الرازي أشمل من الآراء الأخرى؛ لأنه جمع الوجوه السبعة التي
قال بها الآخرون بوجوه ستة، وأضاف إليها الوجه السابع وهو اختلاف
اللهجات بالفتح والإمالة وغيرها كما هو مذكور في النقطة السابعة من رأيه.
ولهذا:

- ١- لا يمكن اعتبار القراءات الشاذة قرآناً وإن صحت الرواية فيها؛ لأن القرآن
لم يثبت إلا بالتواتر، ولهذا لم يثبتها سيدنا عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في المصحف أثناء
الجمع، وقد كتب المصحف بالأحرف السبعة التي نزل بها، ولو اعتبرناها قرآناً

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٣/١٤٣.

(٢) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/١٦٠.



لجاز التعبد بها في الصلاة أو في غيرها، وهذا ما ذهب إليه القاضي أبو بكر الباقلائي بقوله: «الصحيح أن هذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ وضبطها عنه الأمة وأثبتها عثمان والجماعة في المصحف وأخبروا بصحتها وإنما حذفوا منها ما لم يثبت متواتراً، وأن هذه الأحرف تختلف معانيها تارة وألفاظها أخرى وليست متضاربة ولا متنافية»^(١).

٢- الأحرف السبعة ثبتت في القرآن الكريم بالتواتر، فلا يمكن اعتبار غير القراءات المتواترة ضمن الأحرف السبعة.

٣- يمكن اعتبار رأي الإمام الرازي أرجح الآراء، إلا أنه يجب اقتصار الوجوه التي ذكرها على القراءات الواردة عن النبي ﷺ بطريق التواتر.



(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/١٠٠.

الفصل التاسع

العام والخاص

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف العام والخاص.

المبحث الثاني: صيغ العموم.

المبحث الثالث: أقسام العموم.

المبحث الرابع: أقسام المخصص.



المبحث الأول تعريف العام والخاص



إن الناظر لنصوص القرآن الكريم يجدها تتميز بطابع العموم والشمول، فكثيراً ما يرد اللفظ عاماً شاملاً، يدل على أفراد كثيرة غير محصورة يستغرقها، وقد يطرأ عليه ما يخرج بعض الأفراد التي يشملها، وقد يكون هذا العموم مراداً أو غير مراد.

وعموم النصوص القرآنية يتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية؛ لأنها خاتمة الشرائع، وجاءت للناس كافة، فكان من الضروري أن يكون شمولها الميزة البارزة في خطابها؛ لتكون صالحة لكل زمان ومكان.

وكما يطلق اللفظ فيكون عاماً يفيد الاستغراق والشمول، يطلق كذلك في المقابل ليدل على معنى واحد على سبيل الانفراد، أو على كثير محصور فيكون خاصاً.

وهذا المبحث فيه مسألتان:

المسألة الأولى - تعريف العام:

العام لغة:

العام اسم فاعل من عم بمعنى شمل، مأخوذ من العموم وهو الشمول يقال مطر عام، أي شامل لجميع الأمكنة، وخصب عام، أي عم الأعيان ووسع

البلاد^(١).

العام اصطلاحًا:

فقد عرفه العلماء بتعاريف كثيرة منها:

١- العام هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد^(٢).٢- هو ما تناول أفراداً متفقه الحدود على سبيل الشمول^(٣).٣- هو لفظ يستغرق الصالح له بلا حصر^(٤).

كقولنا: «الرجال» يستغرق جميع ما يصلح له، ولا يدخل فيه النكرة مثل

«رجل»؛ لأنه يصلح لكل واحد من الرجال، لكنه لا يستغرقهم.

ولا التثنية ولا الجمع؛ لأن لفظ «رجلان» و«رجال» يصلحان لكل اثنين

وثلاثة، ولا يفيدان الاستغراق.

وقولهم: «بحسب وضع واحد»؛ للاحتراز من اللفظ المشترك، أو الذي له

حقيقة ومجاز، فإن عمومه لا يقتضي أن يتناول مفهومه معاً.

فإذا قلت: رأيت كل العيون.

فإن في لفظ العيون اشتراكاً حيث تشمل:

١- عيون الماء الجارية.

٢- العيون المبصرة.. وغير ذلك.

(١) ينظر: لسان العرب: لابن منظور: ٤٢٥/٢.

(٢) ينظر: أصول السرخسي: ١/١٢٥، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ٣٠٤، والمحصول للرازي

الجزء الأول القسم الثاني ص ٥١٣، ٥١٤، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٠٨.

(٣) ينظر: فتح الغفار في شرح المنار: لابن نجيب الحنفي: ١/٨٤-٨٥.

(٤) ينظر: الأحكام: للأمدى: ٢/٤٦٨، وجمع الجوامع: للسبكي: ١/٦٢٦، والإتقان: للسيوطي: ٣/١٣.



وأنت لا تريد كل هذه المعاني، وإنما تريد أحدها، فلا يقتضي العموم أن يشمل كل معاني اللفظ؛ بل بحسب وضع أو معنى واحد من معانيه المختلفة. وقولهم: «بلا حصر» يخرج أسماء الأعداد فهي تدل على كثرة معينة محدودة، فإن كانت الكثرة كثرة معينة بحيث لا يتناول ما بعدها. فهو اسم العدد، وإن لم تكن الكثرة كثرة معينة فهو العام، والتعريف الأول أشمل التعريفات.

المسألة الثانية - تعريف الخاص:

الخاص لغة:

يقال: خصه بالشيء يخصه خصاً وخصوصاً وخصوصية، واختصه: أفرده به دون غيره واختص فلان بالأمر وتخصص له إذا انفرد^(١).

الخاص اصطلاحاً:

عرف العلماء الخاص بعدة تعاريف نذكر منها:

- ١- هو كل لفظ وضع لمعنى واحد على الانفراد أو لمعنى كثير على سبيل الانحصار كأسماء العدد^(٢).
- ٢- هو كل لفظ وضع لمعنى واحد على الانفراد وقطع المشاركة^(٣).
- ٣- هو ما يتناول أمراً واحداً بنفس الوضع^(٤).

وهذه التعاريف كلها تدل على أن الخاص ما وضع لمعنى واحد فقط.

ومثال التخصيص قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ

(١) ينظر: لسان العرب: لابن منظور: ٢٤/٧.

(٢) ينظر: أصول السرخسي: ١/١٢٥، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ٣٠٧.

(٣) ينظر: المعتمد: لأبي الحسين البصري: ١/٢٥١.

(٤) ينظر: إرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٤٤.

قُرُوءٍ ﴿١﴾ ، فلفظ المطلقات عام يشمل كل مطلقة، لكن حكمه مخصوص بقوله
تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ﴿٢﴾ .



(١) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٢) سورة الطلاق: ٤.



المبحث الثاني صيغ العموم



ذكر العلماء أن للعموم صيغاً كثيرة تدل عليه ومن ذلك ما يأتي: (١)

١- لفظ (كل) كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٣).

٢- أسماء الشرط كلفظ (أي) و (ما) و (من) شرطاً واستفهاماً وموصولاً. كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (٦).

٣- الأسماء الموصولة مثل الذي والتي وتثنيتهما وجمعهما، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ

(١) ينظر: جمع الجوامع: ١/٦٤١، والمحصول: للرازي: ٢/٣١١، والأحكام: للآمدي: ٢/١٩٧، والإتقان: للسيوطي: ٣/١٣، وأصول الأحكام: للكيسبي: ٣٠٤، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ٣٠٤-٣٠٥، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤١٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٣) سورة الرحمن: ٢٦.

(٤) سورة الإسراء: ١١٠.

(٥) سورة الأنبياء: ٩٨.

(٦) سورة البقرة: ١٨٥.

الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْسِ ﴿١﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ ﴿٢﴾ .

٤- الجمع المضاف والجمع المحلى بأل، فمثال الأول قوله تعالى:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ ﴿٣﴾ ، ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ

الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ ﴿٥﴾ .

٥- اسم الجنس المضاف كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ

أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٦﴾ .

٦- المحلى بأل الاستغرافية، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ

الرِّبَا ﴿٧﴾﴾ ، وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ ﴿٨﴾ ، وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ ﴿٩﴾ .

(١) سورة البقرة: ٢٧٥.

(٢) سورة الطلاق: ٤.

(٣) سورة النساء: ١١.

(٤) سورة المؤمنون: ١.

(٥) سورة البقرة: ٢٣٣.

(٦) سورة النور: ٦٣.

(٧) سورة البقرة: ٢٧٥.

(٨) سورة المائدة: ٣٨.

(٩) سورة النور: ٢.



٧- النكرة في سياق النفي، والنهي، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَلَكْتُبِ لَا رَبِّبَ فِيهِ

هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾^(٢).

هذه هي أهم صيغ العموم التي ذكرها العلماء.



(١) سورة البقرة: ٢.

(٢) سورة الإسراء: ٢٣.

المبحث الثالث أقسام العموم



ينقسم اللفظ العام في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام^(١):

١- العام الذي لا يدخله التخصيص:

وهو العام الذي لا يمكن تخصيصه، وهذا النوع قليل؛ إذ الأصل في العموم أن يقبل التخصيص.

كالعام في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(٢)،
وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ
عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾^(٤) فالعموم هنا لا يمكن تخصيصه.

٢- العام الذي يدخله التخصيص:

وهو الذي يمكن تخصيصه، ولعل هذا النوع هو أشهر أنواع العموم،
والذي ينصرف إليه الذهن عند إطلاق العموم، وهو ميدان الخلاف بين العلماء
في تخصيصه أو بقاءه على عمومه.

(١) ينظر: الرسالة: للشافعي: ٥٣، وعلم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف: ٢٢٤، ودراسات في أصول التفسير:
محسن عبد الحميد: ٢٤، ومباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ٣٠٦-٣٠٧، ودراسات في علوم
القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤١٣-٤١٦.

(٢) سورة الكهف: ٤٩.

(٣) سورة الكهف: ٤٩.

(٤) سورة النساء: ٢٣.



مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾^(١). فالناس في هذا النص العام، مراد به خصوص المكلفين، لأن العقل يقتضي بخروج الصبيان والمجانين.

ومنه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢) فلفظ «أحدكم» يفيد العموم وخصص بقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٤)، فلفظ «المطلقات» عام يشمل الحامل وغير الحامل وخصص بقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٥) وغير ذلك من الأمثلة.

٣- العام المراد به الخصوص:

وهو ما دل لفظه على العموم ودلت القرينة على الخصوص.

مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾^(٦) والمراد بالناس عبد الله بن سلام^(٧) فالآية دعوة لليهود إلى أن يؤمنوا كما آمن عبد الله بن

(١) سورة آل عمران: ٩٧.

(٢) سورة البقرة: ١٨٠.

(٣) سورة البقرة: ١٨٠.

(٤) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٥) سورة الطلاق: ٤.

(٦) سورة البقرة: ١٣.

(٧) البرهان: الزركشي ج ٢ ص ٢٢١.

سلام **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وقد كان يهوديًا، ثم إن الناس لم يؤمنوا كلهم، فدلّت القرينة على وجوب حمله على فئة منهم.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ ۖ﴾ ^(١) والمراد بالناس هنا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

ومن أمثلته ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ^(٢) والمراد

إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أو العرب من غير قريش.

ومنها: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ ^(٣) والمراد

بالملائكة جبريل **عَلَيْهِ السَّلَامُ**.



(١) سورة النساء: ٥٤.

(٢) سورة البقرة: ١٩٩.

(٣) سورة آل عمران: ٣٩.



المبحث الرابع أقسام المخصص



اتفق جمهور العلماء على جواز تخصيص العام، وعرفوا التخصيص بأنه إخراج بعض ما يتناوله اللفظ^(١)، وقيل هو قصر حكم العام على بعض أفراد^(٢)، إلا أنهم اختلفوا في الدليل المخصص، فذهب جمهور العلماء إلى جواز التخصيص بأي دليل سواء كان متصلاً أم منفصلاً^(٣)، بينما ذهب الحنفية إلى عدم جواز التخصيص إلا بدليل مستقل مقترن له في الزمان، بأن يرد العام ويرد المخصص له على التوالي^(٤).

والمخصصات على قسمين:

القسم الأول - المخصص المتصل:

وهو ما لا يستقل بنفسه، أي لا يدل على المراد استقلالاً، بل يتعلق معناه بما قبله؛ ولذا لا يتصور مجيؤه إلا مقترناً للعام^(٥). وهو أنواع خمسة هي^(٦).

(١) ينظر: المحصول: للرازي: ٧/٣، والإيهاج: للسبكي: ١٣٩/٢.

(٢) ينظر: جمع الجوامع: للسبكي: ٢/٢، وأصول الفقه في نسيجه الجديد: مصطفى الزلمي: ٣٥٠.

(٣) ينظر: الأحكام: للآمدي: ٢٨٦/٢، والمحصل: للرازي: ٢٦/٣، وأصول الأحكام: حمد الكبيسي: ٢٨، وأصول الفقه في نسيجه الجديد: مصطفى الزلمي: ٣٥٥.

(٤) ينظر: الفصول: للجصاص: ٧٤٢/١، وكشف الأسرار: عبد العزيز البخاري: ٤٥٣/١.

(٥) ينظر: الوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣١١، وأصول الأحكام: وأصول الأحكام: حمد الكبيسي: ٢٨٢.

(٦) ينظر: المحصول: للرازي: ٢٨/٣، والأحكام: للآمدي: ٢٨٩/٢، والبرهان في علوم القرآن: للزركشي:

١- الاستثناء:

نحو قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١)، فإن الاستثناء هنا خصص العموم في الآية، وجعله مقصوراً على من كفر عن اختيار ورضا، ولولا الاستثناء لكان شاملاً لكل كافر، مختاراً أو مكروهاً.

٢- الوصف:

نحو قوله تعالى: ﴿وَرَبِّبِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾^(٢)، فكلمة النساء تشمل المدخول بهن وغير المدخول بهن ولكنها لما وصفت بالدخول صارت قاصرة على النساء المدخول بهن، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن فِتْيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٣) فكلمة الفتيات عامة تشمل المؤمنات وغير المؤمنات، لكنها لما وصفت بالمؤمنات صارت مقصورة عليهن.

٣- الشرط:

٢/ ٢٢٠، والإتيان: للسيوطي: ١٦/٢، والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣١٤، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ٢٢٣-٢٢٥، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٢٠، وأصول التفسير وقواعده: خالد العك: ٣٨٥.

(١) سورة النحل: ١٠٦.

(٢) سورة النساء: ٢٥.

(٣) سورة النساء: ٢٥.



نحو قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾^(١)، فالشرط في هذه الآية قصر استحقاق الأزواج النصف على حاله عدم الولد، ولولاه لأفاد الكلام استحقاقهم للنصف في جميع الأحوال.

٤ - الغاية:

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾^(٣)، فلو لم يقل: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾^(٤) لكان النهي عاماً في جميع الأحوال.

٥ - بدل البعض من الكل:

نحو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٥)، فقوله: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾^(٦) بدل من الناس فيكون وجوبه الحج خاصاً بالمستطيع.

القسم الثاني - المخصص المنفصل:

وهو ما يستقل بنفسه، أي يدل على المراد استقلالاً دون أن يفتقر إلى ذكر العام معه؛ لعدم تعلق معناه به^(٧).

(١) سورة النساء: ١٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٣) سورة البقرة: ١٩٦.

(٤) سورة البقرة: ١٩٦.

(٥) سورة آل عمران: ٩٧.

(٦) سورة آل عمران: ٩٧.

(٧) ينظر: الوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣١١، وأصول الأحكام: حمد الكبيسي: ٢٨٠.

وهو على خمسة أنواع هي: (١)

١- القرآن الكريم:

ونقصد به تخصيص القرآن بالقرآن، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَلْمَطَلَقْتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (٢)، فقد خص بقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ (٣)، وبقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (٤).

٢- السنة:

أي تخصيص عموم القرآن بالسنة النبوية ومنها آيات المواريث، خص منها القاتل والمخالف في الدين بقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «الْقَاتِلُ لَا يَرِثُ» (٥)، وقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ» (٦)، وتخصيص قوله

(١) ينظر: الأحكام: للآمدي: ٢/ ٣٢٦، والمحصول: للرازي: ٣/ ٨١، والبرهان: للزركشي: ٢/ ٢٢٣، والإتقان: للسيوطي: ٢/ ١٧، وأصول الفقه في نسيجه الجديد مصطفى الزلمي: ٣٥٩-٣٦٤، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٣) سورة الأحزاب: ٤٩.

(٤) سورة الطلاق: ٤.

(٥) أخرجه النسائي في "الكبرى" (٦ / ١٢١) برقم: (٦٣٣٥) والترمذي في "جامعه" (٣ / ٦١٢) برقم: (٢١٠٩) وابن ماجه في "سننه" (٣ / ٦٦٢) برقم: (٢٦٤٥)، (٤ / ٣٧) برقم: (٢٧٣٥) والبيهقي في "سننه الكبير" (٦ / ٢٢٠) برقم: (١٢٣٧١) والدارقطني في "سننه" (٥ / ١٦٩) برقم: (٤١٤٦)، (٥ / ١٧٠) برقم: (٤١٤٧)، (٥ / ٤٢٤) برقم: (٤٥٧٢) والطبراني في "الأوسط" (٨ / ٢٩٨) برقم: (٨٦٩٠).

(٦) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨ / ١٥٦) برقم: (٦٧٦٤) ومسلم في "صحيحه" (٥ / ٥٩) برقم: (١٦١٤).

تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(١) بقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَا تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا»^(٢).

٣- الإجماع:

ومن أمثلة ما خصه الإجماع آية المواريث، فقد خص منها الرق، فلا يرث العبد سيده بالإجماع^(٣)، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾^(٤)، فقد خص عدم وجوب صلاة الجمعة على النساء بالإجماع، يقول ابن المنذر **رَحِمَهُ اللَّهُ** في «الإجماع» رقم (٥٢): «وأجمعوا على أن لا الجمعة على النساء». وبالتالي يجوز لهن البيع وكل تعامل بالإجماع بعد النداء^(٥).

٤- القياس:

ومن أمثلة ما خص بالقياس، آية الزنا في قوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾^(٦)، خص منها العبد بالقياس على الأمة المنصوصة في قوله

(١) سورة المائدة: ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٦١ / ٨) برقم: (٦٧٩٢)، (١٦١ / ٨) برقم: (٦٧٩٢)، (١٦١ / ٨) برقم: (٦٧٩٢)، (١٦١ / ٨) برقم: (٦٧٩٢).

برقم: (٦٧٩٣)، (١٦١ / ٨) برقم: (٦٧٩٤) ومسلم في "صحيحه" (١١٢ / ٥) برقم: (١٦٨٤).

(٣) انظر: حاشية ابن عابدين ٦ / ٨٣٥. وحاشية الدسوقي ٤ / ٤٦١. وتحفة المحتاج ٦ / ٤٠١، ونهاية

المحتاج ٦ / ١٨. وشرح منتهى الإرادات ٤ / ٥٦٠، وكشاف القناع ١٠ / ٣٨١.

(٤) سورة الجمعة: ٩.

(٥) ينظر: الإتيقان: للسيوطي: ١٨ / ٢، وأصول الفقه في نسيجه الجديد مصطفى الزلمي: ٣٦٢.

(٦) سورة النور: ٢.

تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(١) المخصص
لعموم الآية^(٢).

٥- العقل:

ويرد في كل نص ورد فيه الخطاب بتكاليف على سبيل العموم، مثل قوله

تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيُصِمَّهُ﴾^(٤)، فالخطاب بالوفاء بالعقود وبالصوم للعموم، إلا أن العقل يدل
على إخراج من ليس أهلاً للتكليف، كالصبي والمجنون^(٥).



(١) سورة النساء: ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، والمحصول: للرازي: ٩٦/٣.

(٣) سورة المائدة: ١.

(٤) سورة البقرة: ١٨٥.

(٥) ينظر: المحصول: للرازي: ٧٣/٣، وميزان الأصول: للسمرقندي: ٤٦٧/١، وأصول الأحكام: حمد

الكبيسي: ٢٨٠.



الفصل العاشر

المطلق والمقيد

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف المطلق والمقيد وحكمهما.

المبحث الثاني: الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد.

المبحث الثالث: حمل المطلق على المقيد.

المبحث الأول تعريف المطلق والمقيد وحكهما



جاءت بعض الأحكام الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية مطلقة غير مقيدة بشرط أو وصف أو غير ذلك، وجاء بعضها مقيداً بوصف أو شرط أو غيرهما.

والأصل في المطلق أن يبقى على إطلاقه، إلا إذا صح الدليل على تقييده؛ لأن الإطلاق لحكمة كما أن التقييد لحكمة، وفي كل منها رعاية لمصلحة العباد في الدنيا والآخرة.

وهذا المبحث فيه مسألتان:

المسألة الأولى - تعريف المطلق وحكمه:

أولاً - تعريف المطلق:

المطلق لغة: الطاء واللام والقاف أصل مطرد واحد وهو يدل على التخلية والإرسال. يقال: انطلق الرجل انطلاقاً. ثم ترجع الفروع إليه، تقول: أطلقتته إطلاقاً وأطلقت الأسير خليته، وناقاة طالق أي ترعى وحدها^(١).

أما المطلق في الاصطلاح:

فقد عرفه العلماء بتعاريف كثيرة منها:

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس: ٣/ ٤٢٠ مادة (طلق)، ولسان العرب: لابن منظور: ١٠/ ٢٢٧.



١- هو اللفظ الدال على مدلول شائع في جنسه^(١).

٢- هو اللفظ الدال على الماهية بلا قيد من وحدة وغيرها^(٢).

٣- هو اللفظ الدال على ماهية مشتركة بين عدة أنواع أو أصناف أو أفراد يصلح

لأن يراد به أي واحد منها على سبيل التناوب قبل التقييد^(٣).

ثانياً- حكم المطلق:

اتفق العلماء على أن اللفظ إذا ورد مطلقاً في نص من النصوص، ولم يقدّم دليل على تقيده، فإنه يعمل بهذا الإطلاق دون تقييد أو تبديل؛ لأنه لفظ مطلق يدل على معناه قطعاً^(٤)، ولا يجوز للمفسر أو المجتهد تقييده ما لم يقدّم دليل شرعي على تقيده، عملاً بالقاعدة العامة «المطلق يجري على إطلاقه ما لم يقدّم دليل التقييد نصاً أو دلالة»^(٥).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ^ص وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ^ق﴾^(٦).

فلفظ (أيام) في هذه الآية مطلق غير مقيد بقيد، فيبقى على إطلاقه ومقتضى ذلك أن من أفطر في نهار رمضان من أجل مرض أو سفر أو أي عذر آخر، لا يجب عليه التتابع في صيام الأيام التي يلزمه صيامها بدل من الأيام التي أفطرها،

(١) ينظر: الأحكام: للأمدى: ٣/٣.

(٢) ينظر: شرح جمع الجوامع: للمحلي: ٦٦/٢.

(٣) ينظر: أصول الفقه في نسيجه الجديد: مصطفى الزلمي: ٣١٧.

(٤) ينظر: اللمع: للشيرازي: ١٣٢، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٧٩.

(٥) ينظر: الوجيز في شرح القواعد الفقهية: عبد الكريم زيدان: ٢٨-٢٩.

(٦) سورة البقرة: ١٨٥.

بل له أن يصومها متتابعة أو متفرقة.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾^(١) فإن لفظ (أزواجاً) ورد مطلقاً عن قيد الدخول، وبناءً على هذا الإطلاق يجب على الزوجة المتوفى عنها زوجها العدة المذكورة في الآية سواء كان مدخولاً بها أم لم يكن مدخولاً بها^(٢).

ومن أمثلة المقيد الذي لم يقم الدليل على إطلاقه، قوله تعالى في كفارة القتل الخطأ: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾^(٣) وكان الله عليمًا حكيمًا ﴿٩٢﴾^(٤)، وقوله في كفارة الظهار ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾^(٥) ففي هاتين الكفارتين حدد النص مقدار المدة الزمنية مقيداً بوصف التتابع فيجب العمل بهذا التقييد ما لم يثبت دليل على خلاف ذلك، فإذا أهمل وصف التتابع لم تعتبر الكفارة مسقطاً للتكليف^(٥).

ومن أمثلة المقيد الذي قام الدليل على إطلاقه، لفظة (وربائبكم) قيد بالبحر في قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ

(١) سورة البقرة: ٢٣٤.

(٢) الوجيز في شرح القواعد الفقهية: عبد الكريم زيدان: ٢٨-٢٩، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٢٠.

(٣) سورة النساء: ٩٢.

(٤) سورة المجادلة: ٤.

(٥) ينظر: الوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٢٨٥، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٢٠.



الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴿١﴾ ، فهذا القيد (في جحوركم) قد قام الدليل على إلغائه وعدم اعتباره وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٢﴾ وبناء على ذلك يحل التزوج بالربيبية، إذا طلق أمها قبل الدخول بها لأن القيد المعتبر في الحكم في هذه الآية هو الدخول سواء تحقق الحجور أم لا، فوجوده وعدمه سيان بخلاف قيد الدخول فإنه معتبر ﴿٣﴾.

(١) سورة النساء: ٢٣.

(٢) سورة النساء: ٢٣.

(٣) ينظر: الوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٢٨٥، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٢٠.

المسألة الثانية: تعريف المقيد وحكمه:

أولاً- تعريف المقيد:

المقيد لغة: القاف والياء والذال كلمة واحدة وهي (القيد) ثم يستعار في كل شيء، يقال: قيدته أقيده تقيداً، المقيد خلاف المطلق^(١).

أما المقيد في الاصطلاح:

فقد عرفه العلماء بتعاريف كثيرة منها:

١- هو ما دل على الماهية بقيد من قيودها أو ما كان له دلالة على شيء من القيود^(٢).

٢- هو لفظ دل على فرد أو أفراد شائعة لكن اقترن به قيد أو أكثر قلل من شيوعه^(٣).

ويمكن أن يقال إن المقيد عبارة عن المطلق مع إضافة قيد أو أكثر يقلل من شيوعه؛ لأن تعاريف العلماء للمقيد هي نفس تعريف المطلق إلا أنهم أضافوا لها كلمة القيد.

ثانياً- حكم المقيد:

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس: ٥/ ٤٤، ولسان العرب: لابن منظور: ٣/ ٣٧٣.

(٢) ينظر: إرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٧٨.

(٣) ينظر: الأحكام: للآمدي: ٣/ ٤، والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٢٨٤، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٣٩.



اتفق العلماء على وجوب العمل بموجب القيد، فلا يجوز إلغاؤه، ويثبت الحكم له بهذا القيد إلا إذا قام الدليل على عدم اعتبار هذا القيد، فإن وجد ذلك الدليل كان المقيد حكمه حكم المطلق الذي لم يقيد أصلاً^(١).



(١) ينظر: الأحكام: للآمدي: ٤/٣، والمحصول: للرازي: ٣/١٤٢، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٢٠.

المبحث الثاني الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد



يبحث الأصوليون المطلق والمقيد في كتاب العام والخاص.

قال القرافي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «وإنما وضع الأصوليون حمل المطلق على المقيد في كتاب الخصوص والعموم بسبب أن المطلق هو «قسيم» العام والتقيد «قسيم» الخاص. وهذه الأقسام تلتبس جدًا على كثير من الفضلاء وربما اعتقدوا المطلق عامًا.. والتبس التقيد بالتخصيص..»^(١)

وقال في موضع آخر: إن «مدلول المطلق فائت ومنتذر ولم أر أحدًا تعرض لذلك بل يسوون في الأصول والفروع بين هذه المثل ويجعلون البحث واحدًا، وليس كذلك»^(٢) وقال عن العموم: «اعلم أن مسمى العموم في غاية الغموض والخفاء، ولقد طالبت بتحقيقه جماعة من الفضلاء فعجزوا عن ذلك»^(٣).

ومع هذا فقد عقد في كتابه: «العقد المنظوم في الخصوص والعموم» بابًا خاصًا في الفرق بين العام والمطلق^(٤) إضافة إلى ذكره الفروق بينهما في تعريفه للعام، ومن أظهر الفروق:

(١) العقد المنظوم: القرافي ج ٢ ص ٤٧٠.

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٨٨، العقد المنظوم ج ٢ ص ٤٨٨.

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٥.

(٤) انظر هذا الباب في ج ١ ص ٢٩٣، ٣١٨.



أن المطلق يقتصر بحكمه على فرد من أفرادهِ دون الجميع كإعتاق الرقبة فإنه إذا أعتق رقبة لا يلزمه إعتاق الباقي، أما العموم فإن حكمه يعم جميع أفرادهِ بالتساوي، فإذا قتلنا مشرکًا ثم وجدنا آخر وجب قتله أيضًا^(١).
بمعنى أن الحكم في العام يثبت لكل أفرادهِ، أما المطلق فيثبت لأحد أفرادهِ بلا تخصيص، فإذا قام في أحدها انقطع عن الباقي.
«فإن قلت» هذا هو التخصيص.

«قلت»: لا، فإن التخصيص قبله عموم، ثم خرج بعض أفرادهِ، وأما المطلق فالمراد به بعض أفراد العام من أول الأمر.
فإذا قال رجل: كل زوجة لي فهي طالق فهذا اللفظ عام يوجب طلاق زوجاته جميعًا.

وإذا قال: كل زوجة لي فهي طالق إلا فلانة فهذا تخصيص يوجب استثناءها من الطلاق بعد أن كان الحكم يشملها.

وإذا قال: إحدى زوجاتي طالق فهذا لفظ مطلق يوجب طلاق إحدى زوجاته دون البقية فإذا طلقت واحدة سلمت الأخريات.

وإذا قال: زوجتي الوسطى أو الكبيرة أو الصغيرة طالق فهذا تقييد يوجب طلاقها بعينها من أول الأمر ومن غير أن يشمل غيرها^(٢). والله أعلم.



(١) العقد المنظوم ج ١ ص ٢٨٢.

(٢) دراسات في علوم القرآن الكريم، الرومي، ص ٤٤٠.

المبحث الثالث حمل المطلق على المقيد



قد يرد اللفظ مطلقاً في موضع والمقيد في موضع آخر، فإن لم يوجد تعارض وأمكن الجمع بينهما والعمل بمدلولهما معاً، فإنه لا يحمل المطلق على المقيد؛ لأن في الحمل إهمالاً لأحدهما والجمع أولى، إما إذا وجد تعارض بين المطلق والمقيد فيجب رفعه وذلك يحمل المطلق على المقيد^(١)، وقد بين العلماء أن العلاقة بين المطلق والمقيد لا تخلو من أربعة أوجه نوجزها على النحو الآتي:

أولاً- أن يتحدا في الحكم والسبب:

اتفق العلماء على حمل المطلق على المقيد في هذه الحالة، باعتبار أن المطلق هو جزء من المقيد، فالعمل بالمطلق دخل ضمناً حين يعمل بالمقيد^(٢)، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّيْتَةٌ وَالدَّمُّ وَحُرُّ الْخَيْزِيرِ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ

(١) ينظر: الأحكام: للآمدني: ٤/٣، وشرح جمع الجوامع: للمحلي: ٧٦/٢، وأصول الفقه في نسيجه الجديد: مصطفى الزلمي: ٣٢١.

(٢) ينظر: المحصول: للرازي: ٢٥٧/١، وأحكام الفصول: للباجي: ٨٦/١، وروضة الناظر: لابن قدامة: ٢٣٠، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٧٩.

(٣) سورة المائدة: ٣.



يَكُونُ مِيَّتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا^(١) فالحكم في النصين واحد وهو الحرمة، والسبب واحد وهو الأذى، ولفظ (الدم) جاء في الآية الأولى مطلقاً وفي الثانية مقيداً بالدم المسفوح، فيحمل فيه المطلق على المقيد ويكون الدم المحرم هو الدم المسفوح.

ثانياً- أن يختلفا في الحكم والسبب:

اتفق العلماء في هذه الحالة على عدم حمل المطلق على المقيد، ويعمل بالمطلق على إطلاقه وبالمقيد على تقييده^(٢)، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾^(٣)، حيث ورد لفظ (الأيدي) مقيداً بالمرافق، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٤) حيث ورد لفظ (الأيدي) مطلقاً عن كل قيد، والحكم والسبب في النصين مختلفان، ففي الأول الحكم وجوب الغسل والسبب إرادة الصلاة، وفي الثاني الحكم وجوب القطع، والسبب هو السرقة، فلا يحمل المطلق على المقيد

(١) سورة الأنعام: ١٤٥.

(٢) الأحكام: للآمدي: ٤/٣، وروضة الناظر: لابن قدامة: ١/٢٦٢، والمعتمد: لأبي الحسين البصري:

١/٢٨٨، والبرهان في علوم القرآن: للزركشي: والإتقان: للسيوطي: ٣/٥٦، وإرشاد الفحول: للشوكاني:

٢٧٩، ودراسات في أصول التفسير: محسن عبد الحميد: ٥٣.

(٣) سورة المائدة: ٦.

(٤) سورة المائدة: ٣٨.

هنا بل يعمل بكل منهما على حاله؛ لأنه لا يوجد تعارض بينهما ولا مناسبة
لحمل أحدهما على الآخر^(١).

ثالثاً- أن يتحدا في السبب ويختلفان في الحكم:

اختلف العلماء في هذه الحالة على مذهبين:

الأول- يرى عدم حمل المطلق على المقيد، وبقاء المطلق على إطلاقه والمقيد
على تقييده؛ لاختلاف الحكم، وإليه ذهب أكثر الفقهاء^(٢)، بل نقل البعض
الاتفاق على ذلك^(٣).

الثاني- يرى حمل المطلق على المقيد وإليه ذهب بعض الأصوليين والفقهاء
ومنهم الإمام النووي، والزرکشي، والسيوطي^(٤).

ومن أمثلة ذلك: لفظ (الأيدي) الوارد مطلق في آية التيمم في قوله تعالى:
﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾^(٥)،
والوارد مقيد في آية الوضوء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ

(١) ينظر: أصول الفقه في نسيجه الجديد: مصطفى الزلمي: ٣٢٤، وأسباب اختلاف الفقهاء: ١٢٧، وأصول
الأحكام: للكبيسي: ٣٢٧.

(٢) ينظر: الأحكام: للآمدي: ٤/٣، واللمع: للشيرازي: ١٣٢، وأصول السرخسي: ١/٢٧٠، وروضة الناظر:
لابن قدامة: ١/٢٦٢.

(٣) نقل ذلك الآمدي في الأحكام: ٤/٣، والشوكاني في إرشاد الفحول: ٢٨٠.

(٤) ينظر: المجموع: للنووي: ٢/٢٤٢، والبرهان: للزرکشي: ١٦/٢، والإتقان: للسيوطي: ٣/٥٦.

(٥) سورة النساء: ٤٣.



إِلَى الصَّلَاةِ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴿١﴾ ، فالحكمان مختلفان؛ لأن الأول وجوب المسح، وفي الثاني وجوب الغسل، لكن السببين متحدان، وهما القيام إلى الصلاة وإرادة فعلها، فعلى القول الأول يعمل بالمطلق في موضعه وبالمقيد في موضعه، ولا يجب مسح الأيدي إلى المرافق، وعلى القول الثاني يحمل المطلق على المقيد، فيجب مسح اليدين إلى المرفقين^(٢).

رابعاً- أن يتحدا في الحكم ويختلفا في السبب:

ولهذا حالتان:

الأولى- أن يكون القيد واحداً:

فالرقبة «مطلقة» في كفارة الظهر في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾^(٣) . ومطلقة في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُهُوَ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾^(٤) .

(١) سورة المائدة: ٦.

(٢) ينظر: أصول السرخسي: ١/ ٢٧٠، والبرهان: للزركشي: ١٦/ ٢، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٨٠، وأصول الأحكام: للكيسي: ٣٢٧.

(٣) سورة المجادلة: ٣.

(٤) سورة المائدة: ٨٩.

ومقيدة بالإيمان في كفارة القتل الخطأ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾^(١).

وإذا نظرنا إلى أسباب الكفارة في الآيات الثلاث وجدناها مختلفة فالسبب في الآية الأولى «الظهار» وفي الثانية «الحنث باليمين» وفي الثالثة «قتل المؤمن خطأ».

وإذا نظرنا إلى الحكم وجدناه واحدًا وهو عتق الرقبة لكنه في الظهار واليمين مطلق، وفي القتل مقيد فهل يحمل المطلق في هذه الصورة على المقيد فنوجب في كفارة الظهار، واليمين أن تكون الرقبة مؤمنة أيضًا. هذا ما وقع الخلاف فيه بين العلماء.

فذهب الأحناف وأكثر المالكية وروى عن الإمام أحمد إلى أنه لا يحمل المطلق على المقيد فيجوز في كفارة الظهار واليمين عتق الرقبة الكافرة. ولا يجوز في كفارة القتل إلا الرقبة المؤمنة.

وذهب أكثر الشافعية والحنابلة إلى حمل المطلق على المقيد فيجب أن تكون الرقبة مؤمنة في جميع الكفارات.

الثانية - أن يكون القيد متعددًا:

فالصوم «مطلق» في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارُهُ أَيْمَانُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾^(٢) وفي قضاء

(١) سورة النساء: ٩٢.

(٢) سورة المائدة: ٨٩.



رمضان: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾^(١).

ومقيد بالتتابع في كفارة القتل في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾^(٢)، وكذلك في كفارة الظهار في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾^(٣).

ومقيد بالتفريق في صوم المتمتع بالحج في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾^(٤).

واتفق العلماء على أنه لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف القيد وعدم وجود مرجح لأحد القيود. وحمله على أحدهما دون الآخر بلا دليل تحكم فليس أحدهما بأولى من الآخر^(٥).



(١) سورة البقرة: ١٨٤.

(٢) سورة النساء: ٩٢.

(٣) سورة المجادلة: ٤.

(٤) سورة البقرة: ١٩٦.

(٥) إتحاف ذوي البصائر: د. النملة ج ٦ ص ٣٦٣.

الفصل الحادي عشر

المنطوق والمفهوم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المنطوق تعريفه وأقسامه.

المبحث الثاني: المفهوم تعريفه وأقسامه.

المبحث الثالث: شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة.



المبحث الأول المنطوق تعريفه وأقسامه



إن النصوص قوالب الأحكام والألفاظ أوعية المعاني، ومن المعروف أن دلالة النصوص على الأحكام لا تجري على نمط واحد، فمنها - أي الأحكام - ما هو منطوق يؤخذ من النصوص وعبارتها، ومنها ما هو مفهوم يستنبط من روحها ومغزاها وعللها.

وهذا المبحث فيه مسألتان:

المسألة الأولى - تعريف المنطوق:

هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق^(١).

المسألة الثانية - أقسام المنطوق:

ينقسم المنطوق على قسمين:

الأول - منطوق صريح: وهو ما دل عليه النص بألفاظه وعباراته دلالة لفظية

وضعية، مطابقة أو تضمناً^(٢).

وينقسم المنطوق الصريح إلى ثلاثة أقسام هي:

١ - النص:

(١) ينظر: الإتيان: للسيوطي: ٥٩/٣، ودراسات في أصول تفسير القرآن: محسن عبد الحميد: ٨٧، ودراسات

في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٤٦.

(٢) ينظر: شرح العضد: ١٧١/٢، وأصول الفقه: مصطفى الزلمي: ٣٩٥، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى

الزلمي: ١٧٥.

وهو ما أفاد بنفسه معنى صريحاً لا يحتمل غيره، وقيل: «ما لا يحتمل التأويل»^(١) وقيل: ما أفاد معنى لا يحتمل غيره^(٢) ومثاله قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتَ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾^(٣) فإن قوله «عشرة» دفع توهم دخول الثلاثة في السبعة، وقوله «كاملة» تأكيد لهذا المعنى ودفع لأي احتمال آخر غير العشرة.

وقال قوم بندرة هذا النوع في الكتاب والسنة ويجب: بأن هذا إن عز حصوله بوضع الصيغ رداً إلى اللغة فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية^(٤).

٢- الظاهر:

وهو ما أفاد بنفسه معنى صريحاً واحتمل غيره احتمالاً مرجوحاً، «وقيل: ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً»^(٥). ومثال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ﴾^(٦) فإنه يقال لانقطاع الدم طهر، وللإغتسال منه طهر، والثاني أظهر وهو الراجح.

٣- المؤول:

وهو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح للدليل.

(١) إرشاد الفحول: ج ٢ ص ٥٤.

(٢) الإتيان: السيوطي ج ٢ ص ٤١.

(٣) سورة البقرة: ١٩٦.

(٤) الإتيان: السيوطي ج ٢ ص ٤١.

(٥) الإتيان: السيوطي ج ٢ ص ٤١.

(٦) سورة البقرة: ٢٢٢.



ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(١) فالظاهر من كلمة جناح هو جناح الريش، ويستحيل حمله على الظاهر لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة فيحمل على الخضوع وحسن الخلق^(٢) وبهذا صرف اللفظ عن المعنى الراجع إلى المعنى المرجوح لدليل وهو هنا الاستحالة.

الثاني - منطوق غير صريح: وهو ما دل عليه النص دلالة عقلية التزامية^(٣).

وينقسم المنطوق غير الصريح إلى قسمين هما:

١ - دلالة الاقتضاء: هي ما توقفت دلالة اللفظ فيه على إضمار^(٤).

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾^(٥) فإن دلالة اللفظ على المعنى تلزم إضمار كلمة «فأفطر» والمعنى فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر لأن قضاء الصوم إنما يجب إذا أفطر وليس لمجرد السفر أو المرض.

(١) سورة الإسراء: ٢٤.

(٢) الإتقان: السيوطي ج ٢ ص ٤١.

(٣) شرح العضد: ١٧١/٢، وأصول الفقه: مصطفى الزلمي: ٣٩٥، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٧٥.

(٤) ينظر: شرح العضد: ١٧٢/٢، والأحكام: للآمدي: ٧٢/٣، فواتح الرحموت: ٤٠٦/١، وشرح جمع الجوامع: للمحلي: ٢٣٩/١، والمستصفي: للغزالي: ١٨٦/٢، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٣٠٢، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٤٨.

(٥) سورة البقرة: ١٨٤.

وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾^(١) فإن دلالة اللفظ على المعنى تلزم إضمار كلمة «وطء» أو «نكاح» لأن التحريم ليس لأعيان الأمهات فلزم إضمار فعل يتعلق به التحريم.

وكقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾^(٢) أي فحلق ففدية، لأن الفدية إنما تجب إذا حلق وليس لمجرد المرض أو الأذى. وهذا النوع من باب إيجاز القصر في علوم البلاغة. وسمي دلالة اقتضاء لاقتضاء الكلام لفظًا زائدًا على المنطوق^(٣).

٢- دلالة الإشارة: وهي ما دل لفظه على ما لم يقصد به قصداً أولياً بل من لازمه^(٤).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(٥) فإنه يلزم من جواز الأكل والشرب والجماع

(١) سورة النساء: ٢٣.

(٢) سورة البقرة: ١٩٦.

(٣) مباحث في علوم القرآن: الشيخ مناع القطان ص ٢٥٢.

(٤) ينظر: شرح العضد: ١٧٢/٢، وأصول السرخسي: ٢٣٧/١، وفواتح الرحموت: ٤٠٧/١، وشرح جمع

الجوامع: للمحلي: ٢٤٠/١، والمستصفي: للغزالي: ١٨٨/٢، وعلم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف:

١٧٠، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٤٨.

(٥) سورة البقرة: ١٨٧.



حتى الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل من الجنابة أن يصبح الصائم على جنابة فتكون دلالة اللفظ أشارت إلى جواز إصباح الصائم على جنابة وهو معنى لم يقصد باللفظ قصدًا أوليًا بل من لوازمه^(١).



(١) ينظر: المستصفى: للغزالي: ٢/ ١٨٩، الوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣٥٧، ودراسات في علوم

القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٤٨.

المبحث الثاني المفهوم تعريفه وأقسامه



وهذا المبحث فيه مسألتان:

المسألة الأولى - تعريف المفهوم:

هو ما فهم من اللفظ في غير محل النطق^(١).

أو هو عبارة عن دلالة اللفظ على ثبوت حكم المنطوق للمسكوت عنه^(٢).

المسألة الثانية - أقسام المفهوم:

ينقسم المفهوم على قسمين:

الأول - مفهوم الموافقة:

وهو ما يكون اللفظ في محل السكوت موافقاً لمدلوله في محل النطق، نفيًا

أو إثباتًا لاشتراكهما في معنى يدرك بمجرد اللغة، ويسمى بفحوى الخطاب، أن

كان أولى بالحكم من المنطوق به، ويلحن الخطاب، إن كان مساويًا له^(٣).

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ

لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٤) فهذا النص يدل بمنطوقه على تحريم التأفف، ويدل

(١) ينظر: شرح العضد: ١٧١/٢، والإتقان: للسيوطي: ٦٠/٣، وشرح جمع الجوامع: للمحلي: ١/٢٤٠،

ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٥٠.

(٢) ينظر: أسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٧٧.

(٣) ينظر: المستصفى: للغزالي: ١٩٠-١٩١، والأحكام: للآمدي: ٧٤/٣، وفواتح الرحموت: ١/٤٠٩

والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣٦٦.

(٤) سورة الإسراء: ٢٣.



بمفهومه على تحريم جميع الأذى مع أن تحريم التأفيف منطوق وتحريم الضرب مثلا مفهوم، وهو تنبيه بالأدنى على الأعلى وهذا هو فحوى الخطاب ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾^(١) فهذه الآية الكريمة أفادت بمنطوقها تحريم أكل أموال اليتامى ظلماً، وتدل بمفهومها على تحريم إحراقها أو تبديدها أو إتلافها بأي نوع من أنواع الإتلاف؛ لأن هذه الأمور تساوي أكل أموالهم ظلماً بجامع الاعتداء على مال اليتيم وهذا هو لحن الخطاب ما كان المفهوم فيه مساوياً لحكم المنطوق^(٢).

الثاني - مفهوم المخالفة:

وهو ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت مخالفاً لمدلوله في النطق؛ وذلك لانتفاء قيد من القيود المعدة في الحكم أو هو ما خالف حكمه حكم المنطوق^(٣).

وهو على أنواع منها:

١ - مفهوم الصفة: هو دلالة النص على ثبوت الحكم المقيد بوصف لمن انتفى عنه ذلك الوصف^(١).

(١) سورة النساء: ١٠.

(٢) ينظر: المستصفي: للغزالي: ٢/ ١٩٠-١٩١، والأحكام: للآمدي: ٣/ ٧٤، وفواتح الرحموت: ١/ ٤٠٩ والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣٦٦.

(٣) ينظر: الأحكام: للآمدي: ٣/ ٨٦، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٧٧، ودراسات في أصول التفسير: محسن عبد الحميد: ٨٨.

والمراد بها الصفة المعنوية، وذلك بأن يكون في المنطوق صفة لا توجد في المفهوم فيختلف الحكم، سواء كانت هذه الصفة:

نعتاً: كقوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢) فالمنطوق أن شهادة الفاسق لا تقبل، والمفهوم أن شهادة العدل تقبل. فيجب قبول خبر الواحد الثقة.

حالاً: كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾^(٣) فالمنطوق أن الجزاء يجب على من كان متعمداً والمفهوم أن غير المتعمد لا يجب عليه شيء.

ظرفاً: سواء كان زمنياً كقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾^(٤) ومفهومه أن الحج في غير هذه الأشهر لا يصح. أو ظرفاً مكانياً كقوله سبحانه: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾^(٥) ومفهومه أن ذكر الله عند غير المشعر الحرام لا يدخل في هذه الآية.

(١) ينظر: إرشاد الفحول: للشوكاني: ٣٠٦، والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدن: ٣٦٦، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٩٠.

(٢) سورة الحجرات: ٦.

(٣) سورة المائدة: ٩٥.

(٤) سورة البقرة: ١٩٧.

(٥) سورة البقرة: ١٩٨.



عددا: كقوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾^(١) فالمنطوق ثمانين جلدة والمفهوم ألا يجلدوا أقل من الثمانين ولا أكثر منها.

٢- مفهوم الشرط: هو دلالة النص على ثبوت نقيض الحكم المعلق على شرط عند عدم وجود ذلك الشرط^(٢).

ومن أمثلة مفهوم الشرط قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(٣) فقد دلت الآية الكريمة على وجوب النفقة للمطلقة طلاقاً بائناً إذا كانت حاملاً، ودلت بمفهوم المخالفة على انتفاء هذا الحكم عند عدم الحمل^(٤).

٣- مفهوم العدد: هو دلالة النص على ثبوت نقيض الحكم المقيد بعدد، فيما عدا ذلك العدد، زائداً كان أو ناقصاً^(٥).

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾^(٦) فمفهوم المخالفة يدل على عدم جواز الجلد أقل أو أكثر من هذا العدد.

(١) سورة النور: ٤.

(٢) ينظر: فواتح الرحموت: ١ / ٤٢١، والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣٦٧، ودراسات في أصول تفسير القرآن: محسن عبد الحميد: ٩٠، ودراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٥٢.

(٣) سورة الطلاق: ٦.

(٤) ينظر: علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف: ١٨٠، والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣٦٧.

(٥) ينظر: فواتح الرحموت: ١ / ٤٣٢، والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣٦٩، وأسباب اختلاف الفقهاء: مصطفى الزلمي: ١٩٣، ودراسات في أصول تفسير القرآن: محسن عبد الحميد: ٩٠.

(٦) سورة النور: ٤.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةٌ
أَيَّمِنَ كُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾^(١)، فمفهوم المخالفة يدل على عدم
أجزاء الصيام بغير هذا العدد^(٢).

٤ - مفهوم الغاية: وهو دلالة النص على ثبوت نقيض الحكم المقيد بغاية، بعد
تلك الغاية^(٣).

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا
غَيْرَهُ﴾^(٤) فقد دلت الآية على عدم حل المطلقة ثلاثاً، وهذا الحكم مقيد بغاية
وهي زواجها بغير مطلقها، ويدل بمفهوم المخالفة على حل زواجها بمطلقها
بعد هذه الغاية أي بعد فرقتها من زوجها الثاني وانتهاء عدتها.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٥) فقد دلت
الآية بمفهوم المخالفة على نفي القتال إذا فاءت الفئة الباغية إلى أمر الله؛ وذلك لأن
الحكم مقيد بغاية فدل على عدم قتالهم بعد هذه الغاية^(٦).



(١) سورة المائدة: ٨٩.

(٢) ينظر: علم أصول الفقه: للخلاف: ١٨٠، والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣٦٩.

(٣) ينظر: فواتح الرحموت: ١/ ٤٣٢، وأصول الفقه: مصطفى الزلمي: ٤٢٦، والوجيز في أصول الفقه: عبد
الكريم زيدان: ٣٦٨، ودراسات في أصول تفسير القرآن: محسن عبد الحميد: ٩٠، دراسات في علوم القرآن:
فهد عبد الرحمن الرومي: ٤٥٢.

(٤) سورة البقرة: ٢٣٠.

(٥) سورة الحجرات: ٩.

(٦) ينظر: أصول الفقه: للخلاف: ١٨٠، والوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان: ٣٦٨.



المبحث الثالث شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة



وقد اشترط العلماء للاحتجاج بمفهوم المخالفة شروطاً منها:

أولاً- ألا يكون للمسكوت عنه المراد إعطاؤه حكماً مخالفاً لحكم

المنطوق دليل خاص يدل على حكمه:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ

خِفْتُمْ﴾^(١) فمفهوم الآية أنه في حالة الأمن لا تقصر الصلاة، والصواب أنه لا

يصح الاحتجاج بهذا المفهوم؛ لأن قصر الصلاة في حالة الأمن ورد بنص آخر

صريح ومنطوق، وهو أقوى من المفهوم في هذه الآية.

ثانياً- ألا يكون القيد خرج مخرج الغالب:

وذلك كالقيد بالحجور في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّائِكُمْ الَّتِي فِي

حُجُورِكُمْ﴾^(٢) فالرببية وهي بنت الزوجة تحرم على زوج الأم ومفهوم

المخالفة أنها إذا لم تكن في حجر الزوج لا تحرم عليه، والصحيح أنها تحرم سواء

كانت في حجره أم لم تكن، وإنما ذكر القيد لأن الغالب أن بنت الزوجة تعيش

عند أمها مع الزوج الجديد ولا أثر لذلك في الحكم.

ثالثاً- ألا يكون القيد المذكور لبيان فائدة أخرى غير تقييد الحكم:

(١) سورة النساء: ١٠١.

(٢) سورة النساء: ٢٣.

كالترغيب، أو الامتنان، أو التنفير، أو التفخيم، أو لبيان الواقع، فإن كان القيد لفائدة أخرى غير تقييد الحكم لم يكن له أثر في تقييد الحكم^(١).

فقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾^(٢) لا يدل على أن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضغافاً مضاعفة فهو يحرم ولو كان قليلاً، وإنما وصف بالأضغاف المضاعفة للتنفير مما كانوا عليه في الجاهلية من الظلم.

وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾^(٣) فالقيد بالطري للامتنان وليس لتحريم غير الطري.



(١) تفسير النصوص: د. محمد أديب صالح ج ١ ص ٦٧٨.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٠.

(٣) سورة النحل: ١٤.



الفصل الثاني عشر

إعجاز القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الإعجاز وإثباته.

المبحث الثاني: عناية العلماء به وأهم المؤلفات فيه.

المبحث الثالث: وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.

المبحث الأول تعريف الإعجاز وإثباته



مدخل:

جرت سنة الله **جَلَّ جَلَالُهُ** في النبوات أن يزود النبي بآية - معجزة - تكون دليل صدقه، وذلك لأن النبي لا يتميز عن البشر بشيء مادي في خلقته ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾^(١).

لذا قال العلماء: المعجزة قرينة الرسالة^(٢).

فكل نبي له معجزاته أو معجزته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

لذا أيد الله كل رسول من رُسله بالمعجزة التي تناسب من أرسل إليهم، وتكون في بيئته دلالة على صدقه وأشد إقحاماً لمن كذبوا به.

فموسى **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** أيدته الله بعصاه السحرية؛ لأنه بعث إلى فرعون وقومه في زمن كثر فيه السحرة، ومهروا في سحرهم؛ ولهذا وصفهم الله بقوله:

(١) سورة الكهف: ١١٠.

(٢) انظر مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم، ص ٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٨٢) برقم: (٤٩٨١)، ومسلم في "صحيحه" (١ / ٩٢) برقم: (١٥٢).



﴿قَالَ الْقَوَّاءُ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرَهُبُهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلِبُوا هنَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (١).

وهكذا أعجزهم الله في أظهر مظاهر قوتهم، وهزمهم في الميدان الذي باهوا فيه بعددهم وأسلحتهم، وقام هذا دليلاً على أن موسى مؤيد من الله، وصادق في دعواه أنه رسول الله.

وعيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أيده الله بمعجزات طيبة؛ لأنه بعث في زمن مهر فيه الأطباء، وحسبوا أنهم بلغوا في طبهم الغاية، فجاءهم عيسى بآيات من ربهم في إحياء الموتى، وفي علاج من لا علاج له من المرضى؛ ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (٢).

ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيده الله بمعجزة القرآن؛ لأنه بعث في بيئة عربية في زمن كان العرب فيه يزعمون أنهم استتوا على عرش البلاغة والفصاحة، وملكوا فنون القول، وأتوا الحكمة وفضل الخطاب.

وقد قال النعمان بن المنذر بين يدي كسرى في وصفهم: «وأما حكمة

(١) سورة الأعراف: ١١٦-١٢٢.

(٢) سورة آل عمران: ٤٩.

ألستهم، فإن الله أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم. مع معرفتهم بالأشياء، وضربهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات ما ليس لغيرهم»^(١).

وكانت أسواقهم ميادين للخطباء والشعراء، وضرب الأمثال.

فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لحكمته البالغة، أيد محمداً بالقرآن؛ ليُقحمهم في أعز ميادينهم، ويقنعهم بما لا سبيل لهم إلى الجدل فيه، ويُقيم لهم برهاناً هم أقدر الناس على إدراكه والإذعان له.

فالقرآن الكريم هو البرهان على صدق الرسول في دعواه أنه رسول من الله، وهو المعجزة الخالدة التي تبقى على مرّ السنين دلالة، وتتجلى بالبحث وإمعان النظر وجوه إعجازه.

وهذا المبحث فيه مسألتان:

المسألة الأولى - تعريف الإعجاز:

الإعجاز لغة: مشتق من العجز. والعجز: الضعف أو عدم القدرة.

والإعجاز مصدر «أعجز»: وهو بمعنى الفوت والسبق^(٢).

والمعجزة في اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم

من المعارضة^(٣).

وإعجاز القرآن: يقصد به إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله، أي نسبة

العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم على الإتيان بمثله.

المسألة الثانية - إثبات الإعجاز:

(١) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، (١/٥٢).

(٢) راجع لسان العرب لابن منظور، مادة «عجز»، والمفردات للراغب الأصفهاني ص ٣٢٢.

(٣) انظر معنى ذلك في تفسير القرطبي ١ / ٩٦ وفتح الباري ٦ / ٥٨١.



فقد ثبت أن الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** تحدى العرب بالقرآن على مراحل

ثلاث:

أ- تحداهم بالقرآن كله في أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحدياً يظهر على طاقتهم مجتمعين، بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ۝٨٨﴾^(١).

ب- ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣﴾ فإلّا يستجيبوا لكم فأعلموا أنّما أنزل يعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ۝١٤﴾^(٢).

ج- ثم تحداهم بسورة واحدة منه في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ﴾^(٣)، وكرر هذا التحدي في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾^(٤).

ومن عنده إمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثة الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** التي رقت بلغة العرب وهذبت لسانها وجمعت خير ما في لهجاتها من أسواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر، حتى انتهى مصب

(١) سورة الإسراء: ٨٨.

(٢) سورة هود: ١٣-١٤.

(٣) سورة يونس: ٣٨.

(٤) سورة البقرة: ٢٣.

جداول الفصاحة وإدارة الكلام بالبيان في لغة قريش التي نزل بها القرآن، وما كان عليه العرب من صلف يعلو بأحدهم على أبناء عمومته أنفًا وكبراً مضرب مثل في التاريخ الذي سجل لهم أياماً نُسبت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك وحروب طاحنة أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة.

ومثل هؤلاء مع توفر دواعي اللسان وقوة البيان التي يوقدها حماس القبيل ويؤججها أتون الحمية لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأثر هذا عنهم، وتطائر خبره في الأجيال، فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب وقلبوها على وجوه ما نبغوا فيه من شعر ونثر فلم يجدوا مسلكاً لمحاكاته، أو منفذاً لمعارضته، بل جرى على ألسنتهم الحق الذي أخرسهم عفو خاطر عندما زلزلت آيات القرآن الكريم قلوبهم كما أثر ذلك عن الوليد بن المغيرة، وعندما عجزت حيلتهم رموه بقول باهت فقالوا: سحر يُؤثر، أو شاعر مجنون، أو أساطير الأولين. ولم يكن لهم بد أمام العجز والمكابرة إلا أن يعرضوا رقابهم للسيوف، وكأن اليأس القاتل ينقل بنيه من نظرتهم للحياة الطويلة والعمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزؤام - وبهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مرأء^(١).



(١) مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان، ص (٢٦٦).



المبحث الثاني عناية العلماء به وأهم المؤلفات فيه



وهذا المبحث فيه مسألتان:

المسألة الأولى - عناية العلماء بإعجاز القرآن:

لم يكن الإعجاز القرآني في عصر الصحابة والتابعين قضية تحتاج منهم إلى نظر واستدلال، فقد استيقنتها قلوبهم، وشهدت بها قرائحهم العربية الصافية النقية، وعلموا بالسليقة والفطرة أن القرآن كلام لا يدانيه كلام، وحديث ليس كمثل حديث.

وكان لهم من واقعهم ما يملأ بذلك قلوبهم إيماناً لا يخالجه شك في أيّ وجه من وجوه إعجازه التي عرفوها بملكاتهم العقلية، ولم يفصحوا عنها بألسنتهم، لعدم وجود ما يستدعي ذلك الإفصاح؛ لأن الجميع كانوا في أمر الإعجاز على قلب رجل واحد.

فلَمَّا مضى عصر الصحابة والتابعين، وجاء القرن الثالث الهجري، واختلط العرب بالأعاجم، وفسدت أذواق بعض الناس في أمر المعاني التي يحملها نظم الكلام العربي بوجه عام، والنظم القرآني بوجه خاص، وظهر في الناس من يثير الشبهات، ويختلق الأقاويل على القرآن والسنة، ويخلط بين الدين والفلسفة اضطر العلماء الأخيار أن يدافعوا بجد وإخلاص عن كتاب ربهم **عَزَّوَجَلَّ**، وسنة نبيهم **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فعقدت مجالس العلم في كل وادٍ ونادٍ، للرد على ما يُثار من

شبهات، وما يردُّ من قِبَلِ أعداء الإسلام من اعتراضات تمسُّ جوهر العقيدة، وأصول الشريعة، ومن بينها قضية «إعجاز القرآن».

فقد خاض فيها كثير من المعتزلة والخوارج، وقالوا فيها ما لا ينبغي أن يقال، فانبرى أهل التفسير والحديث والفقهاء يفتنون مزاعمهم، ويسفّهون آراءهم، واتسعت حلبة النزال في هذا الميدان.

وأُلِّفت في هذه القضية كتب كثيرة يتحدّث فيها مصنّفوها عن وجوه الإعجاز القرآني، ومناحيه ومسائله المتعلقة به.

المسألة الثانية - أهم المؤلفات في إعجاز القرآن:

لما كثرت الكلام في قضية الإعجاز القرآني في مجالس العلم، نهض جمعٌ من العلماء بتدوين ما كان يقال في كتب ورسائل خاصة بين أهل العلم.

فأول كتاب يحمل هذا المصطلح في عنوانه فهو كتاب «إعجاز القرآن» الذي ألفه محمد بن زيد الواسطي المتوفى (ت: ٣٠٦هـ)^(١) وهو كتاب مفقود. إلا أن أقدم كتاب خاص بإعجاز القرآن وصل إلينا هو «النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٤هـ) وهو من أئمة المعتزلة.

ثم تابعت المؤلفات بعد ذلك وكثرت كثرة لا تكاد تحصى قديماً وحديثاً وليس من السهل حصرها كلها وسأذكر بعض هذه المؤلفات إجمالاً.

فمن المؤلفات قديماً:

١ - النكت في إعجاز القرآن:

(١) الفهرست: ابن النديم ص ١٧٢ أو ص ٢٤٥، والأعلام: الزركلي ج ٦ ص ١٣٢. وانظر فكرة إعجاز القرآن: نعيم الحمصي ص ٨، وإعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د. منير سلطان ص ٥٠.



لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٤هـ)^(١) وهي رسالة مختصرة جاءت جواباً لسؤال عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وتقع في سبع وثلاثين صفحة طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٢- بيان إعجاز القرآن:

لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت: ٣٨٦هـ) وهي أيضاً رسالة مختصرة تقع في ٤٧ صفحة وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٣- إعجاز القرآن:

لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي (ت: ٤٠٣هـ) طبع بتحقيق عماد الدين أحمد حيدر في مجلد واحد يقع في ٣٢٥ صفحة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ مكتبة العلوم والحكم في المدينة المنورة.

٤- الرسالة الشافية:

لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) وهي رسالة موجزة لكنها شاملة قرر فيها أن الإعجاز ثابت عن طريق عجز العرب عن معارضة القرآن، وقرر أن العبرة بعجز العرب المعاصرين لنزوله دون المتأخرين عن زمانه، ورد على القول بالصرفة، وتقع هذه الرسالة في حوالي ٤٠ صفحة وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

٥- دلائل الإعجاز:

وهو أيضاً لعبد القاهر الجرجاني في مجلد طبع أكثر من مرة بتحقيق أحمد مصطفى المراغي، وطبع كذلك بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي.

(١) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم ص ٤٣.

٦- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز:

للفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ) اختصر فيه كتابي «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» لعبد القاهرة الجرجاني وزاد فيه بعض الفوائد، طبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧هـ.

٧- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن:

لعبد الواحد الزملكاني (ت: ٦٥١هـ) طبع بتحقيق د. خديجة الحديثي، ود. أحمد مطلوب في بغداد الطبعة الأولى عام ١٣٩٤هـ وتقع مع الفهارس في ٤٣٢ صفحة. وللزملكاني أيضًا كتاب «التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» طبع في بغداد أيضًا عام ١٣٨٣هـ.

٨- معترك الأقران في إعجاز القرآن:

لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) طبع في ثلاثة مجلدات الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

وأما المؤلفات الحديثة:

فكثيرة جدًا في مختلف أوجه الإعجاز، أذكر بعض أشهرها:

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:

للأستاذ مصطفى الرفاعي (ت: ١٣٥٦هـ) طبع عدة مرات في مصر. وهو بحق من أفضل المؤلفات في موضوعه قديمًا وحديثًا.

٢- النبأ العظيم:

د. محمد عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧هـ) وهو كتاب في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم أحد ثلاثة أنواع من الإعجاز وعد المؤلف بالكتابة عنها فأتى الأول،



وتوفي قبل تمام الباقي، وامتاز بأسلوبه الأدبي المتميز، ودقة استنباطه، وسلاسة لفظه، يقع في ٢١٦ صفحة وطبع أكثر من مرة.

٣- مباحث في إعجاز القرآن:

د. مصطفى مسلم وكتبه مؤلفه لطلاب قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمادة إعجاز القرآن، وهو كتاب قيم يقع في حوالي ثلاثمائة صفحة.

٤- فكرة إعجاز القرآن:

تأليف نعيم الحمصي وهو في أصله مقالات نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ثم جمعها في هذا الكتاب وصدرت طبعته الأولى عام ١٣٧٤هـ والثانية ١٤٠٠هـ ويقع في حوالي خمسمائة صفحة وهو عرض لقضية إعجاز القرآن الكريم منذ البعثة إلى حين تأليفه.

٥- البيان في إعجاز القرآن:

د. صلاح الخالدي وألفه حين درس مادة إعجاز القرآن في كلية المجتمع في الأردن، ولم يجد كتابًا يجمع جزئيات وحدات المادة كما يقول فألف هذا الكتاب، ويقع في حوالي أربع مائة صفحة^(١).



(١) دراسات في علوم القرآن: فهد عبد الرحمن الرومي: (٢٦٧-٢٦٩).

المبحث الثالث وجوه الإعجاز في القرآن الكريم



يمكن إجمال وجوه إعجاز القرآن في أربعة أوجه:

الوجه الأول - الإعجاز البياني:

ويقصد به نظم القرآن المحكم: فلو رفعت كلمة من القرآن وأدير لسان العرب لكي توضع كلمة أخرى مكانها لم يستطع أحد إلى ذلك سبيلاً، فالكلمات القرآنية فيها من دقة المعاني وجمال اللفظ والترابط مع مثيلاتها في الآية كنظم الدرر الذي لا يدرك أوله من آخره في التناسق والتناسب، وكذلك الأسلوب القرآني المعجز الذي يجمع بين الفخامة والعدوبة^(١) والسلاسة والدقة في التعبير عن المعاني، وقد بلغ الأسلوب القرآني القمة في الفصاحة والبلاغة في شتى المجالات والبيانات التي تعرض لها القرآن الكريم، وهذه الظاهرة عامة في كل سور القرآن الكريم، سواء ما نزل فيها في المرحلة المكية أم المرحلة المدنية، ولا اختلاف أو تباين في الأسلوب القرآني ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢) ^(٣).

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، رسالة الخطابي (بيان إعجاز القرآن)، ص ٢٦.

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) من أمثلة الإعجاز البياني قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. حيث اشتملت الآية الكريمة على أمرين ونهيين، وخبرين، وبشارتين. وتنكير كلمة حياة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِ﴾ (سورة البقرة: ٩٦) يعبر تعبيراً دقيقاً عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها مهما كانت



الوجه الثاني - الإعجاز العلمي:

والمراد به اللفات والإشارات التي جاءت في القرآن الكريم إلى المخلوقات لإبراز عظمة الله تعالى وقدرته ووحدانيته من خلال دقة صنعها، فقد جاءت آيات كثيرة تشير إلى حقائق في الكون (الفلك) وفي الطبيعة (الجبال، والأنهار، والنبات)، (والحيوان والإنسان) وغير ذلك، وكلما تقدم العلم واكتشفت البشرية حقائق وسنناً في الكون نجد إشارات في القرآن إلى هذه الجوانب سبقت العلم إلى ذلك، ولم يستطع أحد إلى يومنا هذا أن يبطل حقيقة من الحقائق التي ذكرها القرآن، ويدعي أنها مصادمة للحقائق العلمية المسلم بها عند أهل الاختصاص.

وقد تعهد القرآن الكريم أن يبرز جوانب من إعجازه في كل عصر؛ ليقم بذلك الحجة على كل جيل، ويبين لهم أن القرآن منزل من عند الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ

حقيرة القدر ضئيلة القيمة، ومن الآيات البديعة، التي جمعت بين الإعجاز والإطناب، في أسلوب رفيع من النظم بديع، قول الله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (النمل: ١٨) ففيها النداء: {يا}. والكناية: {أي}. والتنبيه: {ها}. والتسمية: {النمل}. والأمر: {ادخلوا}. والقصص: {مساكنكم}. والتحذير: {لا يحطمنكم}. والتخصيص: {سليمان}. والتعميم: {جنوده}. والإشارة: {هم}. والعذر: {لا يشعرون}.

فأدّت هذه النملة بذلك خمسة حقوق: حق الله تعالى، وحق رسوله، وحقها، وحق رعيته، وحق الجنود. فأما حق الله تعالى فإنها استرعت على النمل، فقامت بحقهم. وأما حق سليمان عليه السلام فقد نبّهته على النمل. وأما حقها فهو إسقاطها حق الله تعالى عن الجنود في نصحهم. وأما حق الرعية فهو نصحها لهم؛ ليدخلوا مساكنهم. وأما حق الجنود فهو إعلامها إياهم. وجميع الخلق، أن من استرعاها الله تعالى رعية، وجب عليه حفظها، والذب عنها، وهو داخل في قوله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته".

أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ (١).

وهذا الوعد منسجم تماماً مع الرسالة الخاتمة المستمرة إلى يوم القيامة؛ فلا بد أن تكون معجزتها أيضاً مستمرة دائمة متجددة.

إن الحقائق الكونية التي جاءت في القرآن الكريم، لا يستطيع أحد من البشر أن يحيط بها مهما اتسعت مداركه العلمية، فكيف يكون الحال إذا جاءت هذه الحقائق على لسان رجل أمي عاش في بيئة أمية، لا شك أن هذا يدل دلالة قاطعة أن القرآن منزل من الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢) (٣).

الوجه الثالث - الإعجاز التشريعي:

من وجوه الإعجاز ومظاهره البارزة في القرآن ما تضمنه هذا الكتاب من التشريع العظيم الدقيق، المتعلق بشتى مرافق الحياة الخاصة والعامة، يتناولها

(١) سورة فصلت: ٥٣.

(٢) سورة الفرقان: ٦.

(٣) من أمثلة الإعجاز العلمي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (سورة النبأ: الآية ٧، ٨) إشارة إلى شكل الجبل الظاهر والباطن، وأدركه العلماء بعد ذلك. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون: الآية ١٤) إشارة إلى مراحل خلق الإنسان في الرحم ولم يدركها العلماء إلا في العصور الحديثة. وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤]، في إشارة إلى البصمات وتحقق الشخصية. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (سورة النساء: الآية ٥٦) إشارة إلى مركز الحس بالألم في الإنسان وهو الجلد. وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]، إشارة إلى السوائل الثلاثة المحيطة بالجنين. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقد أثبت العلم أن الماء عنصر أساسي في الحياة. للمزيد من الأمثلة على الإعجاز العلمي انظر كتاب مباحث في إعجاز القرآن، ص ١٥٧ وما بعدها.

منذ البداية حتى النهاية، لا يدع جانباً من جوانبها إلا ويضع له من الحلول والتنظيمات ما هو فريد في بابه، لم يسبق إليه شرع قبله ولا لحق به تقنين بعده، يدل على ذلك: أن هذا التشريع - كان ولا يزال - يحسب حسابه في كل مجال يبحث فيه شأن التشريع والتقنين، ويضعه علماء هذا الفن في مقدمة المصادر التي يستفاد منها ويعتمد عليها.

وهذا كله رغم تباعد الزمن ومرّ الدهور على عصر صدوره، علماً بأن صاحبه - الذي ينسب إليه - لم يدرس في جامعة ولم يتخرج في كلية، كما لم يعهد عنه أنه توفر على دراسة تشريع أو اجتمع بباحث، وبعض هذا آية الإعجاز فكيف إذا اجتمع؟! ويتجلى هذا المظهر من الإعجاز التشريعي في:

أ- أن القرآن يبدأ بتربية الفرد - لأنه لبنة المجتمع - وقيم تربيته على تحرير وجدانه وتحمله التبعة، يحرر وجدانه بعقيدة التوحيد التي تخلصه من سلطان الخرافة والوهم، وتجعله يشعر بأنه مخلوق لله، يرجع إليه ويفنى كما يوجد بمشيئته: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

وإذا صحت عقيدة المسلم أخذ بشرائع القرآن في الفرائض والعبادات التي يراد بها صلاح الفرد، وهي في الوقت نفسه ذات علاقة وثيقة بصلاح المجتمع، وحسب المسلم في تربيته أن يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم الواحد لتمتزج حياته بشرع الله، ويتخيل الوازع الأعلى نصب عينيه ما بين كل صلاة

(١) سورة الحديد: ٣.

وصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).

وناهيك بالزكاة التي تقتلع من النفس جذور الشح: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ

صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٢).

والحج الذي يجمع المسلمين على صعيد واحد: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾^(٣).

والقيام بهذه العبادات يربي المسلم على الشعور بالتبعية الفردية التي يقررها

القرآن، وینوط بها كل تكليف من تكاليف الدين: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ

رَهِيْنٌ﴾^(٤).

ب- ومن تربية الفرد ينتقل القرآن إلى بناء الأسرة؛ لأنها نواة المجتمع، فشرع

الزواج استجابة لغريزة الجنس، وإبقاء على النوع الإنساني في تناسل طاهر

ونظيف، وأقام الروابط بينهما على أساس من الود والرحمة، ومراعاة

خصائص كل من الرجل والمرأة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٥).

(١) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٢) سورة التوبة: ١٠٣.

(٣) سورة الحج: ٢٨.

(٤) سورة الطور: ٢١.

(٥) سورة الروم: ٢١.



ج- ثم يقرر نظام الحكم الذي يقوم على أساس الشورى والمساواة ومنع السيطرة ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(١) رائده العدل: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٢) وطريقه العمل بشرع الله: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^(٣) والعدول عن حكم الله كفر وفسوق وظلم: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٥) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٦).

د- ثم يأتي تقرير الأحكام التي من شأنها صيانة الكليات الخمس الضرورية للحياة الإنسانية: الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال. وعلى أساس هذه الصيانة رتبت العقوبات المنصوصة التي تعرف في الفقه الإسلامي بالجنايات والحدود.

ه- ثم يقرر القرآن العلاقات الدولية في حالي الحرب والسلام بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم، وهي أرفع معاملة عرفت في تاريخ الحضارة الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(٧). ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ

(١) سورة الشورى: ٣٨.

(٢) سورة النساء: ٥٨.

(٣) سورة المائدة: ٤٩.

(٤) سورة المائدة: ٤٤.

(٥) سورة المائدة: ٤٥.

(٦) سورة المائدة: ٤٧.

(٧) سورة الأنفال: ٦١.

عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا
إِلَيْهِمْ^(١).

وخلاصة القول: إن القرآن دستور تشريعي كامل، يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال، وسيظل تشريعه وجهًا من وجوه إعجازه ما بقي الدهر، ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثرًا غير وجه التاريخ.

الوجه الرابع - الإعجاز الغيبي:

وبقصد بهذا الوجه ما ورد في القرآن الكريم من الأخبار الغيبية سواء ما كان متعلقًا منها:

أ. بالماضي السحيق: كبدء خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وأخبار الأمم السابقة مع الأنبياء، وغيرها من الأحداث التي لا يستطيع أحد الاطلاع عليها إلا عن طريق النقل، ولم يكن أحد من بيئته قريش يعلمها يقول جل ثناؤه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

ب. أم كانت هذه الغيوب في عصر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنه لم يحضر حوادثها فأخبر القرآن الكريم عنها لاطلاع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يجري في غيبته، وخاصة ما كان يحيكه اليهود والمنافقون في الخفاء لحرب الله ورسوله، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ

(١) سورة الممتحنة: ٨.

(٢) سورة هود: ٤٩.



يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنِ
 قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمِهِمْ
 آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ
 أُوتِينَا هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ
 فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ
 يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
 ﴿٤١﴾ .^(١)

وكما جاءت الآيات تعري حقيقة المنافقين وما كانوا يقولونه في غيبة رسول
 الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٢) .

ج. أم كانت الأخبار الغيبية تتعلق بأحداث ووقائع في المستقبل.

وغيب المستقبل له أقسام:

١ - قسم أخبر به القرآن الكريم ووقع في حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في
 قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾^(٣) ، وقوله تعالى: ﴿الْمَ ۝١
 عُلْبَتِ الرُّومِ ۝٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣
 فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ

(١) سورة المائدة: ٤١ .

(٢) سورة الأحزاب: ١٢ .

(٣) سورة القمر: ٤٥ .

﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(١) ، وما أخبر عنه بموت بعض الكفار من قريش على كفرهم.

٢- وقسم أخبر عنه القرآن الكريم ووقع بعد وفاة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْتَلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾^(٢) ، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٣).

٣- وقسم أخبر عنه القرآن الكريم لم يقع بعد، وسيقع حتماً؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، كالأحداث التي تكون قبل قيام الساعة من اختلال النظام الكوني ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾^(٤) ، ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾^(٥) وَإِذَا الْكُوكَبُ أَنْتَثَرَتْ﴾^(٥) ، وخروج يأجوج ومأجوج قبل ذلك.

إن أخبار الغيوب التي أخبر عنها القرآن الكريم سواء ما كان منها في الماضي السحيق، أو الحاضر الذي جرى في عهد رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، أم ما أخبر عن وقوعه في مستقبل الأيام، ما كان لبشر عاقل أن يربط مصير دعوته بهذه الأمور الغائبة لو لم يكن على ثقة مطلقة من الركن القوي الذي يستند إليه في

(١) سورة الروم: ١-٥.

(٢) سورة الفتح: ١٦.

(٣) سورة النور: ٥٥.

(٤) سورة القيامة: ٩.

(٥) سورة الانفطار: ١-٢.



إطلاق هذه الأخبار، إن أنباء الغيب التي طابقت ما كان عند أهل الكتاب من الأخبار الماضية، وما اعترف بها أصحابها في عهد رسول الله ﷺ وما كان في مستقبل الأيام لدليل ظاهر على أن الرسول ﷺ يتلقى القرآن من لدن حكيم خبير^(١).



(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/٢٦٩.

الفصل الثالث عشر

تفسير القرآن الكريم

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التفسير.

المبحث الثاني: نشأة علم التفسير.

المبحث الثالث: مصادر التفسير.

المبحث الرابع: أنواع التفسير.

المبحث الخامس: شروط المفسر.



المبحث الأول تعريف التفسير



التفسير لغة:

مصدر فسر بتشديد السين مأخوذ من الفسر، وهو البيان يقال: فسر الشيء يفسره بضم السين وكسرهما، فسرأً أبانه، ومثله فسر - بتشديد السين - تفسيراً، فالتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل^(١).

وقد ورد في القرآن الكريم لفظ -التفسير- بمعنى الكشف والبيان قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٢)، أي جئناك بأحسن مما جاؤوا به من المثل بياناً وتفصيلاً.. وعن مجاهد وأحسن تفسيراً قال: بياناً^(٣).

وخلاصة القول إن التفسير في اللغة هو البيان والإيضاح في المعاني المعقولة، والكشف والإظهار في المحسوسات.

ومن الألفاظ التي تُستخدم للدلالة على التفسير، لفظ التأويل ولفظ المعنى. قال ابن الأعرابي **رَحِمَهُ اللهُ** (ت: ٢٣١)^(٤): «التفسير والتأويل والمعنى»

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس: ٤/٥٠٤، والصحاح: للجوهري: ٢/٦٦٩، ولسان العرب: لابن منظور: ٦/٣٦١.

(٢) سورة الفرقان: ٣٣.

(٣) ينظر: جامع البيان: للطبري: ١٩/١١، وأنوار التنزيل: للبيضاوي: ١٤/٢١٧، وتفسير القرآن العظيم: لابن كثير: ٣/٣٣٠.

(٤) محمد بن زياد الأعرابي، أبو عبد الله، كان لغويًا نسابًا، من أحفظ الكوفيين للغة، توفي سنة (٢٣١). ينظر:

واحد^(١). فإذا قال مفسرٌ: «معنى هذه الآية كذا»^(٢)، أو قال: «تأويلُ هذه الآية كذا»^(٣)؛ فإنَّ المرادَ بهاتينِ العبارتينِ: تفسيرُها.

هذا، وقد استخدمَ إمامُ المفسرينَ ابنُ جريرِ الطَّبْرِيُّ (ت: ٣٠٩) ^(٤) مصطلحَ التأويلِ بمعنى: التفسيرِ، في عنوانِ كتابه: «جامعُ البيانِ عن تأويلِ آيِ القرآن»، كما أنه يُطلقُ على أهلِ التفسيرِ: أهلَ التأويلِ، ويترجم لكلِ مقطعٍ من الآياتِ بقوله: «القول في تأويل قوله تعالى».

التفسير اصطلاحًا:

أما التفسير في الاصطلاح فقد عرفه العلماء بتعاريف كثيرة منها: «هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي يحمل عليها في حالة التركيب وتتمات لذلك»^(٥).

طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي (١٩٥ - ١٩٧)، ومراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي (ص: ١٤٧).

(١) تهذيب اللغة (٤٠٧: ١٢).

(٢) جاء في تاج العروس، مادة (عنى) ما نصه: «وعنى بالقول كذا؛ يعني: أرادَ وقصدَ» وفي مفردات ألفاظ القرآن، للراغب، تحقيق: صفوان داودي (ص: ٥٩١): «المعنى: إظهار ما تضمنه اللفظ، من قولهم: عنت الأرض بالنبات: أنبتته حسناً، وعنت القرية: أظهرت ماءها... والمعنى يقارن التفسير، وإن كان بينهما فرق». وينظر: عمدة الحفاظ، للسمين الحلبي، تحقيق: محمود الدغيم (ص: ٣٨٧).

(٣) قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط، مادة (أول) ما نصه: «أول الكلام تأويلاً، وتأوله: دبره وقدره وفسره».

(٤) محمد بن جرير الطبري، أحد أئمة العلماء المجتهدين، يُحكّم بقوله، ويُرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيها أحد من أهل عصره، وكتب في عدد من العلوم؛ كالتفسير والتاريخ والقراءات والفقه وأصول الفقه والحديث، توفي سنة (٣١٠). ينظر: تاريخ بغداد (١٦٢: ٢ - ١٦٩)، وطبقات المفسرين، للدودي (١١٢: ٢).

(٥) ينظر: البحر المحيط: لأبي حيان: ١٣/١.



وعرف التفسير أيضاً: «بأنه علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية»^(١).

ويمكننا أن نعرف التفسير بأنه علم يعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل على النبي محمد **صلى الله عليه وسلم** وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه بقدر الطاقة البشرية.



(١) ينظر: مناهل العرفان: للزرقاني: ١ / ٤٧١، والتفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي: ١ / ١٥، واللائي الحسان في علوم القرآن: موسى شاهين: ٣٢١، والواضح في علوم القرآن: مصطفى البغا، محي الدين ديب: ٢١٣، ودراسات في التفسير ورجاله: أبو اليقظان عطية الجبوري: ١٤، ومباحث في علم التفسير: عبد الستار حامد الدباغ: ١٥.

المبحث الثاني نشأة علم التفسير



القرآن الكريم هو منهج الله سبحانه تعالى للناس في كل ما يتعلق بأمر دينهم ودنياهم وأخراهم، من اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عنه فإن له معيشة ضنكاً، ويحشر يوم القيامة أعمى، ولما كان العمل به متوقفاً على بيان نضه، وتوضيح غرضه، فقد تكفل الله بذلك، حتى لا يكون للناس على الله حجة، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾^(١).

ومن هذا المنطلق فقد قيض الله للبشر في كل عصر من يبين لهم هذا النص القرآني، ويوضح لهم المقصود منه، وبدا هذا التقيض واضحاً منذ عهد النبي **صلى الله عليه وسلم** إلى الآن، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾^(٢).

فقد كان الصحابة **رضي الله عنهم** يسألون الرسول **صلى الله عليه وسلم** عما يشكل عليهم فهمه من القرآن، مثل:

سؤالهم له **صلى الله عليه وسلم** عندما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا

(١) سورة القيامة: ١٧-١٩.

(٢) سورة النحل: ٤٤.



إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴿١﴾ .

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ ﴿٢﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالُوا: أَيَّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٣﴾ (٤).

وفسر لهم معنى البياض والسواد في آية الصيام: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ﴿٥﴾ .

فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ﴿٦﴾ . عَمَدْتُ إِلَى عِقَالِ أَسْوَدٍ وَإِلَى عِقَالِ أَبْيَضٍ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وَسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ ﴿٧﴾ .

ولم يثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك تفسيراً كاملاً للقرآن، وذلك لأنه لم

(١) سورة الأنعام: ٨٢.

(٢) سورة الأنعام: ٨٢.

(٣) سورة لقمان: ١٣.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩ / ١٨) برقم: (٦٩٣٧) ومسلم في "صحيحه" (١ / ٨٠) برقم: (١٢٤).

(٥) سورة البقرة: ١٨٧.

(٦) سورة البقرة: ١٨٧.

(٧) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣ / ٢٨) برقم: (١٩١٦)، ومسلم في "صحيحه" (٣ / ١٢٨) برقم:

تكن هناك أسباب داعية إليه، فأصحابه كانوا يتمتعون بذكاء وسلامة فطرة منقطعة النظر، ومع ذلك وضح لهم ما أشكل عليهم، وهم بدورهم بلغوا ما فسرهم لهم، ووضحوا أيضا من خلال مشاهداتهم لنزول الوحي والأحوال المقترنة به ما وسعهم توضيحه.

ثم جاء عصر التابعين فتكلم الأئمة: منهم الحسن البصري وعكرمة مولي ابن عباس وسعيد بن المسيب، ثم مجاهد وقتادة وأبو إسحاق السبيعي... وغيرهم.

وكانت مرويات التفسير تروى على أنها أبواب من الحديث، ولم يظهر تفسير كامل استوعب القرآن من فاتحته إلى خاتمته إلا في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري على يد شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، ثم توالى التصنيف في التفسير والتفنن في مذهبه.

ولا زال إلى الآن يكتب في التفسير ويتوصل إلى جديد من معاني كلام الله تعالى، وسيظل ما دامت السماوات والأرض زاخراً بالمعاني التي يعد تفسيرها تجديداً لإعجازه.



المبحث الثالث مصادر التفسير



أعني بالمصادر هنا تلك المراجع التي يرجع إليها المفسرون من كتاب أو سنة وأقوال الصحابة وآراء للسلف في تفسيرهم القرآن الكريم، وذلك بغض النظر عن الاتجاه الذي اتجهه كل واحد منهم في تفسيره.

المصدر الأول - القرآن الكريم:

ويعتبر أهم مصادر التفسير على الإطلاق، بل هو أحسن وأصح الطرق أن يفسر القرآن بالقرآن، كما قال ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ** ^(١).

فإذا أردنا أن نعرف معنى آية فعلينا أن نطلب أول ما نطلب تفسيرها من القرآن نفسه؛ لأن القائل أحق من غيره في تفسير قوله عقلاً، فإذا ما وجدنا وتنازعنا في فهم آية رددناها إلى آية أخرى تفسرها: **﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾** ^(٢).

كيف تتم عملية تفسير القرآن بالقرآن؟

يشتمل القرآن على المجمل والمبين وعلى المطلق والمقيد. وعلى العام والخاص، فما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما جاء مطلقاً قد يلحقه التقييد في موضع آخر، وما جاء عاماً في آية قد يلحقه التخصيص في آية أخرى.

(١) مقدمة في أصول التفسير. ص ٩٣.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

فإذا أردنا أن نفسر آية من كتاب الله، علينا أن نجمع الآيات المتشابهة في الألفاظ أو في المعاني.

نوضح هذا بمثال من سورة الفاتحة بقوله تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١).

فقد ورد تفسيرها في سورة الانفطار: ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ^(١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ^(١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ^(١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ^(١٩).

فالله هو مالك يوم الدين، الذي لا يملك فيه أحد شيئاً؛ لأن الأمر كله إليه.

وفي سورة الفاتحة أيضاً: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ^(٧).

وجدنا تفسير صراط الذين أنعم الله عليهم من القرآن نفسه، وذلك في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾^(٤)^(٥).

ويقع في الخطأ والغلط من يفسر الآية القرآنية بمدلولها المتبادر إلى الذهن لأول وهلة، دون تأمل وتدبر لمعانيها في القرآن الكريم.

انظر إلى من فسر قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

(١) سورة الفاتحة: ٤.

(٢) سورة الانفطار: ١٥-١٩.

(٣) سورة الفاتحة: ٦-٧.

(٤) سورة النساء: ٦٩.

(٥) وهذا التفسير لابن عباس والجمهور، انظر «تفسير أبي حيان» ١ / ٢٨.



وَأَزْوَاجَهُمْ^(١) فقال: احشروا الظالمين وزوجاتهم، أي رجالا ونساء.

فلو تدبر الألفاظ القرآنية في كلمة الزوج لوجدها قد استعملت في معان

ثلاثة^(٢).

- فالأزواج بمعنى الحلائل للرجل وامرأته، فذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ

فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٥﴾^(٣) يعني بالأزواج: الحلائل في

الآخرة، أما الأزواج بمعنى امرأة الرجل فقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا

تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ^(٤)، أي: زوجاتكم في الدنيا بعد موتهن.

- والأزواج بمعنى الأصناف فذلك كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ

الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ^(٥)، أي: الأصناف من كل صنف من

النبت.

- والأزواج يعني القرناء فالزوج هنا يعني القرين أو النظير أو الشبيه، ولا

شك في أن هذا هو المعنى المناسب لقوله تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا

وَأَزْوَاجَهُمْ^(٦) أي: احشروا الظالمين وقرناءهم في جهنم، فهذا الأنسب، وهو

زيادة في حسرتهم وندامتهم، كما قال بعض المفسرين: يحشر الزناة مع الزناة،

(١) سورة الصافات: ٢٢.

(٢) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم - دراسة وموازنة، ص ٣٥١.

(٣) سورة البقرة: ٢٥.

(٤) سورة النساء: ١٢.

(٥) سورة يس: ٣٦.

(٦) سورة الصافات: ٢٢.

وشاربو الخمر مع شاربها.

وبعيد كل البعد، وغريب كل الغرابة، أن يحشر كل ظالم مع زوجته، وإلا قلنا بحشر فرعون مع زوجته - وشتان بينهما - هو من أهل السعير، وهي من أهل النعيم.

المصدر الثاني - سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ليس في القرآن نفسه ما يبين جميع القرآن، فتفسير القرآن للقرآن قدر يسير، فما بقي من القرآن الذي لم يتناوله بيان القرآن بحاجة إلى بيان، لا تكفي اللغة والعقل إلى بيانه البتة، فلا يمكن - لغة ولا عقلا - تفصيل المجمل الذي جاء في فرض الصلاة، ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَعَاتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١) لا يمكن فهم المراد منه إلا بوحى سماوي عن طريق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يمكن للغة ولا لعقل أن يأتي بشيء فضلاً عن أن يستقل به، ومن ثم كان لا بد من الرجوع إلى البيان منه إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما رجع إليه الصحابة رضوان الله عليهم لذا فإننا نؤيد العلماء^(٢)، فيما نقدوا لابن خلدون قوله:

«إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه»^(٣).

وأقرب دليل على خطأ ابن خلدون ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلفة على

(١) سورة البقرة: ٤٣.

(٢) من هؤلاء العلماء محمد حسين الذهبي (رحمه الله)، والأستاذ إبراهيم خليفة، ود. سيد أحمد خليل، أما الأستاذ الدكتور محيي الدين خليل رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الرياض، فقد ذهب إلى رأي صاحب المقدمة ثم رجع عن قوله.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٦ الأميرية.



اختلاف لغاتها، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه^(١).

يقول الدكتور سيد أحمد خليل^(٢): إن هذا التعميم من ابن خلدون في مقدمته، فيه شيء من المجازفة التي لا يقرها تاريخ التفسير نفسه، لذا استدرك ابن خلدون بعد هذه العبارة قائلاً: إن في القرآن نواحي في حاجة إلى البيان، فقد كان النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يبين المجمل، والناسخ والمنسوخ يعرفه أصحابه فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منقولا عنه.

فهذا إقرار من ابن خلدون بأن فهم اللغة غير كاف لمعرفة تفسير القرآن الكريم، بل لا بد من الرجوع إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لفهم المعاني الأخرى التي يتعذر معرفتها بدونه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ثم إن ابن خلدون نفسه قد ساق قصة وردت في صحيح الإمام البخاري أن عدي بن حاتم لم يفهم قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾^(٣)، وساق قصته المعروفة^(٤).

المصدر الثالث - أقوال الصحابة:

(١) دراسات في مناهج المفسرين ص ٢٤٩.

(٢) انظر: كتابه نشأة التفسير في الكتب المقدسة ص ٣٢، والكتاب طبع بالإسكندرية سنة ١٩٥٤ م.

(٣) سورة البقرة: ١٨٧.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣ / ٢٨) برقم: (١٩١٦)، ومسلم في "صحيحه" (٣ / ١٢٨) برقم:

بعد أن تكلمنا عن تفسير القرآن بالقرآن، وعن تفسيره بالسنة جاء أوان القول إذا لم نجد التفسير في القرآن أو في السنة فإن المصدر الثالث في الأهمية هو أقوال الصحابة رضوان الله عليهم.

والذي يجب الانتباه إليه التفريق بين أقوال الصحابة، فإن أقوال الصحابة في الأمور التي لا مجال للرأي فيها تعطى حكم المرفوع إلى النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، كحديث الصحابة عن سبب النزول، هذا هو الشرط الأول في اعتبار قول الصحابي له حكم المرفوع، أما الشرط الثاني فقد نبه إليه علماء الحديث وهو: أن لا يكون من صدر عنه مثل ذلك القول من الصحابة قد عرف بالأخذ عن بني إسرائيل في بعض الأحيان طبعاً، وإلا لم يعط حكم المرفوع؛ لاحتقال أن يكون من منقولاته عنهم^(١)، وبعبارة أوضح، أن لا يحتمل أن يكون لقوله صلة بما عند بني إسرائيل، تلقى في النفس احتمال أن يكونوا هم الأصل في العلم به.

أما إذا قال الصحابي برأيه في القرآن، فينبغي التحاكم إليهم فيما هو بلسانهم؛ لأن أكثرهم عرب خلّص، ولهم من الفهم السليم والرأي السديد ما ليس لسواهم، فهم لذلك أحقّ من غيرهم في الأخذ بقولهم وفهمهم. وما يجدر ذكره أن أغلب ما ثبت من اختلاف الصحابة، بل السلف في التفسير، هو ما يتبين فيه وجه الصواب، بل مما يمكن فيه الجمع بين الأقوال المختلفة، والأخذ بها جميعاً، وكذلك فإن غالب ما ثبت عنهم في ذلك إنما يرجع إلى اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، على ما بين ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير. فلقد عقد في ذلك فصلاً في اختلاف السلف في التفسير وأنه اختلاف تنوع.

(١) انظر نزهة النظم في شرح نخبة الفكر ص ٤١.



ولا يفوتنا أن ننبه إلى خطأ من فهم من كلام ابن تيمية، وهو أن كل خلاف الصحابة هو اختلاف تنوع، لا اختلاف تضاد، ثم أخذ يدل على هذا الكلام. والحقيقة أن كلام ابن تيمية لا يفيد هذا المعنى، وكأن الذي ورطه في هذا الفهم السقيم، هو العنوان الذي وضعه ابن تيمية حيث قال: «فصل في اختلاف السلف وأنه اختلاف تنوع»، ولكنه لو أتم قراءة ما تحت هذا العنوان لوجد الرأي الصحيح والفهم السديد لكلام ابن تيمية، حيث قال بعد سطرين: «وغالب ما يصح عنهم في الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد».

لاحظ كلمة غالب، وليس كل، فالاختلاف في غالبه لا جميعه هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، كيف لا وقد وجد اختلاف تضاد بين الصحابة رضوان الله عليهم، بل وقع اختلاف التضاد بين أكبر علمين من الصحابة في التفسير، وهما عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود، فقد روي عن عبد الله بن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) .^(١)

قال ابن جرير: عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** رأى ربه بقلبه^(٢) كما روى عن ابن عباس أيضا أنه قال: «أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»^(٣). وقد قال أبو ذر بقول ابن عباس، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سَأَلْتُ

(١) سورة النجم: ١٣.

(٢) الطبري في تفسير سورة النجم.

(٣) الطبري في تفسير سورة النجم.

رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»^(١) وذهب جميع الصحابة، ابن مسعود وأبو هريرة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم في تفسير الآية ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٢) ﴿١٣﴾ بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رأى جبريل روى ذلك الإمام البخاري عن ابن مسعود من وجهين:

الأول موقوف عليه، والثاني روي عنه مرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

وقد أورد كثير من المفسرين^(٤) آراء الصحابة في هذه المسألة، ورجحوا قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيها من أن محمداً رأى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودلل ابن القيم على ما قاله ابن مسعود وقد أسهب فيه إسهاباً مفيداً يحسن الرجوع إليه.

موقفنا من اختلاف الصحابة في التفسير:

إذا تقرر لدينا أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد اختلفوا في تفسير بعض الآيات فإنه ينبغي النظر في هذا الخلاف:

- فإذا كان الاختلاف في القول مروياً عن صحابي واحد، فالقول فيه ما قاله صاحب البرهان رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما إذا لم يكن الجمع بأي من قوليه، فالمتأخر من

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (١ / ١١١) برقم: (١٧٨).

(٢) سورة النجم: ١٣.

(٣) صحيح البخاري، ح (٤٨٥٦) و (٤٨٥٧).

(٤) ومن هذه الكتب التي أوردت هذا الرأي:

١ - كتاب زاد السير لابن الجوزي.

٢ - كتاب مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٨ / ٢٩٠.

٣ - الكشف للزمخشري ٤ / ٤٢٠.

٤ - البحر المحيط ج ٨ / ١٥٦.

٥ - الجلالين وغيرهم.



القولين عن الشخص الواحد مقدم عنه إن استويا في الصحة، وإلا فالصحيح هو المقدم»^(١).

مثاله ما روي عن ابن عباس في جواز نكاح المتعة ثم رجوعه عنه.

- وأما إن كان ذلك مروياً عن أكثر من واحد، قدم منه ما كان عن رءوس القوم وأكابرهم من أمثال ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** في التفسير، وزيد بن ثابت في الفرائض، وأبي بن كعب في القراءات، وهلم جرا، ذلك أن منطق العقل أن الخطأ من هؤلاء أقل بكثير من خطأ من دونهم.

- وأما إذا لم يكن الخلاف مطلقاً، بل كان الإجماع فلا شك أنه يحرم الخروج عن إجماعهم؛ لأن إجماعهم على أمر له قوة الدليل من القرآن والسنة.

المصدر الرابع - الرأي أو الاجتهاد:

أخرت ذكر هذا المصدر للخلاف في اعتباره مصدراً من مصادر التفسير؛ ولأنه المصدر الأخير الذي يرجع إليه حين لا نجد للآية تفسيراً في المصادر السابقة.

وأطلقت على هذا المصدر الرأي أو الاجتهاد؛ لأن المقصود من الرأي ليس مجرد الرأي، وإنما المقصود هو الاجتهاد، إذ التفسير بالرأي لون من ألوان الاجتهاد.

إن الخلاف في التفسير بالرأي قد وقع بين الأقدمين والمحدثين، وقد حاول المحدثون أن يجعلوا الخلاف شكلياً، كما قال الأستاذ محمد حسين الذهبي الذهبي: «إن الخلاف لفظي لا حقيقي» ووافق الأستاذ فائد، ومن قبلهما قال

(١) ج ٢ / ١٨٣.

الشيخ الزرقاني **رَحِمَهُ اللهُ** - مثل قولهما - ويمكن أن يجعل الخلاف لفظياً^(١) .
ويبدو أن أصحاب هذا الرأي لم يحالفهم الصواب في الجمع بين القولين،
فجعلوا الخلاف لفظياً لا حقيقياً، مع أن الخلاف على ما سيظهر لك جوهرى،
وهاك أقوال المجيزين والمانعين للتفسير بالرأي.

أدلة المجيزين للتفسير بالرأي:

١ - من القرآن: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢) .

قالوا: إن تدبر القرآن يكون بفهمه ومعرفة تفسيره، وذلك عن طريق العقل
والاجتهاد بالرأي، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ
لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٣) يدل على أن أهل الاستنباط والاجتهاد
هم الذين يعملون معاني القرآن، بما وهبهم الله من قوة الاستنباط.

٢ - أن القول بمنع التفسير بالرأي مساو للقول بمنع الاجتهاد وهذا القول مردود
بداهة.

٣ - اختلاف الصحابة في الأقوال - طبعا في بعض الأحيان - يدل دلالة واضحة
على جواز التفسير بالرأي، إذ لولا ذلك لاتفقت تفاسيرهم.

٤ - دعاء النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لابن عباس أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل، فلو
كان التأويل كل التأويل من التنزيل والسماع والنقل، لما كان لدعائه

(١) المناهل ج ١ ص ٥٢٦.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

(٣) سورة النساء: ٨٣.



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فائدة في تخصيصه بالدعاء.

أما أدلة المانعين فقد استدلوا:

أولاً- من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١) قالوا: إن هذه الآية حصرت البيان والتفسير بالنبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليس لأحد غيره أن يفسر القرآن برأيه.

ثانياً- من السنة: ما رواه الترمذي وغيره عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢)، وما رواه الترمذي وغيره عن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ»^(٣).

ثالثاً- الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين منها: أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئِلَ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: «آيَةٌ أَرْضٍ تُقَلِّنِي، أَوْ آيَةٌ سَمَاءٍ تُظَلِّنِي، أَوْ آيَةٌ أَذْهَبُ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ - إِذَا أَنَا قُلْتُ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ مَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَا؟»^(٤).

(١) سورة النحل: ٤٤.

(٢) أخرجه النسائي في "الكبرى" (٢٨٥ / ٧) برقم: (٨٠٣٠)، والترمذي في "جامعه" (٦٥ / ٥) برقم:

(٢٩٥٠)، والدارمي في "مسنده" (٣٠٤ / ١) برقم: (٢٣٨) وأحمد في "مسنده" (٥١٦ / ٢) برقم:

(٢٠٩٨)، (٥٩٨ / ٢) برقم: (٢٤٦٨)، وأبو يعلى في "مسنده" (٢٢٨ / ٤) برقم: (٢٣٣٨)، (٤٥٨ / ٤)

برقم: (٢٥٨٥) وأورده ابن حجر في "المطالب العالية" (٦٤٠ / ١٢) برقم: (٣٠٤٨)، وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه النسائي في "الكبرى" (٢٨٦ / ٧) برقم: (٨٠٣٢) وأبو داود في "سننه" (٣٥٨ / ٣) برقم: (٣٦٥٢)

والترمذي في "جامعه" (٦٦ / ٥) برقم: (٢٩٥٢) وأبو يعلى في "مسنده" (٩٠ / ٣) برقم: (١٥٢٠)

والطبراني في "الكبير" (١٦٣ / ٢) برقم: (١٦٧٢) والطبراني في "الأوسط" (٢٠٨ / ٥) برقم: (٥١٠١).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (١٦٨ / ١) برقم: (٣٩) وأورده ابن حجر في "المطالب العالية" (١٤ /

ومن التابعين قول الشعبي: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأي». وكان سعيد بن المسيب كبير التابعين إذ سئل عن الحرام والحلال تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من آيات القرآن سكت كأن لم يسمع شيئاً.

وجملة القول عند المانعين، أن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، وهو إثم وحرام لا يجوز ارتكابه.

وقد ردّ المجيزون على كل دليل استدلوا به، وهذا مجمل الردّ بإيجاز:

أما الدليل الأول وهو استدلالهم بالقرآن، فهو مردود، لأن الرسول **صلى الله عليه وسلم** وإن بين القرآن إلا أنه لم يبين جميع القرآن، بل بين ما هو بحاجة إلى بيان كما بيناه لك سابقاً.

أما الحديثان، فالأول منهما: محمول على القول بالرأي فيما لا يعلم إلا عن طريق السمع، أو فيمن يفسر القرآن حسب هواه، ولأنه تفسير بغير ما أراد الله، كما ثبت في الأثر، أما الحديث الثاني المروي عن جندب: فإن من رواه سهيل بن أبي الحزم، وقد طعن فيه أئمة الحديث البخاري والنسائي وأبو حاتم الذي قال فيه: ليس بالقوي، وقد ضعفه ابن معين والإمام أحمد وقال: روى أحاديث منكراً^(١).

أما الدليل الثالث: فإن ما روي عن هؤلاء من إحجام عن التفسير بالرأي،

(٤٢٥) برقم: (٣٥١٢) وأخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٥ / ٤٩٩) برقم: (٣٠٧٢٧)، (١٥ / ٥٠٠) برقم: (٣٠٧٣١).

(١) انظر تهذيب التهذيب ٤ / ٢٦١، وميزان الاعتدال ١ / ٤٣٢.



مبناه الحذر والحيطه لا الحظر والحرمة.

وبعد: فإن المتأمل في أدلة الفريقين يرى بوضوح أن الخلاف بينهما ليس لفظياً بل هو كما قال الأقدمون: إن المذهبين فيهما غلو وتقصير، وهما على طرفي نقيض كما قال الإمام المحقق الألويسي: «وأما التفسير بالرأي فالشائع المنع عنه». ثم بعد أن ساق أقوال المانعين قال: ولا دليل في ذلك. نعم إن عبارة المانعين للتفسير بالرأي صريحة في منع كل تفسير بالرأي، وهي ناصعة في جلاء لا يعتريه أدنى شائبة من غموض أو التواء، على أنه حتى لو بلغ صاحب الرأي ما بلغ من علم واجتهاد وسعة أدب، فليس له أن يفسر القرآن برأيه، وإنما عليه أن يقتصر على المأثور فحسب، فهل بعد هذا نقول: إن الخلاف بينهم لفظي؟ وإن مراد المجيزين للتفسير بالرأي إنما يريدون الرأي المحمود، وإن مراد المانعين للتفسير بالرأي إنما هو الرأي المذموم؟

كلا إن المانعين للتفسير بالرأي يمنعونه ولو صدر عن العلماء؛ وكل فريق يعزز رأيه ويرد على الآخر: فكيف يقال: إن المنع للرأي المذموم، والجواز للرأي المحمود؟

إن المانعين للرأي لا يقصدون الرأي المذموم فحسب، إذ إن هذا بدهي من البديهيات التي يسلم لهم بها المجيزون، وإنما يقصدون المنع من التفسير بالرأي على عمومته وشموله، محمودة ومذمومة، صحيحه وسقيمه، فالقائل بالقرآن برأيه وإن أصاب فقد أخطأ، فالمصيب مخطئ، فما بالك بالمخطئ.

هل بعد هذه الصراحة صراحة في قصدهم الواضح، من تحريم التفسير بالرأي، بجميع أشكاله وألوانه.

لهذا كله، فإن الحق الذي نقول به: إن الخلاف حقيقي لا أثر فيه للفظية، لذا كان لزاماً علينا أن نسلك طريق الترجيح الذي لا محيص عنه فنقول:

إن أدلة المجيزين للتفسير بالرأي أقوى حجة، والواقع العملي الثابت عن سيرة الصحابة والتابعين يدل عليه، فإن الذين رويت عنهم الأخبار بالامتناع عن التفسير بالرأي، قد ثبت عنهم التفسير بالاجتهاد والتفسير بالرأي، وما اختلاف التفاسير وتنوعها، واختلاف التفاسير عن الصحابة والتابعين إلا دليل ناصع على أن مصدر هذا الخلاف إنما هو تباين الآراء النابع عن اجتهادهم.

وتبقى أدلة المنع محصورة فيما لا يجوز أن يفسر به القرآن بالرأي، في المجال الذي ليس له أن يقول فيه قولاً إلا نقلاً أو سماعاً، هذا ما نميل إليه، أما أن نجمع بين الرأيين بتحريم الرأي المذموم، وجواز الرأي المحمود، فما نظن أن الخلاف واقع في شيء من ذلك؛ لأن التفسير بالرأي المذموم ليس مورد خلاف بين العقلاء والعلماء؛ لأن كلمة المجيزين والمانعين سواء في رفضه، لذا لم يبق الخلاف إلا في جواز التفسير بالرأي أو منعه عموماً.



المبحث الرابع أنواع التفسير



يقسم العلماء التفسير إلى نوعين رئيسيين وهما: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي أو الدراية، ومنهم من يضيف إليه التفسير الإشاري والتفسير العلمي، ولتفسير كتاب الله سبحانه مناهج، قد ابتكرها، وقعد لها الأئمة، وهي محدثة بحدوث العلم ذاته، ونذكر من أهم أنواع التفسير:

أولاً - التفسير بالمأثور:

هو كل تفسير يعتمد على المصادر التفسيرية: القرآن والسنة وأقوال الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** ومنهم من يضيف أقوال التابعين، وخير ما يمثل هذا اللون من التفسير هو الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، وهناك من يعتبر تفسير ابن جرير الطبري وابن كثير من التفسير بالمأثور وفي هذا نظر: لما يحويه ابن جرير وابن كثير من اجتهادات وتوجيهات وترجيحات تعتمد على الدراية والرأي والاجتهاد، فالكتابان مصدران عظيمان للتفسير بالمأثور ولكنها لا يخلوان من التفسير بالرأي.

ويجدر التنبيه إلى أن اعتبار تفسير القرآن بالقرآن من التفسير بالمأثور فيه نظر، لإطلاق الأثر على التفسير القرآني، والأثر كما هو معروف يطلق على ما روي عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** والصحابة والتابعين، ولكن لا بد من استدراك أن اعتبار تفسير القرآن للقرآن من التفسير بالمأثور هو من باب الاصطلاح ولا

مشاحة في الاصطلاح.

أشهر المفسرين في التفسير بالمأثور:

- ١ - الطبري (ت: ٣١٠ هـ)^(١): صاحب تفسير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».
- ٢ - ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦ هـ)^(٢): صاحب تفسير «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز».
- ٣ - السمرقندي: (ت: ٣٧٣ هـ)^(٣): صاحب تفسير «بحر العلوم».
- ٤ - الثعلبي: (ت: ٤٢٧ هـ)^(٤): صاحب تفسير «الكشف والبيان عن تفسير

(١) هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، الإمام الجليل والمجتهد المطلق، صاحب التصانيف المشهورة، رحل من بلده طبرستان في طلب العلم وهو ابن اثني عشرة سنة، فسمع بمصر والشام والعراق، ثم استقر ببغداد إلى أن مات فيها.

(٢) هو القاضي عبد الحق بن عطية الأندلسي الغرناطي المالكي. ولد بغرناطة سنة ٤٨٠ هـ ونشأ فيها، وترى في كنف أبيه القاضي الحافظ الذي أحاطه بأسباب العناية والرعاية، مما كان سببا في تكون شخصيته العلمية. كان منذ صغره طموحا متطلعا، وقد لازمه هذا الطموح حتى برزت مواهبه، وعم إنتاجه وغدا شخصية علمية يشار إليها بالبنان. ويحدثنا الفتح بن خاقان عن صفات ابن عطية التي أورثته علوا في الرتبة وعظمة في المكانة، قال: «سابق الأمجاد في السؤدد جاهدا، حتى تناول الكواكب قاعدا». انظر: ابن بشكوال، الصلة: ٢ / ٣٨٦، والضبي، بغية الملتمس ص ٣٨٩. النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٩، وابن الخطيب، الإحاطة ٣ / ٥٣١. الداودي: طبقات المفسرين ١ / ٢٦٠.

(٣) هو أبو الليث، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، الفقيه الحنفي، المعروف بإمام الهدى، المتفقه على أبي جعفر الهندواني المشتهر بكثرة الأقوال المفيدة، والتصانيف المشهورة. ومن أهم تصانيفه تفسير القرآن المسمى ببحر العلوم، وكتاب النوازل في الفقه، وخزانة الفقه، وتنبية الغافلين، والبستان، المتوفى سنة ٣٧٣ هـ وقيل: ٣٧٥ هـ. انظر: طبقات المفسرين للداودي ص ٣٢٧.

(٤) هو أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المقرئ المفسر، كان حافظا واعظا، رأسا في التفسير والعربية، متين الديانة، قال ابن خلكان: «كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير» نظر: وفيات الأعيان ١ / ٣٧ - ٣٨.



القرآن».

٥- ابن كثير: (ت: ٧٧٤ هـ) ^(١): صاحب تفسير «تفسير القرآن العظيم».

٦- الثعالبي: (ت: ٨٧٦ هـ) ^(٢): صاحب تفسير «الجواهر الحسان في تفسير القرآن».

٧- السيوطي: (ت: ٩١١ هـ) ^(٣): صاحب تفسير «الدر المنثور في التفسير

(١) هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمرو بن كثير ابن ضوء بن كثير بن زرع البصري ثم الدمشقي الفقيه الشافعي، قدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه، سمع من ابن الشحنة، والآمدي، وابن عساكر، كما لازم المزي وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره، وأخذ عن ابن تيمية، وقتن بحبه، وامتحن بسببه، واتبعه في كثير من آرائه. كان مولده سنة ٧٠٠ هـ أو بعدها بقليل وتوفي في شعبان سنة ٧٧٤ هـ ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، وكان قد كف بصره في آخر عمره.

(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، الثعالبي، الجزائري، المغربي، المالكي، العالم العامل، الزاهد الورع، ولي الله الصالح العارف بالله، كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد الله الصالحين قال ابن سلامة البكري: كان شيخنا الثعالبي رجلا صالحا، زاهدا عالما، عارفا، وليا من أكابر الأولياء، وبالجملة فقد اتفق الناس على صلاحه وإمامته، وأثنى عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح، كالإمام الأبي، والولي العراقي، وغيرهما. وقد عرف هو بنفسه في مواضع من كتبه، وبين أنه رحل من الجزائر لطلب العلم في آخر القرن الثامن، فدخل بجاية ثم تونس، ثم رحل إلى مصر ثم رجع إلى تونس، ويقول هو: لم يكن بتونس يومئذ من يفوتني في علم الحديث، إذا تكلمت أنصتوا وقبلوا ما أرويه، تواضعا منهم وإنصافا، واعترافا بالحق، وكان بعض المغاربة يقول لي لما قدمت من المشرق: أنت آية في علم الحديث، وذكر كل شيوخه الذين سمع منهم في تلك البلاد.

(٣) هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي، المسند المحقق، صاحب المؤلفات الفاتحة النافعة. ولد في رجب سنة ٨٤٩ هـ وتوفي والده من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وأسند وصايته إلى جماعة، منهم الكمال بن الهمام، فقرر في وظيفة الشيخونية ولحظه بنظره، وختم القرآن وله من العمر ثمان سنين، وحفظ كثيرا من المتون، وأخذ عن شيوخ كثيرين، عددهم تلميذه الداودي فبلغ بهم واحدا وخمسين، كما عد مؤلفاته فبلغ بها ما يزيد على الخمس مائة مؤلف وشهرة مؤلفاته تغني عن ذكرها، فقد اشتهر شرقا وغربا ورزقت قبول الناس. وكان السيوطي آية في سرعة التأليف حتى قال تلميذه الداودي: عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفا وتحريرا. وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه رجالا، وغريبا، ومتنا، وسندا، واستنباطا للأحكام. ولقد أخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث، قال: ولو وجدت أكثر لحفظت، ولما بلغ الأربعين سنة تجرد للعبادة، وانقطع إلى الله

المأثور».

ثانياً - التفسير بالرأي والدراية:

هو تفسير القرآن بحسب اجتهاد المفسرين ومعارفهم في اللغة والأصول

غيرها.

أهم كتب التفسير بالرأي:

١ - الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) ^(١): مؤلف «الكشاف».

تعالى، وأعرض عن الدنيا وأهلها، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف سماه بالتنفيس، وأقام في روضة المقياس ولم يتحول عنها إلى أن مات، وله مناقب وكرامات كثيرة، وله شعر كثير جيد، أغلبه في الفوائد العلمية، والأحكام الشرعية. وتوفي في سحر ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ في منزله بروضة المقياس، فرضي الله عنه وأرضاه. انظر ترجمته في شذرات الذهب ج ٨ ص ٥١ - ٥٥.

(١) هو أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، الإمام الحنفي المعتزلي، الملقب بجار الله. ولد في رجب سنة ٤٦٧ هـ بزمخشري، قرية من قرى خوارزم، وقدم بغداد، ولقي الكبار وأخذ عنهم، دخل خراسان مرارا عديدة. وما دخل بلدا إلا واجتمع عليه أهلها وتلمذوا له، وما ناظر أحدا إلا وسلم له واعترف به، ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعة. وليس عجيبا أن يحظى الزمخشري بكل هذا وهو الإمام الكبير في التفسير، والحديث، والنحو، واللغة والأدب، وصاحب التصانيف البديعة في شتى العلوم، ومن أجل مصنفاته: كتابه في تفسير القرآن العزيز الذي لم يصنف قبله مثله المسمى (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، والمحاجاة في المسائل النحوية، والمفرد والمركب في العربية، والفاائق في تفسير الحديث، وأساس البلاغة في اللغة، والمفصل في النحو، ورؤوس المسائل في الفقه... وغيرها كثير. قال صاحب وفيات الأعيان: «كان الزمخشري معتزلي الاعتقاد، متظاهرا باعتزاله، حتى نقل عنه: أنه إذا كان قصد صاحبا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له: أبو القاسم المعتزلي بالباب. وأول ما صنف كتاب الكشاف كتب استفتاح الخطبة «الحمد لله الذي خلق القرآن» فيقال: إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه، فغيره بقوله: «الحمد لله الذي جعل القرآن» وجعل عندهم بمعنى خلق، والبحث في ذلك يطول. وفي كثير من النسخ «الحمد لله الذي أنزل القرآن» وهذا إصلاح الناس لإصلاح المصنف». وكانت وفاة الزمخشري رحمه الله ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ بجرانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، وورثه بعضهم بأبيات من جملتها:

فأرض مكة ندى الدمع مقلتها... حزنا لفرقة جار الله محمود



٢ - الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) ^(١): مؤلف «التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب».

٣ - أبو حيان: (ت: ٧٤٥ هـ) ^(٢): مؤلف «البحر المحيط».

ثالثاً - التفسير الفقهي لآيات الأحكام:

لم يعرف هذا اللون من ألوان التفسير إلا حين سادت المذاهب الفقهية،

(١) هو فخر الدين محمد بن عمر بن الخطيب الرازي، عربي قرشي من سلالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ولد في الري، ونشأ في البلاد الأعجمية وعاش فيها، استقرت أسرته في طبرستان، نسب إلى مدينة الري. وكما نسب إليها أبو بكر الرازي المعروف بالخصاص، وكذلك أبو بكر بن زكريا الرازي عالم الطب والكيمياء. تنقل الرازي - إمام التفسير - في الري وخراسان وخيوة وبخارى والعراق والشام، ثم سكن أخيراً في هراة في أفغانستان ومات فيها عام ٦٠٦ هـ. قال ابن خلكان: له اليد البيضاء باللسانين العربي والفارسي، برع في علوم كثيرة: علم التفسير والأصول والفقه والنحو والأدب، والفلسفة والطب والهندسة والفلك، ولكنه رأى أن أعظمها فائدة علوم القرآن والتفسير. منهجه في التفسير: لقد أثرت علومه المكتسبة في رسم منهجه في التفسير: فعلمه في العلوم الرياضية والفلسفية والفلكية، قد جعلته يسهب في تفسير الآيات على ضوء هذه العلوم، فكثيراً ما نجد على أقوال الفلاسفة والمتكلمين، وفي تفسير الآيات التي تتحدث عن النجوم تراه يتعرض لعلم الهيئة والفلك، وفي تفسير الآيات الكونية يتحدث عن العلوم الكونية بإسهاب لم تشهد له كتب التفسير مثيلاً. وفي العلوم الشرعية: هو بحر في الأصول، فقد سبق وألف المحصول في علم الأصول وهذا ما نلاحظه أحياناً في شرح قاعدة أصولية، بل يؤيد مذهبه الفقهي بالقواعد الأصولية. وهو عالم في الأدب والبلاغة، لذا نزع إلى إبراز هذا اللون تحت عنوان اللطائف القرآنية. وبالجملة فهو عالم في كل شيء، وضمن كتابه كل شيء، مما جعل بعض العلماء يصف تفسيره: «أن فيه كل شيء إلا التفسير»، وقد دفع أبو حيان هذا القول وأنصفه قائلاً: «جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير». والحق: أن تفسير الفخر فيه التفسير وفيه كل شيء. بقي أن نرد شبهة طالما أشكلت على العلماء قديماً وحديثاً: قال القاضي ابن شعبة: إن الفخر الرازي لم يتم تفسيره كما قال ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان. انظر: شذرات الذهب ٥ / ٢١، وفيات الأعيان ٢ / ٢١.

(٢) هو محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي الغرناطي، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ يكنى «أبو حيان» ويلقب في المشرق بأثير الدين (٤). كانت له رحلات حصّل خلالها العلوم المختلفة، بعد أن تلقى أولويات علومه على شيوخ بلده، غادر الأندلس وتنقل في المغرب، ونزل مصر وأخذ عن علمائها، وتقدم في النحو ومسائله، وسمع الحديث في الإسكندرية، وقرأ كتاب سيويوه. أما شيوخه الذين أخذ عنهم في هذه المراكز العلمية المختلفة فيطول المقام بذكرهم، وقد ذكرهم المقرئ جميعاً نقلاً عن أبي حيان نفسه وغير واحد من العلماء وأصحاب الطبقات. انظر: نفع الطيب ٣ / ٣٠٦، والداودي، طبقات المفسرين ٢ / ٢٨٦.

فقد أُلّف أصحاب المذاهب تفاسير متخصصة بآيات الأحكام، وإليك أهمها:

- ١- أحكام القرآن للجصاص الحنفي (٣٠٥ - ٣٧٠ هـ) ^(١).
- ٢- أحكام القرآن لإلكيا الهراسي الشافعي (٤٥٠ - ٥٤٠ هـ) ^(٢).
- ٣- أحكام القرآن، لابن العربي المالكي ^(٣).
- ٤- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ^(٤).



-
- (١) هذا الكتاب من تفاسير الأحناف، وقد أُلّفه أبو بكر الرازي، والذي اشتهر بلقبه الجصاص، بل اشتهر تفسيره بأحكام الجصاص، وتفسيره مخطوط بمكتبة الأزهر، وقد طبع مرات كثيرة، ويقع في ثلاث مجلدات.
 - (٢) هو عماد الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري أصله من خراسان، خرج إلى بغداد ودرّس فيها. وقد بقي تفسيره مخطوطا في دار الكتب المصرية حتى طبع أخيرا في المملكة العربية السعودية.
 - (٣) هو الإمام العلامة الحافظ الفقيه القاضي محمد بن عبد الله المعافري الأندلسي الإشبيلي - أبو بكر الشهير بابن العربي المالكي. ولد في إشبيلية سنة (٤٦٨ هـ) تلقى العلوم ببلده وصار قاضيا فنفع الله به لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، ورد المظالم إلى أهلها. انظر ابن فرحون، الديباج المذهب ٢ / ٢٥٢. والداودي، طبقات المفسرين ٢ / ١٦٢، والذهبي، تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٩٤، والمقري، نفع الطيب ٢ / ٢٣٣.
 - (٤) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي المالكي المذهب، لم تشر المصادر التاريخية إلى السنة التي ولد فيها، بينما تتفق على تاريخ وفاته التي كانت سنة ٦٧١ هـ.



المبحث الخامس شروط المفسر



لا ريب أن من أراد أن يتصدى لتفسير القرآن فعليه استجماع الشروط
المعتبرة، حتى يكون أهلاً لبيان مراد الله، ومن أولى بديهيات الشروط: صحة
اعتقاد المفسر، حتى يمكن الركون إلى تفسيره، فلا يطمأن إلى كلام الملاحدة
والمبتدعة، مهما سمت علومهم؛ لأنهم يبغون الفتنة، كدأب الباطنية وغلاة
الرافضة وأهل البدع - قديماً وحديثاً -؛ لأن مقصودهم هو ابتغاء الفتنة، وابتغاء
تأويله بما يوافق ضلالهم.

وهناك من العلوم التي يجب توافرها في المفسر، حتى يتسنى له تفسير كتاب
الله عز وجل، وقد بلغ بها السيوطي خمسة عشر علماً، نستطيع أن نضعها في بضعة
علوم أساسية.

أولاً - علوم اللغة العربية:

هذا من أولى الضرورات التي يجب أن يتحلى بها كل قاصد لتفسير كتاب
الله، الذي من أهم صفاته أنه ﴿يَلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾^(١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢).

لذا قال الإمام مجاهد شيخ المفسرين: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) سورة الشعراء: ١٩٥.

(٢) سورة يوسف: ٢.

الْآخِرَ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِلُغَاتِ الْعَرَبِ»^(١).
وقال الإمام مالك بن أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «لَا أُوتِيَ بِرَجُلٍ غَيْرِ عَالِمٍ بِلُغَاتِ
الْعَرَبِ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللَّهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ نِكَالًا»^(٢).

ومن أهم علوم اللغة العربية:

أ- علم النحو:

يتغير معنى الكلام حسب موقعه الإعرابي، فينتقل المعنى من الكفر إلى
الإيمان، ومن الإيمان إلى الكفر بتغير حركة الإعراب فيه، وهذا معنى ما أخرجه
أبو عبيد عن يحيى بن عتيق قال: قُلْتُ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدِ الرَّجُلُ يَتَعَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ
يَلْتَمَسُ بِهَا حَسْنَ الْمَنْطِقِ وَيَقِيمُ بِهَا قِرَاءَتَهُ قَالَ: حَسَنٌ يَا بَنَ أَخِي فَتَعَلَّمَهَا فَإِنَّ
الرَّجُلَ يَقْرَأُ الْآيَةَ فَيَعْبَأُ بِوَجْهِهَا فَيَهْلِكُ فِيهَا.^(٣)

والقرآن الكريم قد نزل بأفصح لغات العرب، وكلام الله تعالى، حاكم
ومهيمن، على القواعد العربية، فعلامات الإعراب وقواعده مستنبطة من لسان
العرب، وقد وضعت في عصر متأخر بعد نزول القرآن، لذا فلا يلتفت إلى كلام
بعض علماء اللغة والمفسرين الذين يستبعدون بعض القراءات القرآنية،
لاعتقادهم أنها مخالفة للقواعد العربية.

مثل ما قاله الزمخشري وغيره في قراءة متواترة من سورة النساء: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ
الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾^(٤). وبالكسر والأرحام، فقد لغا في ذلك قلة من

(١) تفسير الطبري (شاکر) ١ / ٣٩٦.

(٢) رواه البيهقي في الشعب عن مالك.

(٣) انظر السيوطي في الإتيان (٢ / ٣٠٩).

(٤) سورة النساء: ١.



المفسرين في توجيه هذه القراءة وغيرها، وقد انبرى لهم الإمام أبو حيان في الرد عليهم في تفسيره البحر المحيط، ولسنا هنا بصدد الحديث عنها.

ب- علم الصرف:

علم الصرف به تعرف الأبنية والصيغ، وانظر إلى اختلاف المعنى من العدل إلى عكسه الجور لاختلاف التصريف في الآيتين التاليتين:

في سورة الحجرات: ﴿وَأَقْسَطُوا^ط إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ^٩﴾^(١). بمعنى اعدلوا.

وفي سورة الجن: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا^{١٥}﴾^(٢). فالقاسطون بمعنى الجائرون الظالمون.

ومن جهل هذا العلم فإنه يقع في البدع والخطأ، ومن ذلك ما قاله الزمخشري في الكشاف: ومن بدع التفاسير أن الإمام في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا^ط كُلَّ^ط أَنْاسٍ^ط بِأِمْمِهِمْ^ط﴾^(٣)، جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، لئلا يفتضح أولاد الزنا، قال: وليت شعري أيهما أبداع، أصح لفظه أم بهاء حكمته؟! يعني أن الأم لا تجمع على إمام، وهذا كلام من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب، ثم قال: وهذا خطأ أوجب جهله بالتصريف، فإن الأم لا تجمع على إمام بل أمهات^(٤).

ج- الاشتقاق:

(١) سورة الحجرات: ٩.

(٢) سورة الجن: ١٥.

(٣) سورة الإسراء: ٧١.

(٤) انظر تفسير الزمخشري في هذه الآية ٧١ من سورة الإسراء، وقد نقل العبارة صاحب البرهان، ٢ / ٢٩٧.

لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما،
كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح؟^(١).

فإذا كان من السياحة، فتكون تسمية عيسى بالمسيح لكثرة سياحته، وإذا
كان من المسح تكون تسميته؛ لأنه كان لا يمسخ على ذي عاهة إلا برأ بإذن الله.

د- علوم البلاغة:

بأقسامها الثلاثة: المعاني - البيان - البديع؛ لأنه يعرف بعلم المعاني خواص
تراكيب الكلام، من حيث إفادتها المعنى، ويعرف بعلم البيان خواص تلك
التركيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، ويعرف بالبديع
وجوه تحسين الكلام^(٢).

وهذه العلوم يستعان بها في إدراك الإعجاز القرآني، بصورتها العجيبة التي
أعجزت الخلق من الإنس والجن عن الإتيان بمثله. وأكثر كتب التفسير اهتماماً
بذلك كتاب الكشاف للزمخشري الذي يقول: «من حق مفسر كتاب الله الباهر،
وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على
كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح»^(٣).

وقد اعتنى في كتابه بالنواحي البلاغية. كيف لا وهو واضع كتاب أساس

البلاغة؟!!

ثانياً- علم أصول الفقه:

إذ به يعرف وجه الاستدلال في استنباط الأحكام، وقد بين لنا ابن قيم

(١) الإتيان، ٢ / ١٨١.

(٢) الإتيان، ٢ / ١٨١.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (١/٦٨).



الجوزية بعض القواعد الأصولية، التي تتعلق بتفسير القرآن وذلك في كتابه بدائع الفوائد^(١).

ولقد وجدنا كثيرًا من المفسرين المشهورين قد برعوا في علم أصول الفقه، كما برعوا في التفسير على حد سواء، منهم:

١ - أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص المتوفى سنة ٣٧٠ هـ، وتفسير (أحكام القرآن)، وكتابه في الأصول مشهور باسمه (أصول الجصاص).

٢ - فخر الدين الرازي والمتوفى سنة ٦٠٦ هـ، وتفسيره (مفاتيح الغيب)، أما كتابه بالأصول فهو من أشهر الكتب الأصولية (المحصل في علم الأصول).

٣ - ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، له تفسير وكتابه في الأصول (المسودة في أصول الفقه)، لآل تيمية أي هو وأبوه وجدّه.

٤ - القاضي ناصر الدين البيضاوي الشيرازي المتوفى سنة ٧٩١ هـ، له تفسير معروف (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وكتابه في الأصول (مناهج الوصول إلى علم الأصول).

٥ - جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ، وكتابه في التفسير (الدر المنثور)، وقد ساهم في التفسير الشهير بتفسير الجلالين. وكتابه في الأصول معروف باسم (الأشباه والنظائر).

٦ - محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ، وتفسيره (فتح القدير) وكتابه في الأصول (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم

(١) من كتابه بدائع الفوائد وهو مطبوع.

(الأصول).

مما تقدم يتضح لنا أهمية هذا العلم لكل من يتصدى لتفسير كتاب الله، بل لكل مجتهد يريد استنباط الأحكام من آيات القرآن، وخير الكتب في هذا العلم، (الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، والموافقات للإمام الشاطبي، وما ذكرناه لك إرشاد الفحول للشوكاني).

ثالثاً - علم أصول الدين ويطلق عليه علم الكلام:

وهو علم لا بد من توافره لكل مفسر، حتى لا يقع في الخطأ والزلل، فلا بد من إدراك العقيدة الصحيحة، والنظر إلى آيات القرآن من وجهة نظر صحيحة عن الكون والإنسان والحياة، فإن ذلك يساعده في فهم الآيات فهماً صحيحاً، ولا بد من معرفة الأصول الاعتقادية - ما يجب في حق الله وما يستحيل عليه، وما يجب في حق الرسل **عَلَيْهِمُ السَّلَامُ** وما يستحيل عليهم.

يقول أبو حيان: «وقد صنف علماء الإسلام - من سائر الطوائف - في هذا كتباً كثيرة، وهو علم صعب، إذ المزلة فيه، والعياذ بالله، مفض إلى الخسران في الدنيا والآخرة»^(١).

رابعاً - علوم القرآن:

هناك مباحث في علوم القرآن لا بد من معرفتها، حتى يتسنى للمفسر أن يدرك القرآن إدراكاً صحيحاً، ودونها يتعثر فهمه، بل يقع في الضلال والإشكال، ومن هذه العلوم القرآنية:

أ - علم القراءات:

(١) البحر المحيط، لأبي حيان في ١ / ٧.



لأن به يعرف كيفية النطق، وبالقرئات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض، فلا شك أن المعاني والتفاسير تختلف باختلاف الألفاظ زيادة أو نقصان، وتختلف باختلاف تغير حركة الألفاظ، أو إتيان بلفظ بدل لفظ، وذلك بتواتر أو آحاد، ويؤخذ هذا من علم القراءات.

وقد صنف العلماء في هذا العلم الجليل كتباً لا تعد ولا تحصى، ويرى أبو حيان أن من أحسنها كتاب الإقناع في القراءات السبع، لأبي جعفر بن الباذش، وفي القراءات العشر كتاب المصايح لأبي الكرم الشهرزوري^(١).
ويعتبر كتاب ابن الجزري (النشر في القراءات العشر) من خير الكتب المصنفة والمطبوعة في هذا العلم.

ب- أسباب النزول:

هو علم يبحث فيه عن سبب نزول سورة أو آية، ووقتها ومكانها وغير ذلك^(٢).

وقيل: هو ما أنزل الله بشأنه قرآناً؛ وقت وقوعه، كحادثة أو سؤال^(٣).
ولا شك أن هذا يفيد في تفسير الآيات.

ج- النسخ والمنسوخ:

هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه^(٤).

(١) البحر المحيط، لأبي حيان في ١ / ٧.

(٢) ينظر: كشف الظنون: لحاجي خليفة: ١ / ٧٦.

(٣) محاضرات في علوم القرآن، نور الدين عتر، مطبعة دار الكتاب، دمشق، ١٤١٠-١٤١١ هـ، ص ٧٨.

(٤) ينظر: المعتمد: لأبي الحسين البصري: ١ / ٣٦٥، واللامع: للشيرازي: ٥٥، والأحكام للأمدي ٣ / ٩٨،

والموفقات: للشاطبي: ٢ / ٦٤، وإرشاد الفحول: للشوكاني: ٢٧٤، والوجيز: عبد الكريم زيدان: ٣٨٨.

وقيل: هو بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخ عنه^(١).
وهذا أيضًا لا يستغني عنه المفسر.

د- علم القصص:

ذلك أن القرآن يذكر القصة الواحدة في مواضع عديدة من السور القرآنية،
فما يجمله في مواضع، قد يفصله في سور أخرى، يعين على فهم مجملها.

خامسا- العلم بالأحاديث النبوية المفسرة للآيات القرآنية.

سادسا- العلم بتفسير الصحابي.

سبق تفصيل ذلك في مصادر التفسير.

هذه أهم العلوم التي يشترط معرفتها للمفسر لكتاب الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**.



(١) ينظر: البرهان في أصول الفقه: للجويني: ٢/ ٨٤٢، وأصول السرخسي: ٢/ ٤، والأحكام لابن حزم:
٤/ ٣٦٣، والناسخ والمنسوخ: لابن حزم: ٧.



الفصل الرابع عشر

خصائص القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: خصائص تتعلق بمكانته.

المبحث الثاني: خصائص تتعلق بأسلوبه.

المبحث الثالث: خصائص عامة.

المبحث الأول خصائص تتعلق بمكانته



تمهيد:

ينبغي أن نقرّر بادئ ذي بدء أن خصائص القرآن التي تميّز بها عن غيره من الكتب السماوية بوجه خاص، وعن كلام الناس بوجه عام، فجعلته معجزاً في بيانه وتشريعته. قد أفاض في ذكرها العلماء والأدباء والبلغاء من أصحاب الملكات الفريدة، والمواهب الفذة، فكانوا بين مقلِّ في سردها ومكثّر، ولكن لم يقل واحد منهم إنه قد أحاط بما لديه خبراً، بل إنهم جميعاً لم يقدموا لنا من هذه الخصائص إلا قطرة من بحر، فلم يزيدوا على أن قرّبوا لنا البعيد بضربٍ من التمثيل بغية الإيضاح والتبيين.

ويبقى القرآن أبداً هو الكتاب الذي لا تنتهي عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تبلى جدته، ولا يمله قارئوه ولا سامعوه.

ونحن إذا سمحنا لأنفسنا أن نتكلّم عن بعض هذه الخصائص القرآنية، فإنما نذكر على وجه التمثيل والتقريب أيضاً، وما لا يدرك كله لا يترك جله.

ولا تخفى مكانة القرآن عمن لديه أدنى علم شرعي ذلكم أن القرآن الكريم «كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه»^(١).

(١) الموافقات: الشاطبي ج ٣ ص ٣٤٦.



هو كلام الله العظيم، وصراطه المستقيم، ودستوره القويم، ناط به كل سعادة، هو رسالة الله الخالدة، ومعجزته الدائمة، ورحمته الواسعة وحكمته البالغة، ونعمته السابغة.

هو حجة الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الدامغة، وآيته الكبرى، شاهدة برسالته، وناطقته بنبوته.

هو كتاب الإسلام في عقائده، وعباداته، وحكمه وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، ومواعظه، وعلومه، وأخباره، وهداياته، ودلالته.

هو أساس رسالة التوحيد، والمصدر القويم للتشريع، ومنهل الحكمة والهداية، والرحمة المسداة للناس، والنور المبين للأمة، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك.

ومكانته لا تدانيها مكانة، ولا يسمو إليها فضل.

قال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «في هذا اعتناء كبير لشرف الرسول صلوات الله وسلامه عليه، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساءً، ليلاً ونهاراً، سافراً وحضراً، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجلُّ وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه، أعظم نبي أرسله الله»^(١).

ومن الخصائص التي تتعلق بمكانته:

١ - شفاعته لأهله:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٦/١٠٠).

ومن خصائص القرآن الكريم أنه يشفع لأهله يوم القيامة، ومن الأدلة على ذلك حديث أبي أمامة الباهلي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَقُولُ: «اقْرُؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرُؤُوا الزَّهْرَ أَوْ بَقَرَةَ الْبَقَرَةِ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّائَتَانِ. أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. اقْرُؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ. قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَّغْنِي أَنْ الْبَطَلَةَ السَّحْرَةُ»^(١).

٢- القرآن شفاء:

قال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)
وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾^(٣)، وقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمُلُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى﴾^(٤).
وتدبر وصف الله للقرآن بأنه شفاء ولم يصفه بأنه دواء؛ لأن الشفاء هو ثمرة الدواء والهدف منه، أما الدواء فقد يفيد وقد يضر فكان وصف القرآن بأنه شفاء تأكيد وأي تأكيد لثمرة التداوي به.

وقد ضرب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** المثل بنفسه بالتداوي بالقرآن، فعن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: «أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمَعْوِذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا،

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ١٩٧) برقم: (٨٠٤).

(٢) سورة الإسراء: ٨٢.

(٣) سورة فصلت: ٤٤.

(٤) سورة يونس: ٥٧.



فَسَأَلْتُ الرَّهْرِيَّ: كَيْفَ يَنْفِثُ؟ قَالَ: كَانَ يَنْفِثُ عَلَى يَدَيْهِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ»^(١).

وأقر الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** على الاستشفاء به، فعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لَدَغَ سَيْدٌ أَوْلَيْكَ، فَقَالُوا: هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلَا نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعَلًا، فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَيَجْمَعُ بُرَاقَهُ وَيَنْفُلُ، فَبَرَأَ، فَاتُوا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا: لَا نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ وَقَالَ: وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ؟ خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهُمْ»^(٢).

والقرآن شفاء للأمراض النفسية وما أحوج مجتمعاتنا المعاصرة إلى التداوي بالقرآن لهذا الداء الوبيل في عالم تتنازعه الأهواء المادية والشهوات الجسدية والملذات الدنيوية، وإنما تحدث الأمراض النفسية حين يعرض الإنسان عن القرآن وعن ذكر الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾^(٣) وقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَمَنْ يَعَشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ وَقَرِينٌ﴾^(٤)، أما العلاج والشفاء فهو قرين الذكر: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣١ / ٧) برقم: (٥٧٣٥)، (٧ / ١٣٤) برقم: (٥٧٥١) ومسلم في "صحيحه" (١٦ / ٧) برقم: (٢١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٣١ / ٧) برقم: (٥٧٣٦)، (٧ / ١٣٣) برقم: (٥٧٤٩) ومسلم في "صحيحه" (١٩ / ٧) برقم: (٢٢٠١).

(٣) سورة طه: ١٢٤.

(٤) سورة الزخرف: ٣٦.

تَطْمِينُ الْقُلُوبِ ﴿٢٨﴾ (١).

ولكن ينبغي أن نعلم أن الاستشفاء بالقرآن يستدعي كمال اليقين وقوة الاعتقاد وسلامته؛ ولذا قال الزركشي **رَحْمَةُ اللَّهِ** عن الاستشفاء بالقرآن: «لن ينتفع به إلا من أخلص لله قلبه ونيته، وتدبر الكتاب في عقله وسمعه، وعمر به قلبه، وأعمل به جوارحه، وجعله سميره في ليله ونهاره وتمسك به وتدبره» (٢).

٣- التبعّد بتلاوته:

قلنا قبل ذلك: إن القرآن الكريم هو الكلام المعجز المنزل على النبي محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر المتبعّد بتلاوته (٣).

إن من خصائص القرآن التي لا تكون لسواه أن الله تعبّد الخلق بتلاوته، وعبادة الله بتلاوة القرآن على عدة صور، منها:

ما يكون واجباً كما في الصلاة، فإن الصلاة لا تتم إلا بتلاوة القرآن كما في حديث عبادة بن الصّامِتِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» (٤).

ومنها ما يكون قرينة يثاب عليها، وذلك في تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا

(١) سورة الرعد: ٢٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن: الزركشي ج ٣ ص ٤٣٦.

(٣) ينظر مباحث في علوم القرآن: صبحي الصالح: ٢١، ودراسات في علوم القرآن: محمد بكر إسماعيل: ١٠، واللائق الحسان في علوم القرآن: موسى شاهين / ١١، والواضح في علوم القرآن: مصطفى البغا: ٨.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١ / ١٥١) برقم: (٧٥٦) ومسلم في "صحيحه" (٢ / ٨) برقم: (٣٩٤).



رَزَقَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجْرَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾^(١) ، وقال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(٢) .

والأحاديث في هذا كثيرة، من ذلك: عن أبي أمامة الباهلي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَقُولُ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ»^(٣) .

بل جاء الحث على تحسين الصوت بتلاوته، ولا يُقرأ كما يقرأ سائر الكلام، عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَقُولُ: «مَا أَذِنَ اللَّهُ لَشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»^(٤) .

وأخذ الثواب على قراءته لقول الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَا مٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(٥) .

ولا بد من ملاحظة أن القرآن مقصود به التعبد بتلاوته، فلا يُستغنى عن أصله بترجمة حرفية أو غيرها، وتجب المحافظة على أصله، فهو مآدبة الله لا

(١) سورة فاطر: ٢٩.

(٢) سورة المزمل: ٤.

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ١٩٧) برقم: (٨٠٤).

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩ / ١٥٨) برقم: (٧٥٤٤) ومسلم في "صحيحه" (٢ / ١٩٢) برقم: (٧٩٢).

(٥) أخرجه الحاكم في "مستدرکه" (١ / ٥٥٥) برقم: (٢٠٤٧) والترمذي في "جامعه" (٥ / ٣٣) برقم:

(٢٩١٠) والدارمي في "مسنده" (٤ / ٢٠٨٤) برقم: (٣٣٥١)، وسعيد بن منصور في "سننه" (١ / ١٧)

برقم: (٤)، وعبد الرزاق في "مصنفه" (٣ / ٣٦٧) برقم: (٥٩٩٣)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٥ /

(٤٣٧) برقم: (٣٠٥٥٢).

يُغني عنه شيء؛ لأن فيه التدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١) ،
وهو ميسور الحفظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٢) وعلى لفظه
تتوحد الأمم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ
لَهُمْ﴾^(٣) .

٤ - تعدد أسمائه وصفاته:

لقد اختص الله تعالى القرآن الكريم دون سائر الكتب السماوية بعدة أسماء
وذلك دلالة على شرفه وعلو منزلته، وسُمِّي القرآن الكريم بأسماء كثيرة، أخذت
من أوصافه التي وردت فيه، وأشهر هذه الأسماء أربعة^(٤):

١ - القرآن: قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(٥) ،
وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(٦) .

٢ - الفرقان: قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ

(١) سورة محمد: ٢٤ .

(٢) سورة القمر: ٢٢ .

(٣) سورة إبراهيم: ٤ .

(٤) وهناك من زاد في الأسماء فذكر كثيرا من الأوصاف، وعدّها أسماء حتى بلغت نحواً من ستين اسماً، ذكر
منها أبو المعالي المعروف بشيدلة في كتابه البرهان خمساً وخمسين اسماً، وزاد القرطبي في التذكار في أفضل
الأذكار أسماء غيرها. ومن الأوصاف تسميته (كلاماً) مشتق من الكلم بمعنى التأثير، ومنها (الهدى) لكونه
دليلاً على الحق، ومنها (الحكمة) و (الحبل) و (الرحمة) وغير ذلك. انظر: التذكار في أفضل الأذكار
للقرطبي: ٢٣ والبرهان في علوم القرآن للزركشي: ١ / ٢٧٣ والإتقان للسيوطي: ١ / ١٤٣ والزيادة
والإحسان لابن عقيلة: ٢ / ٤١٦ .

(٥) سورة البقرة: ١٨٥ .

(٦) سورة الواقعة: ٧٧ .



لِّلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾^(١) .

- ٣- الكتاب: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾^(٢) .
- ٤- الذكر: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٣﴾﴾^(٣) .

ومن صفات القرآن الكريم:

- ١- المبارك: في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴿٥﴾﴾^(٥) .
- ٢- هدى، ورحمة: في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٦﴾﴾^(٦) .
- ٣- الكريم: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾^(٧) .
- ٤- الحكيم: في قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾^(٨) .
- ٥- الفصل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾﴾^(٩) .



(١) سورة الفرقان: ١.

(٢) سورة البقرة: ٢.

(٣) سورة الحجر: ٩.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير: ١ / ٩٥ والماوردي: ١ / ٢٣ وابن عطية: ١ / ٦٨ وابن جزي: ١ / ٧.

(٥) سورة الأنعام: ٩٢.

(٦) سورة لقمان: ٣.

(٧) سورة الواقعة: ٧٧.

(٨) سورة يونس: ١.

(٩) سورة الطارق: ١٣.

المبحث الثاني خصائص تتعلق بأسلوبه



من خصائص الأسلوب القرآني:

١ - خطابه العامة والخاصة:

وهذان مطلوبان لا يدركهما الفصحاء والبلغاء من الناس، فلجئوا إلى قاعدة يعتدرون بها فقالوا: «لكل مقام مقال» أما أن يأتي كلام واحد يخاطب به العلماء والعامة، والملوك والسوقة، والأذكىاء ومن دونهم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ويرى فيه كل منهم مطلبه، ويدرك من معانيه ما يكفيه، فذلك ما لا نجده على أتمه وأكمله إلا في القرآن الكريم وحده.

يقرأ فيه العامي فيشعر بجلاله، ويذوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيمنته، ويستولي عليه بيانه، وتغشاه هدايته، فيخشع قلبه، وتدمع عيناه، فينقاد له، ويذعن.

ويقرأ فيه العالم فيدرك فصاحته، وتهيمن عليه بلاغته، ويملكه بيانه، وتنجلي له علومه ومعارفه، وتدهشه أخباره وأنبأؤه، فيجد فيه زمام فكره، وقيادة عقله، ومنهج علمه، ومحار فكره، ورفع شأنه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١)، فيذعن: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً

(١) سورة المجادلة: ١١.



وَعَلَمًا^(١) ثم يرفع يديه: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٢) فتدركه الخشية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(٣) ، ويدعن لربه، ويؤمن بشرعه.

٢ - إقناع العقل وتحريك العاطفة:

إنّ الكلام الفصيح، والبيان الوافي يؤتيان النفس البشرية نصيبها من الاستفادة العقلية والتحريك العاطفي معاً وهما مساويان لقوتين أنعم الله تعالى بهما على الإنسان: قوة التفكير وقوة الوجدان.

«أمّا الأولى فقوة تُغوص باحثة عن الحقائق المستترة والمعاني الباطنة، وأمّا الثانية فتطفو تبحث عن الجمال الظاهر في القشرة البادية»^(٤).

كما أنّ العلوم والمعارف والفنون على قسمين: علمية وأدبي «فترى الناس يقولون هذا أسلوب أدبي عاطفي، وذلك أسلوب علمي، والذين يدرسون العلم البحت لا يرضيهم الأسلوب الأدبي العاطفي، والذين يدرسون الأدب والعاطفة، لا يرضيهم الأسلوب العلمي البحت؛ ولذلك نجد أسلوب العلماء والمحققين من الجفاف بحيث يعجز عن أن يهزّ القلوب ويحرك العاطفة، وعلى العكس من ذلك أسلوب الأدباء والشعراء؛ فإنه يُحرك العواطف، ويثير الوجدان، ويُلهب المشاعر، ولكنه يخلو من التحقيق العلمي البحت. وإنّما

(١) سورة غافر: ٧.

(٢) سورة طه: ١١٤.

(٣) سورة فاطر: ٢٨.

(٤) خصائص القرآن الكريم، فهد الرومي ص ٣٥.

القرآن الكريم وحده هو الذي يجمع بين هذين الأسلوبين، ويؤانس بينهما، فيخاطب العقل والعاطفة معاً ويرضي العقل والعاطفة معاً^(١).

ذلك أن الإنسان مهما كان عنده من أسلوب علمي وأسلوب أدبي فإنهما لن ينفكاً، وحتى لو انفكاً فإنهما لن يعملان إلا على سبيل البدل والمناولة لا دفعة واحدة، وفي ذلك يقول الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٢)، وإذا أردنا أن نمثل على إقناع القرآن الكريم للعقل، وإمتاعه للعاطفة فإننا نجد أنه «في إقامة الدليل العقلي على البعث والنشور في مواجهة المنكرين والمكذابين، يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة إمتاعاً، بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ يقول تعالى: ﴿وَمِن آيَاتِهِ أَلْيَلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِن أَسْتَكْبَرُوا فَالذِّينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾»، وكذلك نجده **عَزَّ وَجَلَّ** يقول في سورة أخرى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾^(٤)، ولو تأملنا هذا الأسلوب البارع، نجده يقنع العقل، ويمتع العاطفة في آنٍ واحد، حتى في الجملة التي بمثابة

(١) الوحي والقرآن، عبد الحميد إبراهيم سرحان ص ١٠٥.

(٢) سورة الأحزاب: ٤.

(٣) سورة فصلت: ٣٧-٣٩.

(٤) سورة ق: ٩-١١.



النتيجة من مقدمات الدليل، إذ قال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ
 الْمَوْتِ﴾^(١)، وفي الآية الأخيرة قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾^(٢) أي: الخروج من
 القبور، والبعث والنشور^(٣).

لقد ضرب القرآن الكريم أروع الأمثلة في إقناعه للعقل وتحريكه للعاطفة
 لدى الإنسان، و«هكذا تجد القرآن كله مزيجاً حلواً سائغاً، يُخفف على النفوس
 تجرّعها الأدلة العقلية، ويُرفّه عن العقول باللفتات العاطفية، ويوجه العقول
 والعواطف معاً جنباً إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسانية»^(٤).

فالقرآن الكريم في خطابه للعقل والعاطفة معاً قد وازن بين جزئين رئيسيين
 في هذا الكائن البشري، الذي تباين في فهمه للحقائق بين أسلوب علمي وبين
 أسلوب أدبي، وكلا الأسلوبين يجدهما المتدبر في كتاب الله عزَّ وجلَّ.

٣- الجمع بين الإجمال والبيان:

إنَّك إذا فتحت أيّ كتاب وتفحصت فيه فإنَّك ستجد أنَّ الكلام الذي أمَّامك
 إمَّا أن يكون مجملاً وإمَّا أن يكون مبيناً، ومعناهما: «المجمل: الذي له دلالة غير
 واضحة مثل: قوله تعالى:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٥)، فإنه متردد بين الحيض

والطهر، ولفظ (مختار) فإنه متردد بين الفاعل والمفعول، والمبين: الذي لا خفاء

(١) سورة فصلت: ٣٩.

(٢) سورة ق: ١١.

(٣) القرآن الكريم رؤية تربوية، سعيد إسماعيل علي ص ١٧١.

(٤) علوم القرآن، رشدي عليان وآخرون ص ١٢٩.

(٥) سورة البقرة: ٢٢٨.

فيه مثل: قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾^(٢)، والكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان^(٣).

ومن هنا يتبين أن الكلام إما فيه بيان إذا كان واضحاً وإما فيه إجمال إذا كان خفياً، والناس إذا قصدوا تبين أغراضهم لم تتسع لتفسير، أما إذا أجملوها وقعوا في الكلام المبهم المشوب باللبس، أو في الكلام الموصوف باللغوي الذي لا يفيد، وأتى لهم أن يجمعوا بين الإجمال والبيان. «والإجمال والبيان أمران متقابلان لا يجتمعان في كلام واحد إن وجد الأول اضمحل الثاني، وإن وجد الثاني زال الأول، فكلام البشر إما أن يكون مجملاً، وإما أن يكون مبيناً ولا يكون بحالٍ من الأحوال مجملاً مبيناً في آنٍ واحد هذا في كلام البشر، أما القرآن الكريم كلام الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فالأمر غير ذلك فهو خارق للعادة فلا عجب إذاً أن يجتمع في آية منه واحدة البيان والإجمال جميعاً»^(٤).

٤ - التأثير بلا تأثر:

إن من طبيعة بني آدم - وهذا أمرٌ ملموسٌ في أنفسنا - أنه عند الحديث والجدل مع الآخرين وهو في موطن الدفاع عن الذات أو إقناع الغير بما هو حقٌ وصواب في نظره، بينما هي عند الطرف الآخر بخلاف ذلك تماماً، إنه يُلمح من كلامه التأثر والانفعال إما إيجاباً وإما سلباً، فتراه فرحاً مسروراً إن اقتنع خصمه

(١) سورة المائدة: ٣٨.

(٢) سورة النساء: ٢٣.

(٣) علوم القرآن، رشدي عليان وآخرون ص ١٣٣.

(٤) خصائص القرآن الكريم، فهد الرومي ص ٤٥.



وسلم إليه، بينما تراه حزيناً مهموماً إن هو فشل في ذلك، حتى الرسل والأنبياء بل حتى أولو العزم منهم «عليهم أفضل صلاة وأزكى تسليم» لم يكونوا بعيدين عن ذلك الشعور والانفعال «خذ مثلاً نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ».

حين جرت به السفينة وبمن آمن معه فتنبهت فيه عاطفة الأبوة، فأخذ يُنادي ابنه يُحاول إقناعه - متأثراً - بهذه العاطفة فيناديه بأكثر العبارات دفقاً للاستعطاف من الأب لابنه (يا بني)، ﴿يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾^(١)، ويزداد تدفق العطف والاستعطاف: ﴿وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)، ولم تحفل النبوة العاقبة باستعطاف الأب فأوت إلى فتوتها مخدوعة بقوتها: ﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾^(٣)، فتجيبه عاطفة الأبوة التي لا تزال تتدفق: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٤)، ثم تستدرك هذه العاطفة متشبثة بأمل: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، حتى لا تقطع أملها ويحسم الموقف موج كالجبال، ومع هذا فلم يقض هذا الموج بضخامته على عاطفته، فما زالت تتدفق، وترفع كفيها: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾^(٥)، ويأتيه الجواب الحكيم الذي لا يشوبه التأثر فتقنع وتسلم الأمر^(٦).

إن الكلام البشري حين تأثره وانفعاله أثناء حديثه سواءً كان ذلك إيجاباً أو

(١) سورة هود: ٤٢.

(٢) سورة هود: ٤٢.

(٣) سورة هود: ٤٣.

(٤) سورة هود: ٤٣.

(٥) سورة هود: ٤٥.

(٦) خصائص القرآن الكريم، فهد الرومي ص ٥٥.

سلباً، إنّما يدلّ ذلك دلالة واضحة أنّه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنّ الإنسان فيه من النقص والقصور، وأنّ ذلك التأثير وأعراضه ما هو إلا تعويض لذلك الكائن بما يُحقّق غرضه ويُشبع رغبته «أمّا القرآن الكريم فلا تظهر عليه هذه السمة في جدله بل تلمح من وراء العبارة قوة أعلى من أن تنفعل، قوة تؤثر ولا تتأثر تسوق الحجاج والبراهين في عزّة من لا تنفعه الاستجابة ولا تضره المعصية»^(١).

كيف لا؟! والقرآن الكريم كتاب دعوة، وهذه الدعوة تسير في طريقها إلى أفئدة الناس بالإقناع والتأثير في نفوسهم، وحتى يصل القرآن الكريم إلى هذا الهدف نجده يُعالج النفوس بأساليب عديدة كي يبلغ إلى ما يُريده منها من التأثير والإقناع.

فالقرآن الكريم في تأثيره في الآخرين قد امتاز بقوة العبارة، مع سوق الأدلة والشواهد في كلّ أنفةٍ علياء، كأنّه يُنادي في دعاة اليوم: أن اصدعوا بكلمة الحق في كلّ إباءٍ وصلابة ولا تحزنوا على من أخذته العزّة بالآثم.

٥ - جودة السبك وإحكام السرد:

يُمكن القول بأنّ الكلام هو مرآة المعاني، فإن كان الكلام مترابط الأجزاء، محكم السرد، متناسباً تناسباً قوياً عند ذلك ستصفو معانيه وتنجلي للناظر إليها، أمّا إن كان بخلاف ذلك فإنّ معانيه ستكون مختلفة الأجزاء، وستغيب صورته على مرآته المخدوشة وإنّ كلام الله **عَزَّوَجَلَّ** «قد بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره مبلغاً لا يُدانيه فيه أيّ كلام آخر، مع طول نفسه، وتنوع مقاصده، وتلوينه في الموضوع الواحد، فكأنما هو سبيكة واحدة

(١) المرجع السابق ص ٥٦.



تأخذ بالأبصار على حين أنّها مؤلفة من حلقات، كلّ حلقة منها مستقلة في نفسها ذات أجزاء»^(١).

هذا هو كلام ربّ العالمين أمّا كلام البشر فهو بخلاف ذلك فإنّك إذا نظرت إليه «فستجد أكثرهم لا يتقنون تنظيم أغراضهم وأجزاء كلامهم بل يسوقونها أشتاتاً مفككة، وكثيراً ما عاب النقاد فحول الشعراء بسوء التخلص حين ينتقلون من معنى إلى معنى في القصيدة الواحدة، وقد يضطر خاطبو البلاغة للربط بين غرض وغرض إلى استخدام أسماء الإشارة وأدوات التنبية أو كثرة التقسيم والترقيم والتبويب والعناوين وعبارات (أمّا بعد)، (وإنّا قلنا)، (ونقول كذا)، (قلت)، أو الإشارة في مقدمة الأبحاث إلى تقسيمه إلى أبواب وفصول كاعتذار مُسبق للانتقال الفجائي من معنى إلى معنى»^(٢).

فالقُرآن الكريم جودة سبكه وإحكام سرده قد أبهر أعين الناظرين فيه، لما أكنّه من ثبات سوره وآياته وجمله وكلماته.

٦- النظم القرآني:

جاء في لسان العرب عن معنى النظم: «النَّظْمُ التَّأْلِيفُ نَظَّمَهُ يَنْظُمُهُ نَظْمًا وَنِظَامًا وَنَظَّمَهُ فَانْتَظَمَ وَتَنَظَّمَ»^(٣).

كما جاء في المعجم الوسيط: «نظم القرآن: عبارته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة.... التنظيم: المنظوم ومن كلّ شيء ما تناسقت أجزاءه

(١) علوم القرآن، رشدي عليان وآخرون ص ١٣٠.

(٢) خصائص القرآن الكريم، فهد الرومي ص ٤٠.

(٣) لسان العرب، مادة: (نظم) ج ١٢ / ص ٥٧٨.

على نسق واحد»^(١).

الكلام عن النظم القرآني كلامٌ جميل، وقد ألف العلماء في نظم القرآن مرة بالإشارة إليه في ثنايا مؤلفاتهم، ومرة أخرى يُخصصون له مؤلفاً منفرداً وحده، وفكرة النظم القرآني من مظاهر الإعجاز القرآني التي قدّمها المختصون في علوم القرآن الكريم «وقد فتح أبو عبيدة القاسم بن سلام^(٢) بكتابه (مجاز القرآن) الطريق إلى بيان الإعجاز القرآني عن طريق نظمه وتأليفه، وإن كان هو نفسه لم يعرض لبيان أسرار الإعجاز، ولكنّ الجاحظ^(٣) هو الذي أدّاه إحساسه العميق بروعة النظم وما يكسب الكلام من الرونق والحيوية... فألف في ذلك كتاباً سمّاه (نظم القرآن)، ولعله أول من استعمل هذه اللفظة سواءً تردد مفهومها في ذهن من قبله، أم لا. وفكرة النظم عند الجاحظ فكرة لفظية تعتمد على حُسن الصياغة، وكمال التركيب، ودقة تأليف اللفظ، وجمال النظم... ثم نجد فكرة النظم عند ابن قتيبة^(٤) في كتابه (تأويل مشكل القرآن) بلاغية، ويظهر هذا من إلحاحه في بسط مذاهب البلاغة المختلفة دون أن يقف أمام التركيب وضم الكلام بعضه إلى بعض على ما يقتضيه علم النحو... وقد رسم عبد الجبار الهمداني^(٥) معالم

(١) المعجم الوسيط، مادة (نظم) ج ٢/ ص ٩٣٣.

(٢) هو: أبو عبيد القاسم بن سلام، ولد سنة ١٥٠ هـ، وتوفي سنة ٢٢٢ هـ واشتغل أبو عبيدة بالحديث والأدب والفقه، ومن مصنفاته: القراءات. انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان ج ٤/ ص ٦٠.

(٣) هو: عمرو بن بحر بن محبوب الكناي بالولاء، اللثي، أبو عثمان، المشهور بالجاحظ، ولد سنة ١٦٣ هـ، وتوفي سنة ٢٥٥ هـ، من مصنفاته: الحيوان. انظر: الأعلام، الزركلي ج ٥/ ص ٧٤.

(٤) هو: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي أبو محمد الدينوري، ولد سنة ٢١٣ هـ، وتوفي سنة ٢٧٦ هـ. انظر: هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي ج ١/ ص ٤٩٠.

(٥) هو: عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار بن الخليل الأسد آبادي الهمداني، توفي سنة ٤١٥ هـ، القاضي المتكلم، كان فقيهاً شافعيًا. انظر: لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني ج ٣/ ص ٣٨٦.



فكرة النظم القرآني في كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل) حين نصّ على أنّ أفراد الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بدّ مع الضم أن يكون لكلّ كلمة صفة.... لكنّ الذي أعطى فكرة النظم صورتها الواضحة، وميّزها تماماً مما قد يعلق بها، أو تعلق به هو عبد القاهر الجرجاني^(١) في كتابه (دلائل الإعجاز) وقد بسط عنده بفكرة النظم في القرآن...»^(٢).

هذه هي بعض ثمرات جهود السابقين في الحديث عن نظم القرآن الكريم حقّ لهم الشكر عليها.

فالقرآن الكريم في نظمه قد نقض عادة العرب فيما ائتلفوا عليه من ضروب الكلام من شعر ونثر ورسائل وحكم وأمثال؛ فلم يدع في نفس بليغ وفصيح منهم موضع طمع في أن يأتي بمثله، حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتتقول.

٧- جمال وقع القرآن:

«والمراد بوقع القرآن أمران:

أ- نظامه الصوتي.

ب - جماله اللغوي.

والمراد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومدّاته وغناته، واتصالاته وسكناته، اتساقاً عجيباً وائتلافاً رائعاً... وهذا الجمال الصوتي هو أول شيء أحسّته الأذان العربية أيام نزول القرآن ولم يكن قد عهدت مثله، حتى خيّل إليهم أنّه شعر أو سحر.

(١) هو: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، توفي سنة ٤٧١ هـ، واضع علم البلاغة ومن أئمة

اللغة. انظر: الأعلام، الزركلي ج ٤ / ص ٤٨.

(٢) خصائص القرآن الكريم، فهد الرومي ص ٢١.

والمراد بجمال القرآن اللغوي: ما امتاز به في رصف حروفه وترتيب كلماته، حين تعطى حروفه حقها ومستحقها، كما هو مقرر في علم التجويد.

ولقد كان الجمال اللغوي والنظام الصوتي دليل الإعجاز من ناحية، ومن ناحية أخرى كان سوراً منيعاً لحفظ القرآن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه، فيبقى سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم فلا يجرؤ أحد على تغييره»^(١).

فالقرآن الكريم في وقعه المتمثل في: نظامه الصوتي وجماله اللغوي قد كان من أسباب حفظه في الصدور قبل السطور.

فكان من أبرز خصائص الأسلوب القرآني أنه كتاب الله المجيد قد غاص في أعماقه العلماء بعد تدبرهم آياته والإنصات إليها بقلب سخره الله تعالى للكشف عن أسرار إعجاز هذا الكلام الرباني الذي تحدى به الله عز وجل فصحاء العرب بأن يأتوا ولو بآية منه - وأنى لهم ذلك - .



(١) علوم القرآن، رشدي عليان وآخرون ص ١٢٦.



المبحث الثالث خصائص عامة



وهي كذلك خصائص كثيرة عديدة منها:

١ - حفظه في الصدور:

من أشرف خصائص القرآن الكريم أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** كلف الأمة بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر؛ وإلا أثمت الأمة كلها، وليس هذا الكتاب غير القرآن، فالتوراة والإنجيل ترك لأهلها أمر الحفظ فاكتفوا بالقراءة دون الحفظ، إلا قلة لا تكاد تذكر ولم تتوافر الدواعي لحفظهما كما توافرت لحفظ القرآن الكريم فلم يكن لهما ثبوت قطعي كما هو للقرآن فسهل تحريفهما وتبديلهما.

ولم يترك الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** سبيلاً فيه حث على حفظ القرآن إلا وأرشد إليه وحث عليه فحفظه عدد كبير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم وما زالت المسيرة مستمرة يحفظ المسلمون القرآن في صدورهم، ونجد إقبالاً لا يخطر ببال ولا يحلم بمثله أهل كتاب؛ انظروا - إن شئتم - مدارس تحفيظ القرآن العديدة منذ نزول القرآن إلى عصرنا هذا ثم التفتوا يسره، فكم من مدرسة لتحفيظ الإنجيل أو التوراة فلن تجدوا منها شيئاً بل ستجدون قلة القلة تحفظ هذا أو ذلك مما لا يذكر - أبداً - في مقابل مدارس تحفيظ القرآن تقول المستشرقة لورا فاغليري: إن «في مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على

تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها»^(١) ويقول جيمي متشيز: «لعل القرآن هو أكثر الكتب التي تقرأ في العالم وهو بكل تأكيد أسرها حفظاً»^(٢).

٢- اتصال السند:

من المعلوم أن أغلب الذين يتعلمون تلاوة القرآن إنما يتعلمونها عن طريق السماع ولا يكتفون بتعلمه من المصاحف وحدها، ونعلم أن أساتذتهم تلقوه أيضاً بالسماع عن طريق مشايخهم وهكذا لا تنقطع هذه الطريقة إلى أن تصل طبقة التابعين ثم الصحابة ثم الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وبهذا يكون سند القرآن في كل عصر وفي كل حين متصلًا برسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وليس هذا لكتاب غير القرآن الكريم، فقد شرف الله هذه الأمة باتصال سندها برسولها **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

قال محمد بن حاتم المظفر: «إن الله تعالى قد أكرم هذه الأمة، وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد موصول، وإنما هو مصحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل، مما جاءهم به أنبياءهم، وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات»^(٣).

٣- أنه لا يمسه إلا المطهرون:

أنزل الله القرآن بواسطة أفضل الملائكة على أفضل الأنبياء لخير أمة أخرجت للناس، فأخرجهم به من الظلمات إلى النور ومن رجس الجاهلية إلى

(١) دفاع عن الإسلام: لورا فاغلييري ص ٥٩.

(٢) في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك ص ٢٨.

(٣) توضيح الأفكار محمد بن إسماعيل الصنعاني ج ٢ ص ٣٩٩، فتح المغيث: للسخاوي ج ٣ ص ٤.



طهارة الإسلام؛ فحق لهذا الكتاب أن يتهياً المسلمون لتلاوته وأن يستعدوا له بالطهارة، ليست الطهارة الصغرى فقط، ولكنها الطهارة الكبرى بكل معانيها.

طهارة القلب من الكفر والشرك، فلا يمس القرآن كافر ولا يمكن من ذلك، ولا يسافر بالمصحف إلى بلاد الكفر، وطهارة القلب أيضاً من الرياء والنفاق، وأن يريد بالتلاوة غير وجه الله كمن يقرأه للرياء والسمعة أو ليقال هو قارئ أو كمن يقرأه للتكسب أو لينال به شيئاً من حطام الدنيا.

وطهارة البدن من الحدثين الأكبر والأصغر فيجب الاغتسال من الجنابة ونحوها بلا خلاف، ويسن الوضوء من الحدث الأصغر بل أوجه بعض العلماء. وطهارة اللباس فينبغي أن تكون ثيابه طاهرة نظيفة نقية، وأن يستعد لها كما يستعد لملاقة الملوك فإنه مناج ملك الملوك.

وطهارة الفم فينبغي أن ينظف فاه ويستاك ويخلل أسنانه اقتداء بسنة رسول الله ﷺ وسنة أصحابه من بعده.

وهذه الطهارة خاصة بتلاوة القرآن لا يشترك معه فيها كتاب آخر.

٤- أن الله تعهد بحفظه:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١) وقد مرت بالقرآن أحداث عظيمة وأحوال جسيمة وعوامل خطيرة وتكالب عليه الأعداء وتداعت عليه الأمم ولو مر بعض ذلك على غير القرآن لأصابه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتغيير والتبديل.

أما القرآن فقد مر بهذه الأحوال والدواعي، ولم تنل منه بغيتها بل وصل إلينا

(١) سورة الحجر: ٩.

كما أنزله الله لم يتبدل ولم يتغير ما طالته الأفواه النافخة، ولا نالته الأصوات اللاغية. ليطم الله نوره ولو كره الكافرون.

وقد كانت هذه الآية بالنسبة للصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** خبراً ولكنها الآن خبر ومعجزة، معجزة أن مر خمسة عشر قرناً ولم يقع ما يخالفها، وخبر بأن الحفظ مستمر إلى يوم القيامة.

أما الكتب السابقة فلم يتعهد الله بحفظها بل أوكل أمر حفظها إلى أهلها فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾^(١).



(١) سورة المائدة: ٤٤.



الفصل الخامس عشر

تدبر القرآن الكريم

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم التدبر.

المبحث الثاني: حكم التدبر وأهميته.

المبحث الثالث: الأسباب المعينة على تدبر القرآن.

المبحث الرابع: أساليب القرآن في الدعوة إلى التدبر.

المبحث الخامس: آثار تدبر القرآن الكريم.

المبحث الأول مفهوم التدبر



أولاً- التدبر في اللغة:

تدور مادة الكلمة حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها، فالتدبر هو: النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه.

قال الزجاج (ت: ٣١١ هـ): "التدبر: النظر في عاقبة الشيء"^(١).

وقال ابن فارس (ت: ٣٩٥ هـ): "دبر: الدال والباء والراء. أصل هذا الباب

أنَّ جُلَّه في قياس واحد، وهو آخر الشيء"^(٢).

وقال الجرجاني (ت: ٨١٦ هـ) في تعريف التدبر: "عبارة عن النظر في

عواقب الأمور، وهو قريب من التفكير، إلا أن التفكير تصرف القلب بالنظر في

الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب"^(٣).

والتدبير والتدبر: نظرٌ في عواقب الأمور^(٤). فتنظر إلى ما يؤول إليه عاقبته^(٥).

ثانياً- التدبر في الاصطلاح:

قال الألويسي رَحِمَهُ اللهُ: «وأصل التَّدْبُر: التَّأَمُّل في أدبار الأمور وعواقبها، ثمَّ

(١) انظر: زاد المسير: ٣٠٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة: (٢ / ٢٦٦)، وانظر: العين: ٨ / ٣١.

(٣) التعريفات: ٥٤.

(٤) العين للخليل: (٨ / ٣٣)، والقاموس المحيط: ٣٩٠.

(٥) انظر: الصحاح تاج اللغة: ٢ / ٦٥٥.



استعمل في كل تأمل، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»^(١).

وقال السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ** في معنى تدبر القرآن: «هو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه، وعواقبه، ولوازم ذلك»^(٢).

والخلاصة في «معنى تدبر القرآن»: تفهم معاني ألفاظه، والتفكر فيما تدلُّ عليه آياته مطابقةً أو ضمناً، وما لا تتم تلك المعاني إلا به من الإشارات والتنبهات، وانتفاع القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره ونواهيه، وأخذ العبرة منه»^(٣).

(١) روح المعاني (٥ / ٩٢).

(٢) تفسير السعدي (١ / ١٨٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١ / ٥٠١)؛ التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص ١٤٥)؛ القواعد الحسان لتفسير القرآن، للسعدي (ص ٣٢)؛ تدبر القرآن، لسليمان بن عمر السندي (ص ١١).

المبحث الثاني حكم التدبر وأهميته



أولاً - حُكْمُ تَدْبُرِ الْقُرْآنِ:

أوجب الله تعالى التَّدْبُرَ والتَّفَكُّرَ وإمعان النَّظَرِ؛ لفهم معاني آيات الكتاب العزيز، وعاب على المنافقين إعراضهم عن تدبُّر القرآن والتَّفَكُّر فيه وفي معانيه في عدَّة مواضع من القرآن، ومنها:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ

اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢) (١).

٢- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤) (٢).

٣- قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو

الْأَلْبَابِ﴾ (٣٩) (٣).

إطباق المفسرين على وجوب تدبُّر القرآن:

دلَّت هذه الآيات - وما في معناها - على وجوب تدبُّر القرآن العظيم، وقد أطبق على ذلك جمهور المفسرين، وهذه بعض النُّقول الواردة عنهم في هذا الشَّان:

(١) سورة النساء: ٨٢.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

(٣) سورة ص: ٢٩.



• قال الطبري **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «في حثِّ الله **عَزَّوَجَلَّ** عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيّنات. ما يدلُّ على أنّ عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجَب عنهم تأويله من آيه؛ لأنّه محالُّ أن يُقال لمن لا يفهم ما يقال، ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به. إلا على معنى الأمر، بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبّره ويعتبر به»^(١).

• واستنبط القرطبي **رَحْمَةُ اللَّهِ** من قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٢) وجوب معرفة معاني القرآن^(٣). وقال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «ودلَّ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ على وجوب التدبُّر في القرآن؛ ليُعرف معناه»^(٤).

• وقال ابن عطية الأندلسي **رَحْمَةُ اللَّهِ** في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٥) «وهذا أمرٌ بالنظر والاستدلال»^(٦).

• وقال أبو السعود **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «إنكارٌ واستقباح؛ لعدم تدبُّرهم القرآن، وإعراضهم عن التأمُّل فيما فيه من موجبات الإيمان»^(٧).

• وقال الشوكاني **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «ودلَّت هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(١) تفسير الطبري (١ / ٤٥) باختصار.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٥ / ١٩٢)؛ أضواء البيان (٧ / ٤٢٨).

(٤) تفسير القرطبي (٥ / ٢٩٠). وانظر: تفسير ابن كثير (١ / ٥٠٣) (٤ / ١٨٠)؛ تفسير السعدي (١ / ١٨٩).

(٥) سورة محمد: ٢٤.

(٦) تفسير ابن عطية (٢ / ٨٣). وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل (١ / ١٤٩).

(٧) تفسير أبي السعود (٢ / ٢٠٧). وانظر: فتح القدير (٥ / ٣٨).

الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ (١) على وجوب التدبر للقرآن؛ ليعرف معناه، والمعنى: أنهم لو تدبروه حتى تدبره لوجدوه مؤتلفاً غير مختلف، صحيح المعاني، قوي المباني، بالغاً في البلاغة إلى أعلى درجاتها» (٢).

• وقال السيوطي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وأيضاً: فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم؛ كالطب والحساب، ولا يستشرونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم» (٣).

• وقال الزركشي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «وبالجملة؛ فالقرآن كله لم ينزله تعالى إلا ليُفهمه، ويُعلم ويُفهم، ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون» (٤).

ومع هذه الكثرة الكاثرة من النصوص الآمرة بتدبر القرآن العظيم؛ والتفكير في معانيه، وإمعان النظر فيه، والنأية عن الإعراض عنه، وكذلك النقول الواردة عن علماء التفسير في وجوب تدبر القرآن، نجد أن غالب المسلمين اليوم قد اكتفوا: بألفاظ يرددونها، وأنغام يلحنونها في المآتم والمقابر والدور، وبمصاحف يحملونها أو يودعونها تركة في البيوت، ونسوا أو تناسوا: أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبر آياته وتفهمها، والتأدب بها، والوقوف عند أوامرها، والبعد عن

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) فتح القدير (١ / ٤٩١).

(٣) الإتيان في علوم القرآن (٢ / ٤٦٩).

(٤) البرهان في علوم القرآن (٢ / ١٤٥).



نواهيها ومساخطها^(١).

ثانياً - أهمية تدبر القرآن:

تبرز أهمية تدبر القرآن العظيم في أمور كثيرة، يأتي في مقدمتها أن تدبر القرآن وتفهم علومه من النصيح لكتاب الله تعالى، وقد أشار إلى هذا المعنى أهل العلم، منهم ابن رجب **رَحْمَةُ اللَّهِ** بقوله: «وَأَمَّا النَّصِيحَةُ لِكِتَابِ اللَّهِ: فَشِدَّةُ حُبِّهِ وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ، إِذْ هُوَ كَلَامُ الْخَالِقِ، وَشِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِي فَهْمِهِ، وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ لِتَدْبُرِهِ، وَالْوَقُوفُ عِنْدَ تَلَاوَتِهِ؛ لِطَلْبِ مَعَانِي مَا أَحَبَّ مَوْلَاهُ أَنْ يَفْهَمَهُ عَنْهُ، وَيَقُومُ بِهِ لَهُ بَعْدَ مَا يَفْهَمُهُ. وَكَذَلِكَ النَّاصِحُ مِنَ الْعِبَادِ يَتَفَهَّمُ وَصِيَّةَ مَنْ يَنْصَحُهُ، وَإِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنْهُ عُنِيَ بِفَهْمِهِ؛ لِيَقُومَ عَلَيْهِ بِمَا كَتَبَ بِهِ فِيهِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ النَّاصِحُ لِكِتَابِ رَبِّهِ يُعْنِي بِفَهْمِهِ؛ لِيَقُومَ لِلَّهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ كَمَا يَحِبُّ وَيَرْضَى، ثُمَّ يَنْشُرُ مَا فَهَمَ فِي الْعِبَادِ، وَيُذِيمُ دِرَاسَتَهُ بِالْمَحَبَّةِ لَهُ، وَالتَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِهِ، وَالتَّأْدُبَ بِآدَابِهِ»^(٢). وهناك أمور أخرى تبرز لنا أهمية تدبر القرآن الكريم، وهي على النحو التالي:

أ- حاجة القلب إلى تدبر القرآن:

القلب فيه وحشة لا تُزال إلا بالأنس بكتاب الله تعالى، والتأمل في آياته، وفيه قلق وخوف لا يؤمنه إلا السكون إلى ما بشر الله تعالى به عباده، وفيه فاقة لا يغيثها إلا التزوّد من حكم القرآن ومواعظه وعبره، وفيه حيرة واضطراب لا ينجيه منها إلا الاعتصام بكتاب الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (٢ / ٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٠٩).

وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ (١).

وقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين من مغبة التّماذي في هجر القرآن، فتكون نتيجة قسوة القلوب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَكَ بِاللَّيْلِ وَمِنَ النَّهَارِ وَمَوَاقِفِ الذُّكْرِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الذُّكْرَ وَمَا يُحْيِي الذُّكْرَ لَئِنْ لَمْ يَأْتِكَ بِهِمْ لَبِئْسَ مَا يَكُونُونَ أُولَئِكَ يَتَخَوَّعُونَ قُلُوبَهُمْ لِيُذَكِّرَ اللَّهُ مَتَى هُمْ يُقَامُونَ﴾ (١٦) (٢). قال محمد بن كعب **رحمة الله**: «كانت الصحابة بمكة مُجذّبين فلما هاجروا أصابوا الرّيف والنّعمة، ففتروا عمّا كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا» (٣). والعتاب لعامة المؤمنين أحرى وأولى.

والأصل أنّ قلوب المؤمنين وجلودهم تخشع وتخضع وترق وتسكر وتطمئن عند ذكر الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٤).

فمن أراد أن يخشع قلبه، وينشرح صدره، فلا غنى له عن التّفكّر والتّمعّن في الآيات الكريمة، ولا يكن همّه - إذا افتتح السّورة - أن يقول في نفسه: متى أختتمها. قال الأجرى **رحمة الله**: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرى بها ما حسن من فعله وما قبح فيه، فما حذر مولاة حذره، وما

(١) سورة يونس: ٥٧-٥٨.

(٢) سورة الحديد: ١٦.

(٣) تفسير القرطبي (١٧ / ٢٥٠)؛ تفسير الثعالبي (٩ / ٢٤١).

(٤) سورة الزمر: ٢٣.



خَوْفَهُ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ خَافَهُ، وَمَا رَغِبَ فِيهِ مَوْلَاهُ رَغِبَ فِيهِ وَرَجَاهُ.

فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحِرْزاً، ومن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة^(١).
 و«كان القرآن له شفاءً، فاستغنى بلا مالٍ، وعزَّ بلا عشيرةٍ، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة - إذا افتتحها: متى أتعب بما أتلوه؟ ولم يكن مراده: متى أختتم السورة؟ وإنما مراده: متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة»^(٢).

وقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب واستقامته، ولا شيء أنفع للعبد في معاشه وأقرب إلى نجاته في معاده من تدبُّر القرآن العظيم، وفي هذا الشأن يقول ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكر؛ فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكمالُه، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغلوا بها عن كل ما سواها.

(١) أخلاق حملة القرآن (ص ٣٩-٤٠).

(٢) أخلاق حملة القرآن (ص ١٨-١٩).

فإذا قرأه بتفكيرٍ، حتّى إذا مرّ بآيةٍ وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كرّرها ولو مائة مرّة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكيرٍ وتفهمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبّرٍ وتفهمٍ، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب»^(١).

وأكد ذلك في موضع آخر، فقال: «فليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبّر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع منه الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتعطيه قوّة في قلبه، وحياءً، وسعةً، وانسراحاً، وبهجةً وسروراً، فيصير في شأنٍ والناس في شأنٍ آخر، وفي تأمل القرآن وتدبّره أضعافٌ أضعاف ما ذكرنا من الحكّم والفوائد»^(٢).

ب - الدخول فيمن أثنى الله عليهم بتدبّر القرآن:

أثنى الله عزّ وجلّ - في مواضع كثيرة من القرآن - على من تدبّر كلامه وتأثر به، وبيّن أن ذلك صفة عباد الله الخاشعين، ومن هذه المواضع:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا

تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾^(٣). ووجه زيادة إيمانهم عند سماع القرآن:

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ١٨٧).

(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٥١-٤٥٣) باختصار.

(٣) سورة الأنفال: ٢-٤.



هو أنهم ألقوا السَّمع للقرآن، وأحضرُوا قلوبهم لتدبره، فعند ذلك ازداد إيمانهم و يقينهم .

فالتدبر يحدث رغبة الخير، واشتياقاً إلى كرامة الله تعالى لهم، ووجلاً من عقوباته، وزجراً عن معاصيه، وكلُّ هذا ممَّا يزداد به الإيمان ^(١) .

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ ^(٢) . تبين الآية الكريمة أن الذين أوتوا العلم هم الذين يتأثرون عند سماع مواعظ القرآن؛ بسبب تدبرهم لآياته، وفيه إشارة إلى أن من لم يتأثر بالقرآن فهو جاهل لا يستحق وصف العلم.

وكرر ذكر الخور للأذقان؛ لاختلاف السبب: فالأول: لتعظيم الله تعالى وتنزيهه. والثاني: للبكاء بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم، وزيادة خشوعهم ^(٣) .

٣- قوله تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ^(٤) . قال القرطبي **رحمة الله**: «فكانت حالهم (أي: رسول الله **صلى الله عليه وسلم**)، وأصحابه **رضوا الله عنهم**) عند المواعظ: الفهم عن الله، والبكاء خوفاً من الله؛ ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكر الله وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ

(١) انظر: تفسير السعدي (٢/ ١٨٨).

(٢) سورة الإسراء: ١٠٧-١٠٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٤/ ١٨٤).

(٤) سورة مريم: ٥٨.

الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾^(١)، فهذا وَصْفُ حالهم، وحكاية مقالهم، وَمَنْ لم يكن كذلك، فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فَمَنْ كان مستنًا فليستن^(٢).

ج- عدم التعرض إلى الذم لترك التدبر:

فقد ذمَّ الله تعالى حال مَنْ هجر تدبر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدبر القول في صيغ مختلفة، وأحوال متنوعة، ومنها:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٣) قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن، والتفكر فيه، وفي معانيه»^(٤).

وزاد الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ الأمر بيانًا، بقوله: «ما تضمَّنته الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على مَنْ أعرض عن كتاب الله؛ جاء موضِّحًا في آيات كثيرة. ومعلوم أن كُلَّ مَنْ لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم - أي تصفُّحها وتفهمها، وإدراك معانيها، والعمل بها - فإنه مُعْرِض عنها، غير متدبر لها، فيستحقُّ الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات - إن كان الله أعطاه فهمًا يَقْدِرُ به على التدبر.

وهذه الآيات المذكورة تدلُّ على أن تدبر القرآن وتفهمه، وتعلمه، والعمل به أمر لا بدَّ منه للمسلمين. فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله

(١) سورة المائدة: ٨٣.

(٢) تفسير القرطبي (٧ / ٣٦٦).

(٣) النساء: ٨٢، محمد: ٢٤.

(٤) تفسير القرطبي (٥ / ٢٩٠).



وتفهمه، والعمل به، وبالسنة الثابتة المبيّنة له، من أعظم المناكر وأشنعها»^(١).

٢- قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾^(٢). أنكر الله تعالى على الكفار عدم تفكيرهم في القرآن، وتأملهم في مواعظه وعبره، وتدبرهم لآياته. فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم هو إعراضهم عن تدبر القرآن. وهذا يدل على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر^(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٤). قال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «وترك تدبره وتفهمه من هجرانه»^(٥). وقال ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «هجر القرآن أنواع - ثم ذكر منها - هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به»^(٦).

٤- مثل الله تعالى اليهود مع التوراة أقبح تمثيل، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧). قال أبو بكر الطرطوشي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل

(١) أضواء البيان (٧ / ٢٥٧) باختصار.

(٢) سورة المؤمنون: ٦٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٨ / ٧١)؛ تفسير السعدي (٥ / ٣٦٥).

(٤) سورة الفرقان: ٣٠.

(٥) تفسير ابن كثير (٦ / ١٢٠).

(٦) الفوائد (ص ١٢٣) بتصرف واختصار.

(٧) سورة الجمعة: ٥.

ملتنا، ثم لا يفهمه، ولا يعمل به»^(١).

٥- جاء في وصف الخوارج؛ قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «يَقْرُؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ»^(٢). قال النووي **رَحْمَةُ اللَّهِ** في المراد بذلك: «ليس حظُّهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب»^(٣). والتعقل والتدبر يقود إلى العمل. وقال الزركشي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «ذمَّهم بإحكام ألفاظه، وترك التفهيم لمعانيه»^(٤).

٦- عن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: «لا تهذؤوه (القرآن) هذَّ الشَّعْرِ، ولا تنثروه نثر الدَّقْل؛ قِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السُّورة»^(٥).

٧- عن أبي جَمْرَةَ **رَحْمَةُ اللَّهِ**، قال: «قلتُ لابن عبَّاسٍ: إنِّي سريعُ القراءة، وإنِّي أقرأ القرآنَ في ثلاثٍ، فقال: لأنَّ أقرأ البقرةَ في ليلةٍ فأدبَّرها وأرتلتها؛ أحبُّ إليَّ من أن أقرأ كما تقول»^(٦).

(١) الحوادث والبدع (ص ١٠١).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٦ / ٩) برقم: (٦٩٣١)، (١٧ / ٩) برقم: (٦٩٣٣)، (٩ / ١٢٧) برقم: (٧٤٣٢)، (٩ / ١٦٢) برقم: (٧٥٦٢) ومسلم في "صحيحه" (٣ / ١١٠) برقم: (١٠٦٤).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٦ / ١٠٥).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١ / ٤٥٥).

(٥) رواه البغوي في «تفسيره» (٤ / ٤٠٧)؛ والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ١٩) (رقم ١)؛ وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢ / ٢٥٦) (رقم ٨٧٣٣)؛ وأورده ابن كثير في «تفسيره» (٤ / ٤٣٥)؛ والسيوطي في «الإتقان» (١ / ٢٨٢).

(٦) رواه ابن كثير في «فضائل القرآن» (ص ٢٣٦)، وقال محققه (الشيخ أبو إسحاق الحويني): «إسناده



المبحث الثالث الأسباب المعينة على تدبر القرآن



١ - معرفة الله تعالى وتعظيمه:

فإن معرفة الله سبحانه وتعظيمه هي الباب العظيم لتدبر كلامه، فإن من امتلأ قلبه معرفة بالله وتعظيمًا له؛ عَظَّمَ كلامه، وتمعَّنَ فيه، وأصغى إليه متأملًا متدبرًا. وقد أخبر سبحانه أن المشركين - وهم الذي لا يعرفونه حقَّ المعرفة - لا ينتفعون بهذا الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢) (١).

قال ابن جرير الطبري **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "وما أنت يا محمد بمسمع من في القبور كتاب الله، فتهديهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا تقدر أن ينفع بمواعظ كتاب الله وبيانات حججه، من كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله" (٢).

وبين سبحانه أن سبب تكذيب المشركين؛ عدم معرفتهم لله حق المعرفة كما قال تعالى: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (٦٤) (٣).

صحيح". ورواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٧٤)؛ والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص ٨٩).

(١) سورة فاطر: ٢٢.

(٢) جامع البيان: ١٩ / ٣٥٩.

(٣) سورة الأعراف: ٦٤.

قال ابن عباس: "عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة بطشه"^(١).

وقال السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل"^(٢).

وقال: "فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون"^(٣).

ولا شك أن مطالعة التفاسير لا تكفي وحدها في تدبر القرآن ما لم ينضم إلى ذلك الإحساس والإيمان العميقان بأن هذا الكلام كلام الله تعالى^(٤).

قال سَلَمُ بن ميمون الخَوَّاص **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "قلت لنفسي: يا نفس، اقرئي القرآن كأنك سمعته من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة!"^(٥).

ولا شك أن تعظيم القرآن من تعظيم الله تعالى، فكما أنه سبحانه عظيم في ذاته، فإنه عظيم في صفاته ومنها كلامه القرآن، وقد سماه سبحانه برهاناً، ونوراً، وهدى، وفرقاناً، وشفاء لما في الصدور، فعظمه عند المؤمنين؛ ليعظموا قدره ويفهموه، لينالوا شفاء قلوبهم^(٦).

قال الحارث المحاسبي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "فإذا عظم في صدرك تعظيم المتكلم به،

(١) تفسير البغوي: (٣ / ٢٤٢)، زاد المسير: (٥٠٣)، وانظر: الوجيز للواحيدي: ٣٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٨١٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٨٧٢.

(٤) تدبر القرآن الكريم: ٤٦.

(٥) سير أعلام النبلاء: ٨ / ١٨٠.

(٦) انظر: فهم القرآن: ٢٨٢.



لم يكن عندك شيءٌ أرفعُ، ولا أشرفُ، ولا أنفعُ، ولا ألدُّ، ولا أحلى، من استماعِ كلامِ الله **عَزَّوَجَلَّ**، وفهمِ معاني قوله، تعظيماً وحبًّا له وإجلالاً، إذ كان تعالى قائله، فحبُّ القولِ على قَدْرِ حُبِّ قائله" ^(١).

وقد أحسن الإمام الغزالي **رَحْمَةُ اللَّهِ** في تصوير أثر ذلك التعظيم حيث يقول: "ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله. فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أنعم بفضله وإن عاقب فبعد له، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمى والتعالي. فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام" ^(٢).

٢- التمهل والتأني عند القراءة:

قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ ^(٣)، قال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره" ^(٤).

والتمهل في قراءة القرآن أدعى للفهم والتدبر، وهذه صفة قراءة النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما وَرَدَ ذلك في عدة أحاديث منها:

(١) فهم القرآن: (٣٠٢).

(٢) إحياء علوم الدين: ١ / ٢٨١.

(٣) سورة المزمل: ٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ١٤٢٧.

- عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا حَتَّى كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِعَامٍ، فَكَانَ يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا، وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيَرْتَلُّهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا»^(١).

- وَسُئِلَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: كَانَتْ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ»^(٣).

- وعن أم سلمة: أنها سُئِلت عن قراءة رسول الله، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾^(٥).

- وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لا تنثروه نثر الدقل ولا تهدؤوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة^(١).

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ١٦٤) برقم: (٧٣٣).

(٢) سورة الفاتحة: ١.

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٩٥) برقم: (٥٠٤٥)، (٦ / ١٩٥) برقم: (٥٠٤٦).

(٤) سورة الفاتحة: ١-٤.

(٥) رواه أحمد في مسنده: (٤٤ / ٢٠٦) رقم: (٢٦٥٨٣) قال الأرنؤوط في تخريجه: "صحيح لغيره وهذا سند رجاله ثقات رجال الصحيحين"، ورواه أبو داود في سننه في الحروف والقراءات: (١٥١٦) رقم (٤٠٠١)، والترمذي في سننه في فضائل القرآن: باب كيف كانت قراءة النبي: (١٩٤٥) رقم (٢٩٢٣) وفي أبواب القراءات: باب في فاتحة الكتاب: (١٩٤٥) رقم (٢٩٢٧).

(٦) رواه البغوي في تفسيره: (٨ / ٢٥١)، والآجري في أخلاق حملة القرآن: (١٠ - ١١)، وأصله في الصحيح: فقد روى البخاري في الأذان: باب الجمع بين السورتين في ركعة: (٦١) رقم (٧٧٥) عن أبي وائل: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذا كهذا الشعر!، لقد عرفت النظائر التي



- وعن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: «قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذا كهذا الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرن بينهما، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين في كل ركعة»^(١).

٣- فهم القرآن:

فهم القرآن هو أساس التدبر الصحيح، وذلك بفهم المراد من كلام الله تعالى، وفهم القرآن شامل لفهم معنى الآيات - بحيث يفهم القارئ معاني الكلمات، ويقرأ تفسيرها - وفهم المقصود من إيراد الآيات: وبهذا يفهم القارئ مقاصد القرآن.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: "وفي حث الله عباده على الاعتبار بما في أي القرآن من المواعظ والبيانات... ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله: "اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان والكلام" - إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فأما قبل ذلك، فمستحيل أمره بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه"^(٢).

كان رسول الله يقرن بينهما، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين من آل حم في كل ركعة. ورواه أيضاً في فضائل القرآن: باب الترتيل في القراءة: (٤٣٧) رقم ٥٠٤٣ وروى مثله مسلم في صلاة المسافرين: باب ترتيل القراءة واجتناب الهد: (٨٠٦) رقم ٨٢٢.

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١ / ١٥٤) برقم: (٧٧٥).

(٢) جامع البيان: (١ / ٧٦-٧٧).

وينبغي للقارئ أن يتعد عن موانع الفهم كالتكلف في القراءة والانشغال بها عن الفهم، واتباع الهوى فإنه من أعظم موانع تدبر القرآن الكريم.

٤- تحسين الصوت عند القراءة:

وللصوت الحسن أثر كبير في تدبر كلام الله تعالى، وقد حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تزيين الصوت عند القرآن فقال: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٢).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "قد فهم من هذا أن السلف - إنما فهموا من التغني بالقرآن: إنما هو تحسين الصوت به، وتحزينه، كما قاله الأئمة"^(٣).

وقال: "والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه وتحزينه والتخشع به"^(٤).

وقال النووي: "أجمع العلماء - من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت

(١) أخرجه ابن الجارود في "المنتقى" (١ / ١٢٥) برقم: (٣٤٦) وابن خزيمة في "صحيحه" (٣ / ٧٢) برقم: (١٥٥١)، وابن حبان في "صحيحه" (٣ / ٢٥) برقم: (٧٤٩)، والحاكم في "مستدرکه" (١ / ٥٠١) برقم: (١٨٥١)، والنسائي في "المجتبى" (١ / ١٤٩) برقم: (٦٤٥ / ٣)، والنسائي في "الكبرى" (١ / ٤٣١) برقم: (٨٨٧)، وأبو داود في "سننه" (١ / ٢١٣) برقم: (٥٤٣)، والترمذي في "جامعه" (٣ / ٥٠٧) برقم: (١٩٥٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢ / ٤٠١) رقم ٧٧١.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٩ / ١٥٤) برقم: (٧٥٢٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (١ / ٦٠) طبعة دار طيبة.

(٤) تفسير القرآن العظيم: (١ / ٦٣).

بالقرآن، وأقوالهم وأفعالهم مشهورةٌ نهاية الشهرة، فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها، ودلائل هذا من حديث رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؛ مستفيضةٌ عند الخاصة والعامة" ^(١).

والمطلوب من تحسين الصوت الوصول للخشوع والتأثر، قال السندي **رَحِمَهُ اللهُ**: "المطلوب من تحسين الصوت بالقرآن أن تنتج قراءته خشية الله فمن رأيتم فيه الخشية فقد حسن الصوت بالقرآن المطلوب شرعاً فيعد من أحسن الناس صوتاً" ^(٢).

٥- فهم لوازم النص ومقاصده:

وهذا من أعظم أسباب تدبر القرآن الكريم، فإن القرآن كثيراً ما يذكر في القصص مواطن العبرة، ويترك للفؤاد والعقل مطلق التأمل والتدبر في ما لم يذكر، وقد يختم الآية بعللة لم تعلق بشيء، ليتأمل العقل، كما قال تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ^(٣).

قال الشوكاني **رَحِمَهُ اللهُ**: "ولم يقل عن كذا، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذم؛ لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر في علم البيان" ^(٤).

ويدخل في هذا السبب معرفة مقاصد سور القرآن وآياته، وهو باب عظيم لتدبر القرآن الكريم، وتطبيقاته في كتب التفسير كثيرة.

(١) التبيان في آداب حملة القرآن: ١٠٩.

(٢) نقله عنه في مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٧ / ٥٨٧.

(٣) سورة التكاثر: ١-٢.

(٤) فتح القدير: ١٩٧٠.

وهذا السبب مؤثر جداً في التدبر، خاصة في القصص القرآني، والأمثال القرآنية.

٦ - الإنصات عند سماعه:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن؛ كي ينتفعوا به، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١).
والمعنى كما قال الطبري **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «أصغوا سمعكم؛ لتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه، وأنصتوا إليه؛ لتعقلوه، وتدبروه...؛ ليرحمكم ربكم باتعاطكم بمواعظه، واعتباركم بعبيره» (٢).

إذن الملازم للاستماع والإنصات سينال «خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدىً متزايداً، وبصيرة في دينه» (٣).

٧ - حُسن الابتداء والوقف:

هناك آيات لها تعلق بما قبلها أو بعدها، وكثير من القراء لا يُراعون حسن الابتداء أو الوقف، ولا يتفكرون في ارتباط الكلام بعضه ببعض، ولا يتأملون معاني الآيات، بل جل عملهم هو التقيّد بالأعشار والأحزاب والأجزاء، ممّا يُفوّتُ فهم كثير من الآيات على وجهها الصحيح.

ومن أمثلة الابتداء والوقف الذي لا ينبغي في "الأجزاء":

(١) سورة الأعراف: ٢٠٤.

(٢) تفسير الطبري، (٦ / ٢٠١).

(٣) تفسير السعدي، (١ / ٣١٤).



قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾^(١)؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي﴾^(٢)؛ وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾^(٣)؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٤)؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(٥).

ومن أمثلة الابتداء والوقف الذي لا ينبغي في "الأحزاب": قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾^(٦)؛ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ﴾^(٧).

قال النووي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «فكُلُّ هذا وشبهه، ينبغي ألا يُبدأ به ولا يُوقف عليه؛ فإنه متعلق بما قبله، ولا يغترن بكثرة الفاعلين له من القراء الذين لا يُراعون هذه الآداب، ولا يتفكرون في هذه المعاني...»

ولهذا المعنى قالت العلماء: قراءة سورة قصيرة بكمالها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة، فإنه قد يخفى الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال»^(٨).

(١) سورة النساء: ٢٤.

(٢) سورة يوسف: ٥٣.

(٣) سورة العنكبوت: ٢٤.

(٤) سورة الأحزاب: ٣١.

(٥) سورة يس: ٢٨.

(٦) سورة البقرة: ٢٠٣.

(٧) سورة آل عمران: ١٥.

(٨) التبيان في آداب حملة القرآن، (ص ١٥١-١٥٢). وانظر: تدبر القرآن، سليمان بن عمر السندي (ص ٣١-

٨ - الوقوف عند المعاني:

والمقصود بذلك: أن يقف القارئ عند المعنى فلا يتجاوزه إلى غيره، متأملاً له، ومتفكراً فيه.

ومن أبلغ الشواهد وأوضحها: ما رواه حذيفة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** حيث قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ... ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا. يَقْرَأُ مِثْرَسَلًا، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ. ثُمَّ رَكَعَ...»^(١)، وهذا من صور الوقوف عند المعاني.

وصفة الوقوف عند المعاني: «أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان ممّا قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزه وعظم، أو دعاء تضرّع وطلب»^(٢).

٩ - ترديد الآية المؤثرة في القلب:

ترديد الآيات من أبرز صور الوقوف عند المعاني، ولنا في رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أسوة حسنة؛ فقد «قَامَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا، وَالْآيَةُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

(٣٧).

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ١٨٦) برقم: (٧٧٢).

(٢) الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي (١ / ٢٨٣).



الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ (١) (٢)

قال ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «فلو عَلِمَ النَّاسُ ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواه، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتَّى إذا مرَّ بآيةٍ - وهو محتاج إليها في شفاء قلبه - كرَّرها ولو مائة مرَّة، ولو ليلة، فقراءة آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُمٍ، خير من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ وتفهُمٍ، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن». (٣)

و«الآيةُ مثلُ التَّمرة، كلِّما مضغْتَها استخرجتَ حلاوتها». (٤)

♦ وعن عبَّادِ بْنِ حَمَزَةَ **رَحْمَةُ اللَّهِ** قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَسْمَاءَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** وَهِيَ تَقْرَأُ: ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ (٥)، قَالَ: فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا فَجَعَلَتْ تَسْتَعِيدُ وَتَدْعُو. قَالَ عَبَّادٌ: فَذَهَبْتُ إِلَى السُّوقِ فَقَضَيْتُ حَاجَتِي، ثُمَّ رَجَعْتُ وَهِيَ فِيهَا بَعْدُ تَسْتَعِيدُ وَتَدْعُو». (٦)

♦ وعن رجلٍ من أصحابِ الحسنِ البصريِّ **رَحْمَةُ اللَّهِ** قَالَ: «بينما أنا ذات ليلةٍ

(١) سورة المائدة: ١١٨.

(٢) أخرجه ابن حبان في "صحيحه" (١٤ / ٣٧٥) برقم: (٦٤٦٢) والحاكم في "مستدرکه" (١ / ٢٤١) برقم: (٨٨٦)، والنسائي في "المجتبى" (١ / ٢٢٠) برقم: (١٠٠٩ / ١) والنسائي في "الكبرى" (٢ / ٢٤) برقم: (١٠٨٤)، والدارمي في "مسنده" (٣ / ١٦٠٣) برقم: (٢٥١٠) وابن ماجه في "سننه" (٢ / ٣٧٢) برقم: (١٣٥٠) والبيهقي في "سننه الكبير" (٣ / ١٣) برقم: (٤٧٩٢)، وأحمد في "مسنده" (٩ / ٤٩٦٧) برقم: (٢١٦٩٤)، وقال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

(٣) مفتاح دار السعادة، (١ / ١٨٧).

(٤) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١ / ٤٧١).

(٥) سورة الطور: ٢٧.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه)، (٢ / ٢٥)، (رقم ٦٠٣٧). وانظر: مختصر قيام الليل، (ص ١٤٩)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١١١).

عند الحَسَنِ فقام من اللَّيْلِ يَصَلِّي، فلم يَزَلْ يَرُدُّ هذه الآية، حَتَّى أُسْحَرَ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١)؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ، قلنا: يا أبا سعيد، لَمْ تَكُنْ تُجَاوِزُ هذه الآية سائر اللَّيْلَةِ، قال: إِنَّ فِيهَا مُعْتَبَرًا، ما تَرْفَعُ طَرْفًا وَلَا تَرُدُّ، إِلَّا وَقَعَ عَلَيَّ نِعْمَةٌ، وما لا نَعْلَمُ من نِعَمِ اللَّهِ أَكْثَرَ.^(٢)

قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد بات جماعة من السَّلَفِ، يتلو الواحد منهم الآية الواحدة، ليلةً كاملةً أو معظمها، يتدبَّرها عند القراءة».^(٣)

وقال ابن القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه كانت عادة السَّلَفِ، يَرُدُّ أَحَدُهُم الآية إلى الصَّبَاحِ».^(٤)

(١) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في (التَّهَجُّدُ وقيام اللَّيْلِ)، (١ / ١٥٩)، (رقم ٥٣). وانظر: مختصر قيام اللَّيْلِ، (ص ١٥١).

(٣) الأذكار، (ص ٨٧). وانظر: المجموع (٢ / ١٨٧)؛ التبيان في آداب حملة القرآن (ص ١٠٨).

(٤) مفتاح دار السعادة (ص ١٨٧).



المبحث الرابع أساليب القرآن في الدعوة إلى التدبر



دعا القرآن إلى التدبر في مواضع كثيرة، وحثَّ عليه، وتفنن في ذلك غاية التفنن، وحركَ القلوبَ والعقولَ إلى تأمل المعاني، والاتعاظ والاستبصار بما جاء من الله تعالى من التخويف والترهيب والترغيب، وما ذكر من مصير الأمم السالفة، حين استجابوا أو كذبوا الرسل عليهم الصلاة والسلام.

لذلك فإن المواضع التي يذكر فيها القرآن القصص، والأمثال، والتي يذكر فيها الحثَّ على: ^(١) التَّعْقُلِ، ^(٢) والتَّذَكُّرِ، ^(٣) والتَّفَكُّرِ، ^(٤) والتقوى، ^(٥) والإيمان،

(١) ورد قوله تعالى: (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) في سبعة مواضع، كما ورد قوله تعالى: (لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) في ثمانية مواضع. وقد ورد غيرها من الآيات في نفس الموضوع بصيغ مختلفة.

(٢) ورد قوله تعالى: (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) في سبعة مواضع من القرآن الكريم، كما ورد قوله تعالى: (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) في موضعين. وورد قوله تعالى: (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) في سبعة مواضع، وورد قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) في ستة مواضع.

(٣) قال تعالى: (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) [الأنعام: ٥٠]. وورد قوله تعالى: (لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) في موضعين، وقوله تعالى: (لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) في سبعة مواضع، وورد قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ يَتَفَكَّرُونَ) في موضعين.

(٤) ورد قوله تعالى: (أَفَلَا تَتَّقُونَ) في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) في خمسة مواضع أيضاً، وورد قوله: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) في ستة مواضع.

(٥) كما قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) [الأنبياء: ٣٠].

والرؤية والإبصار^(١)، والسمع^(٢)؛ وإنما يدعو فيها إلى تدبر القرآن، والتأمل فيما فيه من المواعظ والآيات، القائد بعد ذلك إلى التصديق والإيمان واتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولقد تنوعت الأساليب التي دعا فيها القرآن إلى التدبر، ويمكن بيان بعض تلك الأساليب فيما يأتي:

الأسلوب الأول: الحث المباشر على التدبر العام للقرآن:

وقد ورد ذلك في عدد من الآيات الكريمات منها:

أ- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٣).

ب- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٤).

ج- قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ

(١) كقوله تعالى: (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) [طه: ٨٩]، وقوله تعالى: (بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) [الأنبياء: ٤٤]، وقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) [الغاشية: ١٧]، وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) [السجدة: ٢٧]، وورد قوله تعالى: (فَانظُرُوا) في خمسة مواضع، وورد قوله تعالى: (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) في ثلاثة مواضع.

(٢) كقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّ أَفَلَا يَسْمَعُونَ) [السجدة: ٢٦]، وقوله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) [القصص: ٧١]، وورد قوله تعالى: (لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) في ثلاثة مواضع.

(٣) سورة النساء: ٨٢.

(٤) سورة محمد: ٢٤.



الأولين ﴿٦٨﴾ (١).

د - قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو

الألباب ﴿٤٩﴾ (٢).

فقد دعا القرآن هنا إلى التدبر دعوة مباشرة صريحة، وأبان أن علة إنزال القرآن؛ التدبر، ولا شك أنها علة عظيمة قائمة قائمة إلى كل فلاح وفوز في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ (٣).

الأسلوب الثاني: توجيه الخطاب لأصحاب العقول والنهاي (٤):

فقد ورد توجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى أصحاب العقول، والألباب، والنهاي.

وسر ذلك: حث أصحاب تلك العقول والألباب إلى استعمالها في تدبر النص القرآني، والاهتداء بما فيه، ومن تلك الآيات:

أ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) سورة المؤمنون: ٦٨.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٤) ورد قوله تعالى: (لأولي الألباب) في خمسة مواضع من القرآن الكريم، وورد قوله تعالى: (إنما يتذكر أولو الألباب) في موضعين، وورد قوله تعالى: (وما يدرك إلا أولو الألباب) في موضعين أيضاً، وورد قوله تعالى: (إن في ذلك لآيات لآولي النهي) في موضعين، وورد قوله تعالى: (هذا بلاغ للناس ليُتذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب) [إبراهيم: ٥٢]، وقوله: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) [ص: ٢٩]، وقال تعالى: (هل في ذلك فسم لذي حجر) [الفجر: ٥]، وورد قوله تعالى: (إن في ذلك لعة لآولي الأبصار) في موضعين.

لَايَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ (١).

ب - وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٢).

ج - وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي

النُّهَى ﴿٥٤﴾ (٣).

د - وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ

فِي مَسَكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ (٤).

قال ابن جرير الطبري **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "وخصّ - تعالى ذكره - بأنّ ذلك آياتُ

لأولي النهى؛ لأنهم أهل التفكير والاعتبار، وأهل التدبر والاعتاظ" (٥).

وقال في تفسير الآية الثالثة: "إن فيما وصفتُ في هذه الآية من قدرة ربكم،

وعظيم سلطانه لآيات: يعني لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن

لا إله لكم غيره" (٦).

الأسلوب الثالث: ضَرْبُ الْأَمْثَالِ بِقِصْدِ التَّفَكُّرِ وَالتَّذَكُّرِ:

فقد ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن الكريم، وحث على تأملها وتذكرها،

في آيات عديدة، وفي مجالات متعددة، فضرب الله الأمثال: للإيمان، والكفر،

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٢) سورة يوسف: ١١١.

(٣) سورة طه: ٥٤.

(٤) سورة طه: ١٢٨.

(٥) جامع البيان: ١٦ / ٨٦.

(٦) جامع البيان: ١٦ / ٨٦.



والعلم النافع، وفضح النفاق، والحث على الإنفاق، والترغيب في الخير، والتنديد بالشر، وتصوير الطيب والخبيث، والصالح والطالح، وإقامة الأدلة والبراهين، وبيان خيري الدنيا والآخرة ^(١).

وقد قال الله تعالى في بيان الهدف من تلك الأمثال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ^(٣)، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ^(٤).

وأبان القرآن مصير مَنْ لم ينتفع بتلك الأمثال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ ^(٥) فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ^(٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ^(٧) وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّيسِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ^(٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ^(٩).

قال ابن جرير الطبري **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "يقول تعالى ذكره: وكلّ هذه الأمم التي أهلكتها، التي سمّيناها أو لم نسمّها، ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ﴾ ^(٦) يقول: مثلنا له

(١) انظر: أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم: ٧.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٥.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٣.

(٤) سورة الحشر: ٢١.

(٥) سورة الفرقان: ٣٥-٣٩.

(٦) سورة الفرقان: ٣٩.

الأمثال، ونبّهناها على حججنا عليها، وأعدرنا إليها بالعبر والمواعظ، فلم نُهلك منهم أمة إلا بعد الإبلاغ إليهم في المعذرة" (١).

الأسلوب الرابع: تعليل الآيات وختمها بما يدعو إلى التدبر:

فإن كثيراً من الآيات قد خُتِمَتْ بعلل تدعو إلى التدبر والتفكير، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿فَأَقْصِبْ أَلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٧)، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (٨)، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ

(١) جامع البيان: (١٧ / ٤٥٥ - ٤٥٦).

(٢) سورة البقرة: ٢١٩.

(٣) سورة البقرة: ٢٢١.

(٤) سورة البقرة: ٢٦٦.

(٥) سورة الأنعام: ٦٥.

(٦) سورة الأعراف: ١٧٦.

(٧) سورة إبراهيم: ٢٥.

(٨) سورة طه: ١١٣.



مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾^(٣)، وغيرها من الآيات الكثيرة.

ولا شك أن المؤمن يسعى لتحقيق تلك الغايات التي نزلت من أجلها الآيات، ولا يكون ذلك إلا بتدبر القرآن والتأمل فيه والعمل بما يتضمنه من أوامر وتوجيهات.

وقد أخبر الله تعالى أن الغافلين والكافرين والمتكبرين والمكذابين؛ مصروفون عن تدبر آياته وفهمها والانتفاع بها - ومنها القرآن - كما قال: ﴿سَاءَ صَرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾^(٤).

قال سفيان بن عيينة **رَحِمَهُ اللهُ**: "أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي"^(٥).

وقال ابن جرير الطبري **رَحِمَهُ اللهُ**: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن

(١) سورة السجدة: ٣.

(٢) سورة الزمر: ٢٧-٢٨.

(٣) سورة الدخان: ٥٨.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٥) جامع البيان: ١٣ / ١١٣.

يقال: إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه. والسماوات والأرض، وكل موجود من خلقه؛ فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته، وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حَقَّتْ عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادِّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفقوا لفهم بعض ذلك فهدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنبأوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم" (١).

الأسلوب الخامس: ذكر القصص القرآني للتفكير والعبرة:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (٣).

فقد صرَّح القرآن بأن في تلك القصص عبرة، وطريق الاعتبار بتلك القصص هو تدبر القرآن.

وقد أحسن الإمام أبو جعفر الطبري **رَحْمَةُ اللَّهِ** — عند تفسير آية الأعراف

(١) جامع البيان: ١٣ / ١١٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٦-١٧٧.

(٣) سورة يوسف: ١١١.

السابقة حيث كان عمله مثلاً يُحتذى للتدبر فقال: "وأما قوله: ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ﴾^(١)، فإنه يقول لنبيه محمد: فاقصص - يا محمد - هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتينا آياتنا، وأخبار الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصصت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حل بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رُسُلنا من نعمتنا؛ على قومك من قريش، ومن قبلك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحل بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقة أمرك وصحة نبوتك، إذ كان نبأ ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾^(٢) من خفي علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أخبارهم، ومن قرأ الكتب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك - وأنت أمي لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم - الحجة البينة لك عليهم بأنك لله رسول، وأنك لم تعلم ما علمت من ذلك، وحالك الحال التي أنت بها، إلا بوحى من السماء"^(٣).

وبهذا يتبين أثر القصص القرآن في الهداية والإيمان واليقين عند التدبر الصحيح والتأمل بقصد الاعتبار والاستبصار.

(١) سورة الأعراف: ١٧٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٥.

(٣) جامع البيان: ١٣ / ١١٣.

المبحث الخامس آثار تدبر القرآن الكريم



الأثر الأول: التدبر الصحيح يهدي إلى الإيمان ويزيده:

وقد دلّ على ذلك أدلة من كتاب الله تعالى منها:

أ - قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٤٤) ﴿١﴾.

ب - وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) ﴿٢﴾.

فالآية الأولى صريحة في زيادة إيمان المؤمنين بسبب ما أنزل من القرآن الكريم، وإنما يكون ذلك عند تأمل القرآن وتدبره وفهم ما فيه، مما ينتج عنه الخوف والفرح والرجاء بما عند الله، والعمل بما يتضمن من أوامر ونواهٍ.

قال مجاهد والسدي **رَحِمَهَا اللَّهُ** وغيرهما: ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾: فرقت، أي: فزعت وخافت ^(٣).

(١) سورة التوبة: ١٢٤.

(٢) سورة الأنفال: ٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٧٤.



وقال الربيع بن أنس **رَحِمَهُ اللهُ**: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (١): زادتهم خشية" (٢).

وليس مجردُ السَّماعِ كافيًا في حصول ذلك الإيمان، فإن المشركين قد سمعوا القرآن ولكن كان عملهم الإعراض والكفر والتكذيب والاستهزاء والتولي وعدم العمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (٣)، وقال: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَزَلُّوكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ (٦).

فتزيدهم لذلك الآيات رجسًا وكفرًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ

(١) سورة الأنفال: ٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (٥ / ١٦٥٦) رقم ٨٧٧٩.

(٣) سورة التوبة: ٨٦.

(٤) سورة التوبة: ١٢٧.

(٥) سورة محمد: ٢٠.

(٦) سورة القلم: ٥١.

كَفَرُونَ ﴿١٢٥﴾ (١).

وأما المؤمنون فإنهم بخلاف ذلك كما قال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ:** "وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أو امره، وترك زواجه" (٢).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٧٣) (٣) (٤): "أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين، بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم" (٥).

وقال السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ:** "﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ وَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (٦): ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل

(١) سورة التوبة: ١٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٧٤.

(٣) سورة الفرقان: ٧٣.

(٤) تنبيه: كلام ابن كثير حول هذه الآية ليس في تفسير سورة الفرقان وإنما في تفسير سورة الزمر عند الآية رقم: (٢٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم: ١١٨٣.

(٦) سورة الأنفال: ٢.



هذا مما يزداد به الإيمان" (١).

والمؤمن يقيس تدبره بهذا الأصل العظيم؛ فإن أورثه إيماناً بالله، وتصديقاً برسوله؛ فهو على جادة السلف الصالح في تدبر القرآن، وإن كانت تلاوته مجرد ألفاظٍ يرددها أو أصواتٍ يسمعهما فإنه لم يصل بعد إلى المعنى الحقيقي لتدبر القرآن الكريم.

الأثر الثاني: التدبر يبعث على الخشية والخوف والرجاء والدمع:

وقد دلّ على ذلك آيات منها:

أ - قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٢٣) (٢).

ب - وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَىٰ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣) (٣).

قال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ:** "هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣١٥.

(٢) سورة الزمر: ٢٣.

(٣) سورة المائدة: ٨٣.

ذَكَرَ اللَّهُ ﴿١﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه" (٢).

وقد وصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع والبكاء عند استماع القرآن، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١١٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١١٩﴾﴾ (٣).

مسألة: التدبر الصحيح يبعث على التأثر بلا تكلف:

وهذا هو حال الصحابة أجمعين، والتابعين، فقد كان تدبرهم للقرآن أعظم التدبر وأعلاه، مورثاً العمل والإيمان والتأثر بلا تكلف، وقد نبه العلماء إلى حال بعض الناس الذين فهموا التدبر على غير وجهه، فكان تدبرهم صراخاً ووعياً وتكلفاً، ومن تلك الأقوال التي تحذر من ذلك:

- قال عروة بن الزبير **رَحِمَهُ اللَّهُ**: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**:

كيف كان أصحاب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله: تدمع أعينهم وتتشعر جلودهم. قال فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرَّ أحدُهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" (٤).

(١) سورة الزمر: ٢٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١١٨٣.

(٣) سورة الإسراء: ١٠٦-١٠٩.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: (١٠ / ٣٢٤٩) رقم (١٨٣٧٩)، وعزاه السيوطي في الدر المشهور: (٧ /

١٩١) إضافة إليه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر. وانظر: زاد المسير:

- وقال عكرمة **رَحِمَهُ اللَّهُ**: سئلت أسماء بنت أبي بكر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: هل كان أحد من السلف يُغشى عليه من الخوف؟ قالت: لا، ولكنهم كانوا ييكون^(١).
- وعن ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** أنه: مر برجل من أهل العراق ساقطاً، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، قال ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: إنا لنخشى الله وما نسقط!^(٢). وقال ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**^(٣).
- وقال قتادة **رَحِمَهُ اللَّهُ** بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿تَقَشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٤): "هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان"^(٥).

الأثر الثالث: التدبر يورث العمل:

فإن تدبر القرآن لا يقفُ بالمؤمن عند مجرد السماع والتأثر، بل يتعدى ذلك

(١٢٢٩)، والمحرر الوجيز: ٤ / ٥٢٨.

(١) زاد المسير: ١٢٢٨ - ١٢٢٩ (٥٥) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ /

٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، وزاد المسير: (١٢٢٨)، والمحرر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

(٢) زاد المسير: ١٢٢٨ - ١٢٢٩ (٥٥) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ /

٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، وزاد المسير: (١٢٢٨)، والمحرر الوجيز: (٤ / ٥٢٨).

(٣) انظر: البحر المحيط: (٩ / ١٩٦)، والجامع لأحكام القرآن: (١٥ / ٢٤٩)، وتفسير البغوي: (٧ / ١١٦).

(٤) سورة الزمر: ٢٣.

(٥) رواه عبد الرزاق في تفسيره: (٣ / ١٣٠) رقم (٢٦٢٦)، وانظر: تفسير البغوي: (٧ / ١١٦)، وفهم القرآن:

(٢٧٩)، وتفسير القرآن العظيم: ١١٨٣.

إلى العمل والاستجابة لله ورسوله، وهذا أصلٌ عظيم من أصول التدبر، وإلا فقد ذمَّ الله اليهود الذين يزعمون أنهم آمنوا بالكتاب، والحال أنهم لا يعملون به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ (١).

وقال الشيخ السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسوله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ (٢) " (٣).

ولا شك أن العمل بالقرآن الكريم نتيجة الإيمان به وتدبر معانيه.

الأثر الرابع: فهم مراد الله تعالى من الآيات:

من فوائد تدبر القرآن الفهم عن الله تعالى وهو مقصد عظيم من مقاصد القرآن؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ (٤).

(١) سورة البقرة: ٩١.

(٢) سورة البقرة: ١٠١.

(٣) القواعد الحسان: ١٣٦.

(٤) سورة الأنعام: ٦٥.



قال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ**: أَي: نُبِيَّهَا وَنُوضِّحُهَا وَنُقْرِئُهَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (١)
 أَي: يَفْهَمُونَ وَيَتَدَبَّرُونَ عَنِ اللَّهِ آيَاتِهِ وَحُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ (٢).

فإن الذي لا يفهم القرآن لا يتفهم بما فيه، من حُجَجٍ وَبَرَاهِينٍ، وحكمٍ
 وأمثالٍ، وقصصٍ وأحكامٍ.

ومما يدل على أن تدبّر القرآن وفهم معانيه من مقاصد الشرع ما ثبت عن
 عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي
 أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ" (٣).

والفهم لكتاب الله تعالى هو الذي قدم عبد الله بن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** حتى كان
 يجالس الأشياخ من أصحاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في مجلس عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، عن
 ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، قال: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ
 تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلِهِ؟ فَقَالَ: "إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ" قَالَ: فَدَعَاهُمْ
 ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ: وَمَا رُئِيْتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا
 تَقُولُونَ فِي: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي
 دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (٤). حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ
 وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا،

(١) سورة الأنعام: ٦٥.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧).

(٣) رواه أبو داود - كِتَابُ الصَّلَاةِ، أَبْوَابُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَرْتِيلِهِ، بَابُ تَحْزِيبِ الْقُرْآنِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ:
 ١٣٩٤، وَالتِّرْمِذِيُّ - أَبْوَابُ الْقِرَاءَاتِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٢٩٤٩، بِسْنَدٍ
 صَحِيحٍ.

(٤) سورة النصر: ١-٢.

فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكْذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتَحُ مَكَّةَ، فَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجَلِكَ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: "مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ" (١).

لذلك أشد عقوبة يمكن أن يعاقب بها إنسان في الدنيا أن يصرفه الله تعالى عن فهم كتاب الله تعالى؛ قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (٢).
قَالَ: "أَنْزَعُ عَنْهُمْ فَهَمَّ الْقُرْآنِ، فَأَصْرِفُهُمْ عَنْ آيَاتِي" (٣).
لذلك أشد الناس بلاذةً وقلةً فهم هم المنافقون لأنهم أبعدهم الناس عن القرآن وعن تدبره.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ إِنَّفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٤).

وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ: "ثَلَاثٌ أَحْبَبْنَنَ لِنَفْسِي وَإِلِخْوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ" (٥).

(١) رواه البخاري - كتاب المغازي، باب، حديث رقم: ٤٢٩٤.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٣) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة - ما ذكر من الفضل في المتفكر في ذلك، حديث رقم: ٥٨.

(٤) سورة محمد: ١٦.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الإفتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم



قال ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ**: "فما أشدها من حسرة وأعظمها من غيبة على من أفنى أوقاته في طلب العلم ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ولا باشر قلبه أسرارهِ ومعانيهِ"^(١)



(١) بدائع الفوائد (١ / ١٩٤).

الفصل السادس عشر عشر

فضائل القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: فضل حفظ القرآن وقراءته وتعلمه وتعليمه.

المبحث الثاني: التغني بالقرآن.

المبحث الثالث: فضائل بعض سور وآيات القرآن.



المبحث الأول فضل حفظ القرآن وقراءته وتعلمه وتعليمه



وردت أدلة كثيرة تبين فضل القرآن، وفضل قارئه، وفضل معلمه ومتعلمه،
ومن هذه الأدلة:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ (١).

شَرَّفَ اللهُ أُمَّةَ الإِسْلَامِ بِخَصِيصَةٍ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَلَلِ قَبْلَهُمْ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقْرَءُونَ كِتَابَ رَبِّهِمْ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، كَمَا جَاءَ فِي صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ وَهْبِ بْنِ مَنْبِهِ: (٢) أُمَّةٌ أَنَا جِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، (٣) بِخِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَدْ كَانُوا يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ نَظْرًا، لَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ. (٤)

(١) سورة فاطر: ٢٩-٣٠.

(٢) تابعي ثقة، ولد سنة ٣٤ هـ، وأخذ عن ابن عباس وابن عمر وأبي سعيد وغيرهم من الصحابة، كان إخباريًا قصاصًا، غزير العلم بالإسرائيليات وصحائف أهل الكتاب، ومن المشهورين بالعبادة والوعظ، تولي قضاء صنعاء. توفي سنة ١١٠ هـ، وقيل سنة ١١٣ هـ، وقيل سنة ١١٤ هـ. سير أعلام النبلاء (٤ / ٥٤٤)، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١ / ١٥٠).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب، وصفة أمته (١ / ٣٧٩).

(٤) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣ / ٤٠٠).

٢- وقد تكفل الله بحفظ هذا الكتاب، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُو لَحَافِظُونَ﴾^(١)، وكان من حفظه **عزَّجَلَّ** لكتابه أن وفق هذه الأمة إلى حفظه واستظهاره.

٣- وَعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٢).

٤- وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٣).

أراد بالخيرية هنا حصول التعليم بعد العلم؛ لأن القرآن أشرف العلوم فيكون من تعلمه وعلمه لغيره أشرف ممن تعلم غير القرآن، والجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عني **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٤) والدعاء إلى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهو أشرف الجميع^(٥).

٥- عن أبي موسى الأشعري: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَأَلَّا تُرْجَجَ، طَعْمُهَا طَيْبٌ وَرِيحُهَا طَيْبٌ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيْبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٩٢) برقم: (٥٠٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٩٢) برقم: (٥٠٢٨).

(٤) سورة فصلت، الآية (٣٣).

(٥) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧٦/٩.



الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمِثْلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمِثْلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا»^(١).

شبه النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في هذا الحديث المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة لطعمها الطيب وريحها الطيب، فخص صفة الإيمان بالطعم، وصفة التلاوة بالريح؛ لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن، إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة، وفي هذا الحديث ثبوت فضل قارئ القرآن على غيره، فيستلزم فضل القرآن على سائر الكلام كما فضل الأترج على سائر الفواكه، وشبه الفاجر الذي لا يقرأ القرآن بالحنظلة لبيان عدم النفع لا له ولا لغيره، وربما كان مضراً له ولغيره^(٢).

٦- عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ **عَزَّ وَجَلَّ** خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلَاثُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»^(٣).

في هذا الحديث يرغب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الصحابة بتعلم القرآن الكريم أو قراءته، فشبه الآيتين بناقتين كوماوين، والثلاث بثلاث، والأربع بأربع، وأصل الكوم: العلو، أي فيحصل على ناقتين عظيمتي السنام، وهي من خيار مال

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل القرآن على سائر الكلام، رقم الحديث (٥٠٢٠).

(٢) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/٦٦-٦٧، وعمدة القاري شرح صحيح البخاري ٢٥/٢٠٠.

(٣) صحيح مسلم ١/٥٥٢ رقم الحديث (٨٠٣).

العرب، بغير إثم كسرقة وغصب، ولا قطع، والمعنى: أن الآيتين خير له من ناقتين، وثلاث من الآيات خير له من ثلاث من الإبل، وأربع خير له من أربع من الإبل، وهكذا كلما ضاعف عدد الآيات فهو خير له من مقابلها من النوق^(١).

٧- عن أبي أمامة الباهلي: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان^(٢)، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة^(٣).

٨- عن جبير بن نفير قال: سمعت النّوّاس بن سمعان الكلابي يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران». وصرّب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال، ما نسيتهنّ بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان

(١) ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود ٤ / ٢٣١.

(٢) الغمامتان أو الغيابتان: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه، مثل السحابة، والغبرة، والظل ونحوه. ينظر: لسان العرب، مادة (غيا).

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ١٩٧) برقم: (٨٠٤).



سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ^(١)، أَوْ كَانَتْهُمَا حِرْقَانِ^(٢) مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنِ صَاحِبَيْهِمَا^(٣).

قال العلماء المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين، أو غيابتين، والغمامتان أو الغيابتان: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه، مثل السحابة، والغبرة، والظل ونحوه، بينهما شرق أي نور وضياء، وقيل: الشرق بمعنى الشق وهو الانفراج، أي بينهما فرجة، بينهما حرقان من طير أي جماعتان من الطيور باسطات أجنحتها في الطيران تجادلان عن صاحبهما^(٤).

٩- عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^(٥).

السفرة جمع سافر، وهو الرسول، والسفرة: الرسل لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله، وقيل: السفرة: الكتبة، والبررة: المطيعون، من البر وهو الطاعة، والماهر: الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف، ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه، ويحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة: أن له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السفرة، لاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله تعالى، أو يحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم، وأما الذي يتتبع فيه فهو الذي يتردد

(١) شرق: نور وضياء. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، باب: الشين مع الراء.

(٢) الحرقان: جماعتان، واحده: حرق أي الجماعة. ينظر: غريب الحديث لابن الجوزي، باب: الحاء مع الزاي.

(٣) صحيح مسلم ١/٥٥٤ رقم الحديث (٨٠٥)، وسنن الترمذي ١٦٠/٥ رقم الحديث (٢٨٨٣).

(٤) ينظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ٨/١٥٥.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول النبي: الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ وَزَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، وصحيح مسلم واللفظ له، ١/٥٤٩ رقم الحديث (٧٩٨).

في تلاوته، لضعف حفظه، فله أجران أجر بالقراءة، وأجر بتتبعه في تلاوته ومشقته، ولا يعني هذا أن الذي يتتبع فيه له من الأجر أكثر من الماهر، بل إن أجر الماهر أكثر، وهو أفضل من الذي يتتبع؛ لأنه مع الملائكة السفارة الكرام البررة^(١).

١٠- عن أنس بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُمْ؟ قال: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»^(٢).

أهل القرآن هم حفظته، وسموا بأهل الله تعظيماً لهم^(٣).

١١- عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَاقْرَؤُوهُ، وَارْقُدُوا فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ، وَمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَامَ بِهِ، كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُورٍ مِسْكَ، يَفُوحُ رِيحُهُ كُلَّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ فَرَقَدَ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ، كَمَثَلِ جِرَابٍ أَوْكِيٍّ عَلَى مِسْكِ»^(٤).

أي اجعلوا آخر عملكم بالليل قراءة شيء من القرآن، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقراه، وقام به، أي في صلاة الليل، فمثله كمثل جراب محشو مسكاً يفوح

(١) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ٨٤-٨٥.

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٧٨ رقم الحديث (٢١٥). إسناده صحيح ورجاله موثقون. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ١/ ٢٩.

(٣) ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي (١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ، ٣/ ٦٧.

(٤) أخرجه ابن خزيمة في "صحيحه" (٣٨ / ٣) برقم: (١٥٠٩)، (٤ / ٢٣٩) برقم: (٢٥٤٠) وابن حبان في "صحيحه" (٥ / ٤٩٩) برقم: (٢١٢٦)، (٦ / ٣١٦) برقم: (٢٥٧٨) والحاكم في "مستدرکه" (١ / ٤٤٣) برقم: (١٦٢٨) والنسائي في "الكبرى" (٨٠ / ٨) برقم: (٨٦٩٦) والترمذي في "جامعه" (٥ / ٦) برقم: (٢٨٧٦)، وقال عنه: حديث حسن.



ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد عن الصلاة وهو في جوفه، كمثله جراب
أو كي على مسك، أي ربط فمه فهو لا يفوح منه شيء، وإن فاح فقليل^(١).



(١) ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/ ٢٥٥.

المبحث الثاني التغني بالقرآن



يطلق التغني في اللغة ويراد به معان عديدة منها: الاستغناء وهو من الغنى، والتطريب وهو من الغناء^(١)، وعلى هذا الأساس اختلف العلماء في معنى التغني بالقرآن على أقوال:

أحدها- تحسين الصوت.

والثاني- الاستغناء.

والثالث- تحزين القراءة وترقيقها، مستدلين بقوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٢).

والرابع- التشاغل به، تقول العرب: تغنى بالمكان: أقام به، واستدلوا بقوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»^(٣)، وذهبوا إلى أن معناه الحث على ملازمة القرآن، وأنه يستغني به عن غيره من الكتب.

والخامس- التلذذ: أي الاستحلاء له، كما يستلذ أهل الطرب بالغناء، فأطلق عليه تغنياً من حيث أنه يفعل عنده ما يفعل عند الغناء.

(١) ينظر لسان العرب، مادة (غنا).

(٢) سنن ابن ماجه ٤٢٦/١ رقم الحديث (١٣٤٢)، وسنن أبي داود ٧٤/٢ رقم (١٤٦٨)، وسنن النسائي ١٧٩/٢ رقم الحديث (١٠١٥) و(١٠١٦). إسناده صحيح. ينظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/٤٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، رقم الحديث (٥٠٢٣)، وصحيح مسلم ١/٥٤٥ رقم الحديث (٧٩٢).



السادس - أن يجعله هجيراً^(١)، كما يجعل المسافر والفارغ هجيراً الغناء^(٢).

ورجح كلُّ من القاضي والنووي: أنه من تحسين الصوت، ويؤيده قوله:

يتغنّى بالقرآن: يجهر به، وقول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لأبي موسى الأشعري: «يا أبا موسى لقد أُوتيتَ مِزْمَارًا من مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»^(٣)^(٤).

وردت أدلة تؤيد ما ذهب إليه القاضي والنووي منها:

١ - عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لَمْ

يَأْذَنُ اللَّهُ لِشَيْءٍ، مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ». وقال صاحبُّ

له: يُرِيدُ يَجْهَرُ بِهِ.

وفي رواية أخرى بعد أن ذكر الحديث، قال سُفْيَانُ: تَفْسِيرُهُ يَسْتَعْنِي بِهِ^(٥).

٢ - عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ

بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٦).

قال ابن بطلال **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «المراد بقوله: «زينا القرآن بأصواتكم»، المد

والترتيل والمهارة في القرآن، جودة التلاوة بجودة الحفظ، فلا يتلعثم، ولا

(١) هجيراً: أي كلامه ودأبه وشأنه. غريب الحديث لابن سلام ٣/٣١٨.

(٢) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٧٨-٧٩، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/٧٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حُسْنِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ لِلْقُرْآنِ، رقم الحديث (٥٠٤٨)، وصحيح مسلم ١/٥٤٦ رقم الحديث (٧٩٣).

(٤) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٧٩-٨٠.

(٥) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، رقم الحديث (٥٠٢٤).

(٦) سنن ابن ماجه ١/٤٢٦ رقم الحديث (١٣٤٢)، وسنن أبي داود ٢/٧٤ رقم (١٤٦٨)، وسنن النسائي

٢/١٧٩ رقم الحديث (١٠١٥) و(١٠١٦). إسناده صحيح. ينظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/٤٥.

يتشكك، وتكون قراءته سهلة بتيسير الله تعالى، كما يسره على الكرام البررة، قال: ولعل البخاري أشار بأحاديث هذا الباب إلى أن الماهر بالقرآن هو الحافظ له، مع حسن الصوت به، والجهر به بصوت مطرب بحيث يلتذ سامعه»^(١).



(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣/٥١٩.



المبحث الثالث فضائل بعض سور وآيات القرآن



الفضيلة: هي الدرجة الرفيعة في الفضل، والتفاضل: هو التمايز. وتفضيل الشيء: تمييزه على غيره^(١)، وهذا يكون في ما خلقه الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، كما بين في كثير من آيات كتابه العزيز، فقد فضل بعض الأنبياء على بعض فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢)، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٣)، وفضل الأنبياء على غيرهم فقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُودَ وَكَوْنًا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٤) وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥)، وفضل بعض البشر على بعض فقال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾^(٦)، وفضل البشر على كثير من الخلق فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٧)، أما في تفضيل بعض آيات القرآن الكريم على بعض ففيه خلاف بين العلماء، فقد منعه بعضهم كأبي

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (فضل).

(٢) سورة البقرة، من الآية (٢٥٣).

(٣) سورة الإسراء، من الآية (٥٥).

(٤) سورة الأنعام، من الآية (٨٦).

(٥) سورة النمل، الآية (١٥).

(٦) سورة الإسراء، الآية (٢١).

(٧) سورة الإسراء، الآية (٧٠).

الحسن الأشعري^(١)، وأبي بكر الباقلاني، وحجتهم في ذلك:
 أن القرآن الكريم كله كلام الله تعالى، وتفضيل بعضه على بعض يقتضي
 نقص المفضل، وليس في كلام الله تعالى نقص.
 وأجازه آخرون كإسحاق بن راهويه، وأبي بكر بن العربي.
 وأجابوا عن ذلك: بأن معنى التفاضل: أن ثواب بعضه أعظم من ثواب
 بعض، فالتفضيل إنما هو من حيث المعاني لا من حيث الصفة.
 ويؤيد التفضيل قوله تعالى: ﴿تَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(٢).
 وكذلك أجازه ابن التين حيث قال: «معناه: أن ثوابها أعظم من غيرها»،
 واستدلوا على ذلك بالأحاديث التي وردت في تفضيل بعض السور والآيات
 منها:

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي
 أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: يَا أَبَا
 الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٣) قَالَ: فَضْرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، أَبَا
 الْمُنْذِرِ^(٤).

المراد بالتفضيل هنا ليس ضد النقيصة، وإنما التفضيل الذي يكون في مقابلة
 الفاضل؛ لأن القرآن كله كلام الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، وكله فاضل وليس فيه نقص، وهذا

(١) ينظر: ملحق الأعلام، ت (٢٣).

(٢) سورة البقرة، من الآية (١٠٦).

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٤) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ١٩٩) برقم: (٨١٠).



التفضيل إنما يكون باعتبار عظم الأجر، وقد خص النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في كثير من الأحاديث عظم أجر بعض السور والآيات.

ومثال ذلك: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(١)، ولو لم يكن لها من الأجر أعظم من باقي السور لما خصها النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في الحديث، ولذلك لم يخص سور أخرى مثل سورة الكوثر أو سورة النصر أو غيرها بمثل ما خص سورة الإخلاص، وهذا ينطبق على بعض الآيات التي جاءت الأحاديث في تفضيلها، وما يلي بعض الأدلة التي جاءت في فضائل بعض السور:

أولاً- فضل سورة الفاتحة، وسورتي البقرة وآل عمران: إضافة إلى ما جاء في فضل

سورتي البقرة وآل عمران في الأحاديث المذكورة آنفاً، فقد وردت أحاديث أخرى تبين فضل هاتين السورتين، أو بعض آياتها أذكر منها:

١- عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يَفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ. فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبَشِرْ بَنُورَيْنِ أَوْتِيَهُمَا لَمْ يُوتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ١٩٩) برقم: (٨١١).

(٢) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢ / ١٩٨) برقم: (٨٠٦).

قوله (سَمِعَ نَقِيضًا): أي صوتاً شديداً كصوت نقض خشب البناء عند كسره، وقيل: صوتاً مثل صوت الباب. وخواتيم سورة البقرة: ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ﴾ إلى نهايتها، وقيل: أولها ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، لن تقرأ بحرف منها: المراد هو وأتمته إذ الأصل مشاركتهم له في كل ما أنزل عليه إلا ما اختص به، إلا أعطيته أي أعطيت ما اشتملت عليه الفاتحة وخواتيم سورة البقرة من المسألة: كقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١)، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٢) ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٣)، إلى آخر السورة، أو أعطيت ما تسأل من حوائجك الدنيوية والأخرية^(٤).

٢- عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى قَالَ: «كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾^(٥) ثُمَّ قَالَ لِي: لِأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: لِأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي

(١) سورة الفاتحة، الآية (٦).

(٢) سورة البقرة، من الآية (٢٨٥).

(٣) سورة البقرة، من الآية (٢٨٦).

(٤) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥/ ٢٢-٢٣.

(٥) سورة الأنفال: ٢٤.



الْقُرْآنِ، قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي،
وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ^(٢).

أطلق **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** على سورة الفاتحة أعظم سورة اعتباراً بعظيم قدرها، وتفردا بالخاصية التي لم يشاركها فيها غيرها من السور، ولاشتمالها على فوائد ومعان كثيرة، مع وجازة ألفاظها، أو أنها أفضل سورة، وقيل أكثر أجراً. والسبع المثاني: هي الفاتحة؛ وإنما سميت أم القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى، ومن التعبد بالأمر والنهي، ومن الوعد والوعيد، أو لما فيها من الأصول الثلاثة المبدأ، والمعاش، والمعاد، وذكر تفرد بالملك وعبادة عباده إياه واستعانتهم به^(٣).

٣- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٍ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غَيْبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبَهُ بِرُقِيَّةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقِيَّةً، أَوْ كُنْتَ تَرُقِي؟ قَالَ: لَا، مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأَمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحَدِّثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِي، أَوْ نَسْأَلِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟ ااقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ^(٤).

(١) سورة الفاتحة: ٢.

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٦ / ١٧) برقم: (٤٤٧٤).

(٣) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٩ / ١٢، ومراقبة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٥ / ٥.

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣ / ٩٢) برقم: (٢٢٧٦)، (٦ / ١٨٧) برقم: (٥٠٠٧)، ومسلم في

"صحيحه" (٧ / ١٩) برقم: (٢٢٠١).

هذا الحديث ظاهر الدلالة على فضل فاتحة الكتاب؛ لأنها مبدأ القرآن، وحاوية لجميع علومه، فهي تحتوي الثناء على الله تعالى، والإقرار بالعبودية والإخلاص له، وسؤال الهداية منه، وغير ذلك مما يقتضي أنها كلها رقية، وقيل: موضع الرقية منها إنما هو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)، وقيل: السورة كلها رقية، لقوله **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** للراقي: «وما أدراك أنها رقية»، ولم يقل: أن فيها رقية، فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية^(٢).

٤- عن أبي أمامة الباهلي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يَقُولُ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوْ بَقْرَةَ الْبَقَرَةِ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّائَتَانِ. أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنِ أَصْحَابِهِمَا. اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ. قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَّغْنِي أَنَّ الْبَطْلَةَ السَّحْرَةُ»^(٣).

٥- عن جبير بن نفير قال: سمعت النّوّاس بن سَمْعَانَ الْكِلَابِيَّ يَقُولُ: سمعت النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقول: «يُوتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَأَلِ عِمْرَانَ». وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ، مَا نَسِيْتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظِلَّتَانِ

(١) سورة الفاتحة، الآية (٥).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١/١١٣، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٩/٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في "صحيحه" (٢/١٩٧) برقم: (٨٠٤).



سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَاتَهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا»^(١).

٦- عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المُنذرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قال: قلت: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: «يا أبا المُنذرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قال: قلت: الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قال: فَضْرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ»^(٢).

قال النووي: «قال العلماء: إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم؛ لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية، والوحدانية، والحياة، والعلم، والملك، والقدرة، والإرادة وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات»^(٣).

٧- عن أبي مسعود البدرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله ﷺ: «الْأَيَّتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، مِنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ». قال عبد الرحمن: فَلَقِيتُ أَبَا مَسْعُودٍ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَسَأَلْتُهُ، فَحَدَّثَنِيهِ^(٤).

قوله كفتاه: أي دفعنا عنه الشر والمكروه، وقيل: كفتاه عن قيام الليل، وقيل: من الشيطان، وقيل: من الآفات، ويحتمل من الجميع، أو كفتاه عن سائر الأوراد، أو أراد: أنهما أقل ما يجزئ من القراءة في قيام الليل^(٥).

(١) صحيح مسلم ١/ ٥٥٤ رقم الحديث (٨٠٥).

(٢) صحيح مسلم ١/ ٥٥٦ رقم الحديث (٨١٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ٩٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدرأ، رقم الحديث (٤٠٠٨)، ومواضع أخرى،

وصحيح مسلم ١/ ٥٥٤ رقم الحديث (٨٠٧).

(٥) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ٩١-٩٢، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٥/ ٢٤.

٨- عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا زُفَعَنَّكَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا زُفَعَنَّكَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَأ حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَا زُفَعَنَّكَ إِلَيَّ رَسُولَ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أَعْلَمَكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١)، حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ؟»، قُلْتُ: قُلْتُ لِي: إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ

(١) سورة البقرة، من الآية (٢٥٥).



من أولها حتى تختم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١) وقال لي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ، وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مِنْ تُخَاطَبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَلِكَ شَيْطَانٌ»^(٢).

ثانياً - فضائل بعض السور الأخرى:

١- عن البراء بن عازب قال: كان رجلٌ يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه حصانٌ مربوطٌ بشطنين، فتغشته سحابةٌ، فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكر ذلك له، فقال: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنْزَلَتْ بِالْقُرْآنِ»^(٣).

٢- عن أبي الدرداء: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنَ الدَّجَالِ». وقال شعبة: «مَنْ آخِرِ الْكَهْفِ»^(٤). وفي رواية أبي داود عن قتادة: إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ مِنْ خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْكَهْفِ». وقال شعبة: عن قتادة: «مَنْ آخِرِ الْكَهْفِ»^(٥).

وسبب ذلك: ما في أولها من العجائب والآيات، وكذا في آخرها من قوله

(١) سورة البقرة، من الآية (٢٥٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب: إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم الحديث (٢٣١١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل سورة الكهف، رقم الحديث (٥٠١١)، وصحيح مسلم ٥٤٧/١ رقم الحديث (٧٩٥).

(٤) صحيح مسلم ٥٥٥/١ رقم الحديث (٨٠٩).

(٥) سنن أبي داود ١١٧/٤ رقم الحديث (٤٣٢٣).

تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾^(١)، فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال^(٢).

٣- عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: ثَكَلْتِكَ أُمُّكَ يَا عُمَرُ، نَزَرَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلَّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ، قَالَ عُمَرُ: فَحَرَّكَتُ بَعِيرِي ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِحًا يَصْرُخُ بِي، قَالَ: فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، وَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةً، لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُمَّ قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٣)^(٤).

٤- عن أبي هريرة: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سورة من القرآن ثلاثون آية، تشفع لصاحبها حتى يغفر له: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»^(٥)^(٦).

٥- عن ابن عباس قال: ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِباءَهُ عَلَى قَبْرِ، وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ

(١) سورة الكهف، الآية (١٠٢).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٩٣/٦.

(٣) سورة الفتح، الآية (١).

(٤) أخرجه البخاري في "صحيحه" (١٢٦ / ٥) برقم: (٤١٧٧).

(٥) سورة الملك، من الآية (١).

(٦) سنن ابن ماجه ١٢٤٤ / ٢ رقم الحديث (٣٧٨٦)، وسنن أبي داود ٥٧ / ٢ رقم الحديث (١٤٠٠)، وسنن

الترمذي ١٦٤ / ٥ رقم الحديث (٢٨٩١). وقال عنه: حديث حسن.



الْمَلِكُ ﴿ حَتَّى خَتَمَهَا فَاتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرِ، وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ: تَبَارَكَ الْمَلِكِ، حَتَّى خَتَمَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(١).

أي تدافع عن قارئها المداوم لتلاوتها بتدبير وتأمل، واعتبار وتبصر بعد ما كان ممنوعاً من دخول الجنة، لما اقترفه من الذنوب^(٢).

٦- عن أبي سعيد الخدري: أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣) يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٤).

٧- عن أبي الدرداء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَيَعِجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٥).

قال المازري: «ومعناه أن القرآن على ثلاثة أنحاء، قصص، وأحكام، وصفات الله تعالى، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، متمحضة للصفات، فهي ثلث، وجزء

(١) سنن الترمذي ١٦٤/٥ رقم الحديث (٢٨٩٠). وقال عنه: حديث حسن غريب. قال المباركفوري: في

سنده يحيى بن عمرو بن ملك وهو ضعيف. تحفة الأحمدي بشرح جامع الترمذي ١٦١/٨.

(٢) ينظر: فيض القدير بشرح الجامع الصغير ١١٥/٤.

(٣) سورة الإخلاص، الآية (١).

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، رقم الحديث (٥٠١٣).

(٥) صحيح مسلم ٥٥٦/١ رقم الحديث (٨١١).

من ثلاثة أجزاء، وقيل: معناه أن ثواب قراءتها يضاعف بقدر ثواب قراءة ثلث القرآن، بغير تضعيف^(١).

٨- عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كَانَ إِذَا اشْتَكَى، يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ، رَجَاءً بَرَكَتِهَا^(٢).

أي أنه إذا مرض يقرأ على نفسه بالمعوذات، وهي سور الإخلاص والفلق والناس، وسميت بالمعوذات من باب التغليب، وينفث: أي يخرج الريح من فمه مع شيء من ريقه، يجمع يديه ويقرأ فيهما، وينفث ثم يمسح بهما على موضع الألم^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَجَمُّدًا

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٩٤-٩٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: مرض النبي ووفاته، رقم الحديث (٤٤٣٩)، ومواضع أخرى، وصحيح مسلم ٤/١٧٢٣ رقم الحديث (٢١٩٢).

(٣) ينظر: تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ٢/٢٣٠، التيسير بشرح الجامع الصغير، زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ)، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط ٣، ١٤٠٨هـ، ٢/٢٣٩.



المحتويات

٤	مقدمة فضيلة الشيخ وحيد بن عبد السلام بالي
٦	مقدمة المؤلف
١٣	التمهيد
١٤	المبحث الأول أهمية علوم القرآن
١٧	المبحث الثاني تعريف علوم القرآن
٢٢	المبحث الثالث نشأة علوم القرآن
٢٥	المبحث الرابع أشهر المؤلفات في علوم القرآن
٢٩	الفصل الأول الوحي
٣٠	المبحث الأول تعريف الوحي
٣٥	المبحث الثاني دليل الوحي
٣٨	المبحث الثالث مراتب الوحي
٤٢	الفصل الثاني نزول القرآن الكريم
٤٣	المبحث الأول أنواع نزول القرآن الكريم
٤٧	المبحث الثاني الحكم من نزول القرآن الكريم مفرقاً
٥٣	المبحث الثالث أول ما نزل من القرآن الكريم
٥٧	المبحث الرابع آخر ما نزل من القرآن الكريم
٦٠	الفصل الثالث أسباب النزول
٦٢	المبحث الأول تعريف أسباب النزول
٦٥	المبحث الثاني أهمية أسباب النزول
٧٢	المبحث الثالث طرق معرفة أسباب النزول
٧٣	المبحث الرابع أحوال الألفاظ مع أسباب النزول من حيث العموم والخصوص
٧٧	الفصل الرابع المكي والمدني
٧٨	المبحث الأول تعريف المكي والمدني
٨٢	المبحث الثاني خصائص السور المكية
٨٤	المبحث الثالث خصائص السور المدنية
٨٦	المبحث الرابع فوائد العلم بالمكي والمدني
٩١	الفصل الخامس جمع القرآن وترتيبه
٩٢	المبحث الأول مفهوم جمع القرآن

٩٥	المبحث الثاني جمع القرآن زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
١٠٠	المبحث الثالث جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
١٠٧	المبحث الرابع جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
١١٢	المبحث الخامس ترتيب القرآن
١٢٦	الفصل السادس النسخ
١٢٧	المبحث الأول تعريف النسخ
١٢٩	المبحث الثاني حكم النسخ
١٣٢	المبحث الثالث الحكمة من النسخ
١٤٠	المبحث الرابع أقسام النسخ
١٥٢	الفصل السابع المحكم والمتشابه
١٥٣	المبحث الأول تعريف المحكم والمتشابه
١٥٨	المبحث الثاني أقسام المتشابه
١٦٢	المبحث الثالث الحكمة من وجود المتشابه
١٦٤	المبحث الرابع معرفة المتشابه وسبب الاختلاف فيه
١٧١	الفصل الثامن القراءات
١٧٢	المبحث الأول تعريف القراءات
١٧٤	المبحث الثاني شروط القراءة الصحيحة وأركانها
١٧٧	المبحث الثالث نشأة علم القراءات
١٨١	المبحث الرابع نزول القرآن على سبعة أحرف
٢٠٤	الفصل التاسع العام والخاص
٢٠٥	المبحث الأول تعريف العام والخاص
٢٠٩	المبحث الثاني صيغ العموم
٢١٢	المبحث الثالث أقسام العموم
٢١٥	المبحث الرابع أقسام المخصص
٢٢١	الفصل العاشر المطلق والمقيد
٢٢٢	المبحث الأول تعريف المطلق والمقيد وحكهما
٢٢٨	المبحث الثاني الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد
٢٣٠	المبحث الثالث
٢٣٠	حمل المطلق على المقيد
٢٣٦	الفصل الحادي عشر المنطوق والمفهوم
٢٣٧	المبحث الأول المنطوق تعريفه وأقسامه



٢٤٢.....	المبحث الثاني المفهوم تعريفه وأقسامه.....
٢٤٧.....	المبحث الثالث شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة.....
٢٤٩	الفصل الثاني عشر إعجاز القرآن الكريم.....
٢٥٠.....	المبحث الأول تعريف الإعجاز وإثباته.....
٢٥٥.....	المبحث الثاني عناية العلماء به وأهم المؤلفات فيه
٢٦٠.....	المبحث الثالث وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.....
٢٧٠	الفصل الثالث عشر تفسير القرآن الكريم.....
٢٧١.....	المبحث الأول تعريف التفسير
٢٧٤.....	المبحث الثاني نشأة علم التفسير.....
٢٧٧.....	المبحث الثالث مصادر التفسير.....
٢٩١.....	المبحث الرابع أنواع التفسير.....
٢٩٧.....	المبحث الخامس شروط المفسر.....
٣٠٥	الفصل الرابع عشر خصائص القرآن الكريم.....
٣٠٦.....	المبحث الأول خصائص تتعلق بمكانته
٣١٤.....	المبحث الثاني خصائص تتعلق بأسلوبه.....
٣٢٥.....	المبحث الثالث خصائص عامة.....
٣٢٩	الفصل الخامس عشر تدبر القرآن الكريم.....
٣٣٠.....	المبحث الأول مفهوم التدبر.....
٣٣٢.....	المبحث الثاني حكم التدبر وأهميته
٣٤٣.....	المبحث الثالث الأسباب المعينة على تدبر القرآن
٣٥٥.....	المبحث الرابع أساليب القرآن في الدعوة إلى التدبر.....
٣٦٤.....	المبحث الخامس آثار تدبر القرآن الكريم.....
٣٧٤	الفصل السادس عشر فضائل القرآن الكريم.....
٣٧٥.....	المبحث الأول فضل حفظ القرآن وقراءته وتعلمه وتعليمه
٣٨٢.....	المبحث الثاني التغيي بالقرآن
٣٨٥.....	المبحث الثالث فضائل بعض سور وآيات القرآن
٣٩٧.....	المحتويات.....